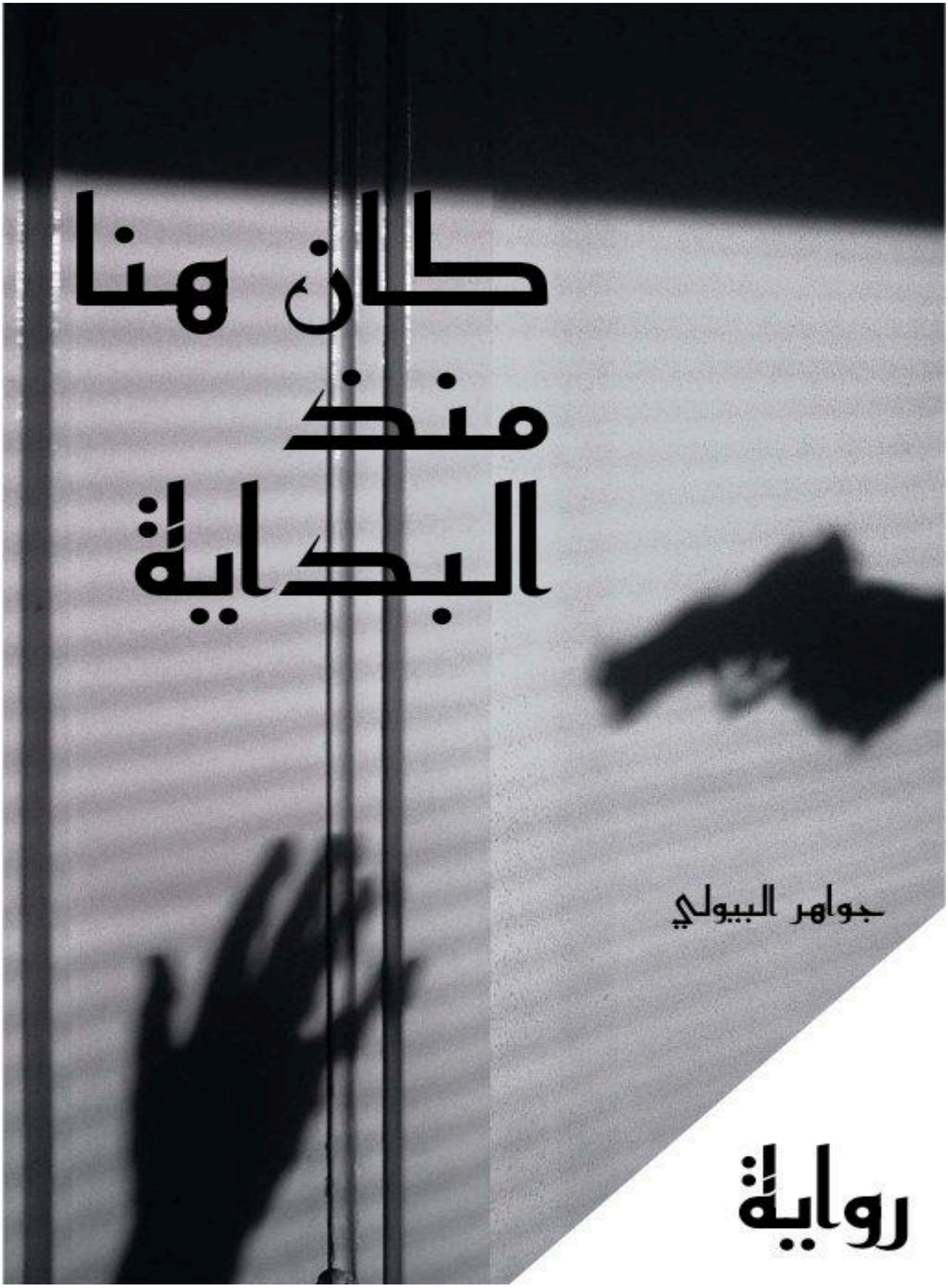

كان هنا منذ البداية

جواهر البيولي

رواية

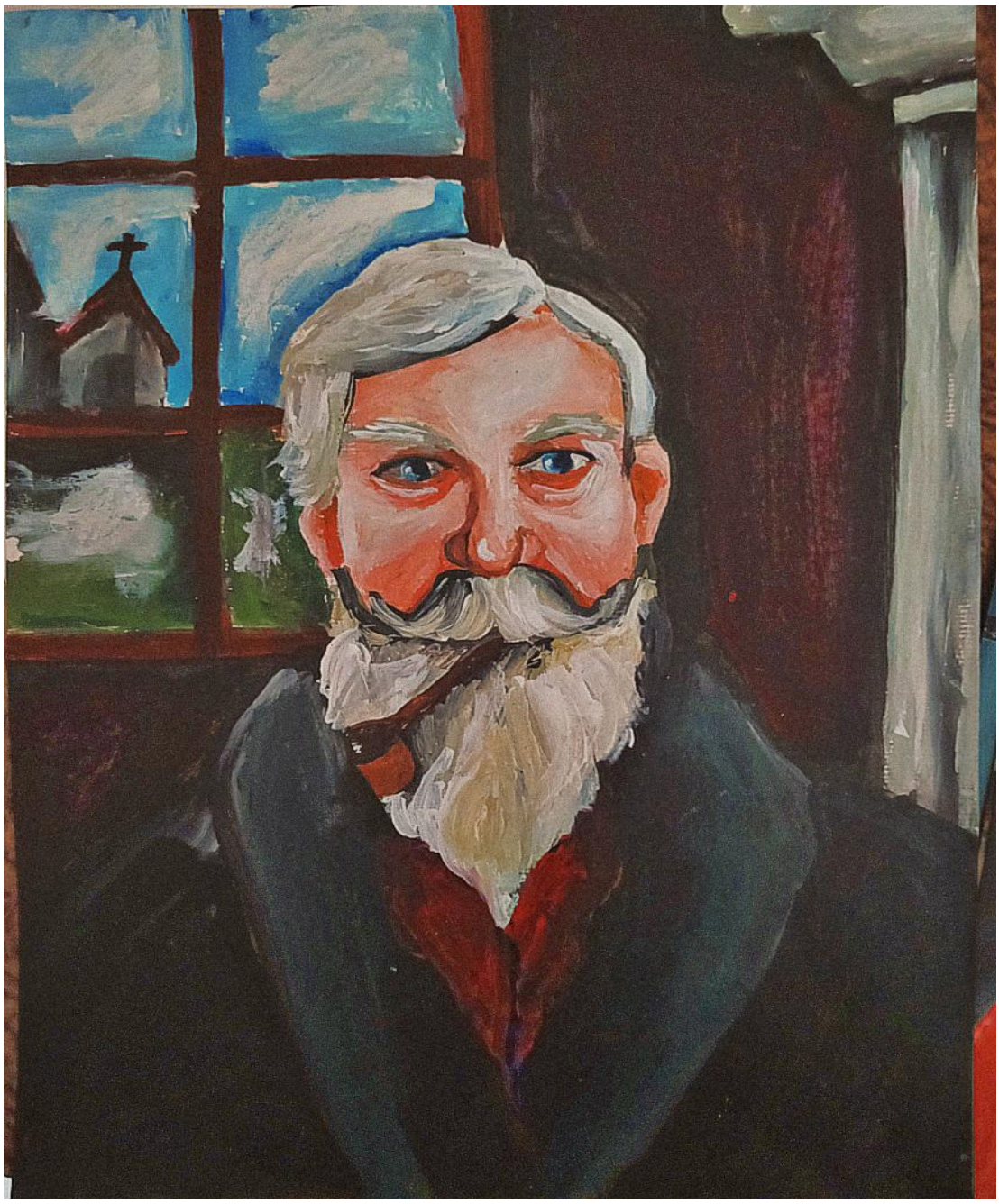

اللورد فيليب غاردنر

كان هنا منذ البداية

في

قصر اللورد فيليب غاردنر

كان هنا منذ البداية

1

ازززززززززززززز.....
على اثر هذا الصوت بدأ تسجيل حصة المريضة ميس إيفا غراي.
لتبدأ الجلسة بصمتها المعهود ثم انفجارها كقنبلة ذرية تُسقط عليه شظايا التشكيات والتذمرات البائسة اللامتناهية كالمعتاد.
العالم حزين، العالم كئيب، العالم قذر... كل الرجال أوغاد، كل النساء عاهرات.... كأنها تغني أغنية بانك*(punk)* لن تشق طريقها نحو الشهرة.
ربما لو أسست فرقة بانك لإشتهرت مثل نانسي سبانجن... من يدري.
وليلعب هو الآخر دور الطبيب المثابر المهتم الذي لم يمل من سماع هذه الشتائم وهذه العبارات البذيئة والذي يسمع نفس قصة منذ سنوات دون أي كلل أو جنون.

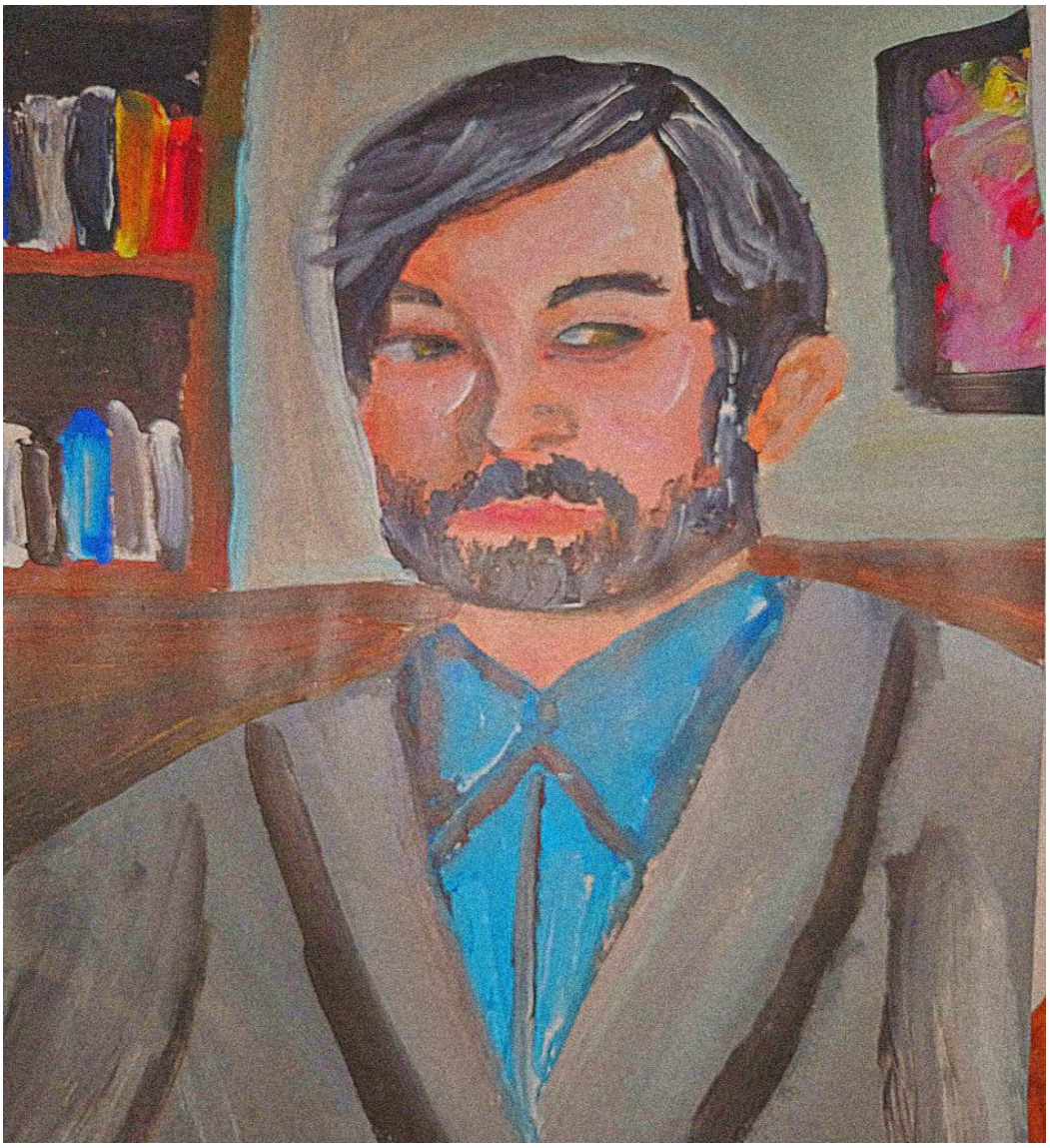

الدكتور ثيودور كراولي، يتأملها مليا بعينيه البنيتين ووجه المحمر الذي دائما ما بدت عليه ابتسامة خفيفة تجعل الناظر إليه يرتاح من العشرين ثانية الأولى، أي من أول انطباع، من أول نظرة حتى وإن كانت نظرة عن غير قصد سببها المحفزات الشعورية التي تكون تحت إدراك للحواس... لتركن في درج من أدراج اللاوعي...
ربما ذلك ما جعل أيفا ترتاح لطبيبها منذ أول لقاء بينهما وهي في سن الرابعة عشر، أما الآن فطبيبها ذاك صار أربعينيا... وهي في سن الثالثة والعشرين، أما هو ربما سيبلغ الثالثة أو الخامسة والأربعين، أو حتى أكثر،

كان هنا منذ البداية

مجرد تخمين فقد ظهر بعض الشيب على شعره ولحيته، حتما سيزيد ذلك وسامته في عينيها لو كانت ايفا تعاني من عقدة اليكترا...
لكن سحقا مشاكلها كانت أكبر من عقدة اليكترا بكثير ومع كل هذا فآثار السنين عليه لم تمنعها من أن تراه ملاكها المنقذ، الشخص الوحيد الذي مد لها يد مساعدة.
طبيب لازال يؤمن بنظريات فرويد المحصورة بين شيئين لا أكثر الطفولة والجنس، الطفل الشيطاني الذي لم يلبس ثوب البراءة يوما والجنس الذي سيكون إما عقدة أو إدمان، فقد قرر فرويد أن اضطراباتنا النفسية هي مزيج من ذكريات طفولة وأشباح أشباق جنسية.... كبت كبت كبت ، الكبت الذي يرافقك منذ أن يقطع حبلك السري ويكبر معك ليكون لا شيء غير عقد، عقد تكبر، عقد تكبت عقد لا تحل عقد تنفجر. وكان الدكتور كراولي يطبق علم النفس السريري التقليدي بحذافيره مع إيفا وكل المرضى يسمع مرضاه، يسجل، يدون، يناقش، يحلل إلى أن توصل لتشخيصها باكتئاب سريري حاد، هيستيريا، اضطراب الأكل الأنروكسيا، اضطراب ثنائي القطب، اضطراب الكرب التالي للصدمة وهوس شديد بالدماء، القتل، الانتقام، الانتحار، نعم فهي تشاهد أفلام هيتشكوك باستمتاع يجعل عينيها تشعان بريقا وفرحا كلما كان هناك مشهد دموي...

كان هنا منذ البداية

ازززززززززز.....

انتهى الصمت فجأة لتنطق إيفا أخيرا وتبدأ تلك المحادثة المعتادة التي لن تبدأ بهاي دكتور أو هالو بل بصمت جاث على شفتي إيفا لن يمكنها من النطق إلا بعد هنيهة.

- **دكتور، لم أعد أعلم ماذا علي أن أفعل، سأفقد صوابي... إلى متى سأظل على هذه الحال، ليتني انتحرت في سن الرابعة عشر، ليتني ألقيت بنفسي من جسر ما، ليتني ألقيت نفسي تحت قطار... لم أملك الجرأة الكافية لشنق نفسي أتعلم لماذا؟**
- **أعلم...**

لكنها واصلت الحديث دون مبالاة:

- **لأن بشاعة الألم لا تحتمل... ليس الأمر كما نشاهده في الأفلام، فعندما تضع ذلك الحزام اللعين حول رقبتك -الحزام الذي أرتديه الآن يا دكتور- تحس بثقل جسمك، وكأن كل الدم الذي في جسدك انتقل لرأسك، وأن رأسك أصبح عشرة أضعاف حجمه، كأن الدم سيخرج من أذنيك وأنفك و ستسقط أسنانك ومقلتيك على الأرض ثم ينفجر رأسك بفعل الضغط الذي يولده احتباس الاكسجين، ثم آخر صوت تسمعه بعد ابتطامك على الأرض هو صوت أزيز مدو قادم من بعيد ثم تفقد الوعي، دقيقتين فقط ، ثم تستيقظ مجددا لتبدأ في التصرع يمينا وشمالا وانت تحاول النجاة وقد انتفخ وجهك وتحول الى ازرق رمي مروع... تشعر بكل أنواع الألم إلا ألم الاختناق، ثم تقضي أيام تعاني ألما في رقبتك وانتفاخا واحمرارا في وجهك يصعب إخفاؤه لأسابيع أو لأشهر، لذلك تجربة الشنق فريدة لا تشبه الغرق، أو الاختناق، أو قطع أنفاسك بالوسادة في احدى الليالي الكئيبة...**

وملأ ضحكها الجنوني المكتب.

فيجيبها محاولا التمويه عن عدم مبالاته لأنه كان قد سمع هذه القصة للمرة العشرين أو أكثر، ثم يقول بصوت خافت :

- **أعلم... أنا طبيب لدي فكرة عن كل ذلك فقد قرأت آلاف الكتب وباشرت آلاف الحالات عملت في المستشفيات، حظرت على عمليات تشريح... حتى عمليات إعدام بالسجن... طبعا ليس في ايرلندا.**
- **أظن أن الموت شنقا هو أكثر أنواع الموت التي تخيفني... لأني جربت الشعور... ياله من شعور مروع، أريد موتا شاعريا دراميا رحيما تعذبت طيلة حياتي بما فيه الكفاية، لا أريد أن أقضي الدقائق الأخيرة التي من المفترض أن أتلفظ فيها أنفاسي دون لفظ أي أنفاس.**
- **فهمتك...**

فقط هذا ما قاله لكي يتجنب الحديث عن سجلها الحافل بمحاولات الانتحار الفاشلة.
لكن الأخيرة لم تصمت وواصلت الحديث في نفس الموضوع:

- **قطعت أوردتي واستلقيت على الأرض أنتظر ملاك الموت على حصانه الشاحب لأسقيه من شلال خمري المخملي ويأخذني معه... لا أعلم إلى أين، للحياة الأخرى، للظلام، للأبدية، إلى النهاية... لأي مكان غير هذا العالم الكئيب البائس، لكنه لم يفعل، عزرائيل إبن الملعونة...**
- **لن تموتي فالجسم البشري قادر على تحمل نزيف أقوى من ذلك بكثير حتى لو بترت يدك بالأكمل لن تموتي، في أسوإ الحالات ستفقدين الوعي حتى يتمكن الجسم من مقاومة الصدمة النزفية... صدقيني فتجارب الحروب العالمية وكل التاريخ الطبي هو خير دليل... النزيف شي عادي، و طالما أثبت الدكتور ميستر هاوورد كل هذا من خلال تجاربه رجل عظيم أنا موقن أنه سيدخل التاريخ في أحد الأيام... سيترك بصمة فريدة في المجتمع.**

فقاطعته في سخرية:

- **ومن عساه يكون قدوة أخرى، طبيب نفسي كفرويد؟**
- **لا... صديق من عائلة هاوورد، أحد أعرق العائلات في الطب أبا عن جد، أما هو -ميستر هاوورد- كما يحبذ أن يناديه الناس بميستر هاوورد حتى يتباهى بتاريخ عائلته المشرف لا أن يناديه الناس بدكتور فلان...**
- **لم أسمع أي شيء عن هذه العائلة...**

فقاطعها مجددا:

- **بالطبع ولن تسمعي فالرجل ليس انجليزيا، هو من فيريفيل، "باريس الصغيرة" كما كان يناديها الفرنسيون في السنين الخوالي...**
- **إذن فرنسي؟**
- **طبعا لا ففريفيل تقع في مكان بائس نائ في هذا العالم الكبير، وميستر هاوورد هو أعظم جراح قابلته في حياتي عندما عمل معي بأحد مستشفيات لندن كان طبيبا مقيما هناك وعلاقتي به كانت ولا تزال طيبة.**

تلألأت عيناه الكستنائيتان وتقاطرتا شغفا أثناء حديثه عن صديقه العزيز هذا الجراح هاوورد كأنه عاصر أينشتاين نفسه وهو بصدد رواية سيرته الذاتية ثم واصل الحديث:

- **رجل مهووس بالطب وخاصة بالجراحة وخدمة العلم، وإن كان هنا لأثبت لك أنك لن تموتي مهما قطعت من أوردة وأنسجة وشرايين...**

هذا ما قاله الدكتور ببرود قصد اسكاتها، لكن حظه اليوم كان عاثرا، فقد واصلت الحديث كأنها تتباهى بكل تلك الأفعال الشنيعة التي اقترفتها في حق نفسها كأنها بطولات.

- **لكن ماذا عن تلك المرة التي أردت فيها ذبح نفسي، عزرائيل ابن ال... أخلف الموعد مجددا... ألا ترى كم أنا إنسانة فاشلة، فاشلة في الموت، فاشلة في الانتحار، حتى الموت نفسه يمقتني، حتى الجحيم لا يريدني.**

حرك فنجان الشاي "ليبتون" الذي أدمن شربه ليس لأنه من محبي الشاي بل لأن ذاك الشاي بالتحديد يرمز للأرستقراطية الانقليزية الأصيلة، ترشف بعضا منه وقال كأنه يتحدث عن شيء خال من الأهمية:

- **كان هناك دم، لكن الجرح كان جلديا إني أتذكر الحادثة جيدا ولا حاجة لرأي الدكتور هاوورد في حادثة بسيطة كهذه، السكين على الأرجح لم تكن حادة هذا كل ما في الأمر، أو ربما لم تكن لديك الجرأة الكافية لتشقي شقا أعمق في رقبتك، أو ربما حتى وإن كان أعمق... إني أؤكد لك أنك لن تموتي فقد حدثني ميستر هاوورد ذات مرة...**

فقاطعته إيفا ساخرة:

- **لا... نظريات الدكتور هاوورد مجددا...**

لكنه واصل في لا مبالاة:

- **قلت أن الدكتور هاوورد قد حدثني ذات مرة عن رجل قد حاول عشيق زوجته قتله عن طريق إطلاق رصاصة عليه فاخترقت الرصاصة عنق المسكين، نزف كثيرا لكنه لم يمت وأجرى الدكتور هاوورد عملية على هذا الرجل وانتزع منه الرصاصة وأظن أنه الآن سليم معافى هذا إذ لم يخرج عشيق زوجته من السجن وتوعد بقتله ثانية، أترين فالموت ليس بهذه السهولة "دارلينغ".**

ترشف بعض الشاي ثانية ثم واصل القول:

- **الادمان على إيذاء الذات شيء، والانتحار شي مغاير تماما وخبرتي تأكد لي أنك لست بانتحارية يا ميس إيف.**

غمغمت قليلا ثم قالت في تردد:

- **أظن أنك على حق... دكتور؟ لقد راودني سؤال وليد اللحظة، هل الانتحار جبن أم شجاعة؟**

سكت قليلا، ليس لأنه لا يملك الاجابة بل لأنه غير قادر على تحمل نقاش فلسفي ديني نفسي لكل منا فيه وجهة نظر متناقضة فاكتفى بالقول:

- **جبن وشجاعة ... جبن لعدم قدرتك على مجابهة الحياة، وشجاعة لاقدامك على المجهول...**
- **إن كان جبنا، فلما يهاب الناس الموت، لما يتلون صلواتهم ويمسكون صليبهم كأنهم في صدد مواجهة مصاص دماء...-بيلا لاقوسي كان مثيرا في دور مصاص دماء- سحقا... أو جلسة استخراج أرواح... لم أتلو أي صلاة في كل محاولات انتحاري، لم أطلب الرحمة ولا المغفرة...ترهات.**

فقاطعها:

- **آنسة إيفا، مالذي هرع بك منذ الصباح الى مكتبي كأن أمرا جللا حل بك.**

سألها قصد انهاء موضوع الانتحار لكنها واصلت الحديث كأنها لم تسمع سؤاله ذاك.

- **ربما انا لست جبانة، أنا لا أهاب الموت، إلا الموت شنقا... فالإحساس رهيب فقد جربت ذلك يا دكتور صدقني، عندما حاولت شنق نفسي بالحزام الجلدي الذي أرتديه الآن، في تلك اللحظة أحسست بثقل جسمي ...**
- **آنسة غراي، عفوا هل أكرر سؤالي؟**

سألها بكل لطف وهدوء حتى لا تروي حادثة الشنق التي روتها للتو للمرة الألف. فقالت في سخرية:

- **هيا أخبرني في كل هذه الكتب ذو آلاف الصفحات وكل هذه المجلدات التي ترصفها بعناية ودقة كبيرين على رفوف المكتب... هل يوجد رهاب اسمه رهاب الشنق؟ هل قرأت عنه في معاجمك الطبية؟ هل درسته في الجامعة، هل تفكر في كتابة كتاب عنه مثل ما كان يفعل فرويد مع مرضاه وتدخل التاريخ... وتسميه اعترافات مريضة تعاني من هيستيريا لن تشفيها كل الرعشات الجنسيةمن رهاب الشنق؟ الهيستيريا التي تصرون أنتم الرجال على جعلها مرضا أنثويا، تبا إنها ليست الحيض، فالهيستيريا تصيب الرجال أيضا لكن فرويد يصر ويؤكد على أنها مرض أنثوي، كل النساء هيستيريات، كلهن يصرخن ويتذمرن ويمزقن شعرهن كامل الوقت إن أغضبها ابنها أو خانها زوجها... فهل أنت مثله، ذاك فرويد الذي تضع صورته فوق سطح مكتبك، ذاك الذي يؤمن أن الهيستيريا تشفى بالجنس، أو بالأحرى تشفى بنشوة الجنس... التي أنا شخصيا لا أعرفها... فعندما تكون وحيدا تضاجع لتقتل الوحدة... تضاجع لتقتل الملل.. تضاجع لتشعر بالحب للحظات ثم ترمى كالعاهرات مجددا وتركل في الشارع كأنك في أفلام الكارتون، ليس للنشوة وهرمون الدوبامين والهرمونات الأخرى التي حدثتني عنها في احدى الجلسات... كيف لإنسان ميت مثلي أن يمارس الحب ويشعر به، أنا مثلا، يا ميستر كراولي، أضاجع من القلق، أضاجع لأنسى أشياء، أضاجع من أجل سد كل الثقوب التي في قلبي...نظرية فرويد خاطئة يادكتور وأستطيع أن أثبت لك هذا فقد...**

فقاطعها بصوت حازم دون أن يشدد على أن نظرية فرويد صحيحة والنساء هيستيريات وفرويد ليس ضيق النظر، لا بأس فليحتفظ اليوم بنظرياته لنفسه:

- **عذرا آنسة غراي كنت قد سألتك ما الذي حدث لتضطربي لهذه الدرجة؟ ففي آخر لقاء لنا كنت على ما يرام... على ما أظن تركتك على ما يرام منذ يومين.**

تستفيق إيفا من هلوستها الانتحارية تلك لتتذكر سبب قدومها للدكتور كراولي فور فتحه للعيادة فقد أعياها الانتظار أمام باب العيادة خوفا من أن تجده مشغولا بمريض آخر جاء قبلها:

- **آه تذكرت... أجل لم أتمكن من النوم ليلة أمس أظن أن هذا ما زاد حالة الذهان خاصتي سوءا، طردت من المنزل... حضرة الدكتور... قريبا سأعود للتشرد، التسول، ممارسة كل تلك الأفعال القذرة من أجل كأس جعة... أيام تفصلني على العودة للحياة البائسة مجددا، لا عائلة، لا مسكن، لا طعام، لا...**

فقاطعها في استغراب:

- **لكنك كنت على اتفاق مع صديقتك تلك التي تسكنين معها ، ما الذي غير الأمر في عشية وضحاها؟**

طأطأت رأسها وابتسمت:

- **لم يتغير شيء... تلك المعتوهة ستتزوج بذاك السكير... ايد، هل تعرفه؟**
- **السكير ذو الأقراط وتسريحة الموهوك والشعر الأخضر والأوشام... أنا لا أنسى أي شيء تقولينه، ليس لأني أتمتع بذاكرة قوية... بل لأنك تتحدثين عن نفس الأشياء مرارا وتكرارا...**
- **حسنا... لن يتزوجها لأنه يحبها، بل لأنها حامل بعد أن ضاجعها في بيت الرب كما يقول ساخرا متباهيا وهو يدخن سيجارة ويحمل قارورة جعة رخيصة باليد الأخرى، انه حقير لكن الحب أعمى كما يقال، لكن حبهما مصاب بشلل رباعي، مصاب بشلل في النخاع الشوكي، أي نوع من التمرد هذا... رذيلة في الكنيسة دون أن تمسكهما الشرطة... حقا نحن البانكرز... مجموعة حمقى، مجموعة مجانين...**

لقيطان سينجبان لقيطا وسيحظى بحياة بائسة... حسم الأمر.

وعادت للضحك بسخرية.

ابتسم الدكتور كراولي ابتسامة خفيفة وقال بصوت أشبه بالهمس:

- **البلاسفومي في أسوإ حالاتها...**

لكن على الأرجح إيفا لم تفهم كلمة واحدة من الذي كان يتمتم به ميستر كراولي، فاكتفت فقط بالضحك كالبلهاء المجانين.

لكنه قاطع ضحكها بسؤال مصيري:

- **وماذا ستفعلين الآن؟**
- **ماذا عساي أن أفعل، من يقبل بدخيل في عشه الزوجي خاصة إن كان الزوج سكيرا مثل ايد... سنعود للصفر يا دكتور، لسن الرابعة عشر عندما عقلت الدولة على المنزل بسبب ديون والدي ورميت أنا عند أحد خالاتي، ثم أحد عماتي ثم دار الايتام... وصولا للتشرد من حيث بدأنا أنا وأنت... علاج سنوات ومجهودك قد ذهب إلى الجحيم، حتى الإيجار في أيرلندا قد ارتفع بنسبة *15%* في السنة نفسها، وهذا يحدث لأول مرة، هذا ما سمعته في التلفاز...**

لكن الدكتور كراولي ظل صامتا...

هل فشل حقا في إصلاح الأمور؟ وأخذ يفكر بينما واصلت الحديث بنبرة مكسورة متضرعة للمساعدة:

- **كل هذا يزيد اضطراباتي النفسية سوءا، كل هذه الأفكار والأصوات، الصراخ، الدماء، شبح ذاك الرجل الغامض ذو الملابس والقبعة السوداء الذي كان واقفا في الباب على شكل سيلوات مستمتعا بالمجزرة العائلية التي دمرت مجد عائلة غراي... هذا ما أراه كلما أغلقت عيني، لا أستطيع التحمل يا دكتور.**
- **مممم، حسنا هل مازلت تتذكرين كل شيء عن ذاك الرجل ذو الملابس والقبعة السوداء؟**

قالت وهي ترغب في استرجاع بعض الأحداث:

- **كل شيء...كل شيء ... ماذا تعني بكل شيء؟**

ثم أردفت في استنكار:

- **طبعا أنت تعلم أني لا أتذكر كل شيء، كل ما أتذكره هو برودة دمه، صمته القاتل بينما وغدان يتداولان على اغتصابي بعد أن فجرا رأس والدي ووالدتي بطلق ناري...**

همهم قليلا ثم قال بعد أن أخرج تنهيدة عميقة من صدره:

- **من يستطيع أن يشفى من صدمة كهذه، تروما أبدية... مأساة سرمدية، إبادة لعائلة كاملة، كمأساة عائلة نيكولاس قيصر روسيا... لكن أنت من نجوت من كل ذلك دون أضرار يا عزيزتي.**

فضحكت بصوت عال، والدموع تنهمر من عينيها:

- **دون أضرار... فتاة ذكية مدللة في الرابعة عشر من عائلة مرموقة لوالد كيميائي يعمل في مختبر للأدوية وأم تدرس التاريخ في معهد ثانوي، تشهد موت عائلتها أمام عينيها، يغتصبها ساقطان، من شدة الخوف والبكاء حتى ألم فض غشاء البكارة وألم ممارسة الجنس لأول مرة لم أشعر بهما، كل ما شعرت به هو الخوف... الخوف من الموت، نعم الموت الذي صرت أتمناه الآن، ظننت أن ذاك الرجل ذو الملابس السوداء الواقف عند الباب أيضا سيغتصبني ثم سألقى مصير أبوي، لكنه قال بصوته الهادئ ودمه البارد "لا تنهيا على الفتاة، لا حاجة من ذلك" ثم استدار وخرج، ليتبعه الرجلان ليتركا عائلة غراي غارقة في دمائها وإيفا البريئة غارقة في دماء الاغتصاب والدموع...**

وتواصل البكاء والتشنج...

- **ذاك الرجل الغامض لا أعلم إن كان قد شفع لي، أو فتح أمامي أبواب الجحيم... هو بالذات ذكراه لا تفارقني.**

ترشف الدكتور بعضا من شايه وقال في هدوء تام بصوته الرجولي الفخم الهادئ، نعم إنه الصوت الذي تفكرون فيه وتسمعونه الآن في أذهانكم، فكل الأطباء نبرتهم متشابهة لأن ذلك ما يدرسونه في الجامعة:

- **هدئي من روعك، من فضلك وإلا ستصابين بنوبة هلع على قريب...**

لكنها لم تقل شيئا، بل تمددت على الكرسي ألقت بثقل رأسها لتظهر تلك الندبة التي على عنقها، فهي لم تبذل أي جهد في اخفاءها بل طالما كانت تتباهى بها أمام

أصدقائها الذين أدمنوا إيذاء ذواتهم بينما تلقي عليهم محاضرة مختلطة بصوت البيس والطبول ومغني روك أو معدن صوته أقرب للفحيح من الغناء في احدى البارات أو أنفاق الأندرغراوند أين تقام أكثر الحفلات صخبا:" البانكرز يقطعون أوردتهم، يزينون رقابهم بندوب كهذه، يضعون جروحا على وجوههم، ندبة طولية تشق العين كأبطال مجلات السايبر بانك المصورة... نعم فهم لا يهتمون بذلك لأن ألم الواقع أعمق بكثير من ألم مشرط صدئ دام يقطع وريدك، غير مبال إن كان قد يسبب لك شللا على مستوى اليد، أم موتا رحيما كالذي نراه في المسرحيات الاغريقية، أو الأسوأ أن يتعفن الجرح ويسبب لك تعفنا دمويا بسبب متلازمة الصدمة التسممية المتسببة فيها البكتيريا العنقودية الذهبية، إما أن تبتر أعضاؤك أو تموت".

ليرد عليها أحد الحاضرين بصوت ثمل يملؤه الحماس والاثارة:" تبا هذه الكلمات تصلح لتكون أغنية جديدة، عيديها حتى أكتبها".

عندها تشعر ايفا بفرح كبير.

****

تنهد ميستر كراولي وعديد الأفكار تدور في ذهنه، هل سيستسلم أمام حالتها التي قضى تسع سنوات من عمره محاولا علاجها؟

نعم تقريبا عقد من الزمن.

ثم أخذ يدون بعض الملاحظات على البطاقة العيادية المخصصة ل"إيفا غراي".

إيفا التي رآها في أسوإ حالاتها أول مرة عندما زارها في المستشفى فور سماعه بالحادثة وتطوع ليباشر حالتها لأن كل ما رآه في عينيها كان الحزن... في أسعد حالاتها عندما ظنت أنها وقعت في الحب بعد أن تعرفت على عازف بيس غيتار من فرقة مشهورة لا يمكن تذكر اسمها فأسماء هذه الفرق الموسيقية غريبة غير متناسقة تصيبه بالقشعريرة والغثيان، أو عندما ضاجعها مايك جاغر بعد إحدى حفلاته، كانت مسرورة تتباهى بذلك وتحدث الجميع لاسابيع عن مايك جاغر وعن

تلك الليلة، تتباهى بفحش ذنوبها دون مبالاة، ماذا يفعل أعضاء الرولين ستونز غير الموسيقى والنوم مع المعجبات.... آاااخ فرق مقرفة.
مطت إيفا شفتيها بحركة سريعة دائما ما تعودت القيام بها فور توترها، بدأت ساقيها النحيلتين ذو الجوارب السوداء المشبكة الممزقة الأنثوية المغرية بالارتجاف، أراهن على أنها ممزقة لعدم قدرتها على اقتناء جوارب مشبكة أخرى،وليس حبا لموضة الشارع كما تدعي.
أخذت يداها الصغيرين الرقيقتين تضغطان على قماش التنورة المخملية التي اعتلتها طبقات الدانتيل السوداء القصيرة مع حزام جلدي غليظ رشقت فيه مسامير... سحقا لموضة العصر وكل هذا الفسق والابتذال.
أحست الآنسة إيفا ببعض الإختناق، كأن المكتب قد خلى من الأكسجين وأخذ حجمه بالتقلص ليسحق جسدها الصغير وكل عظامها.
زحفت يداها بكل بطئ نحو ياقة سترتها الجلدية الواسعة التي ألصقت عليها عديد العبارات التي يرددها المتمردون أمثالها (البانك *"punk"* ليس ميتا)، اقتلوا السود، المجد للبيض، بالطبع شعار الرولين ستونز ذاك الفم المفتوح، جمجمة عليها شعار جنود الss، كما التي يتباهى بها ال*skinheads*، رايمونز، ذو كلاش... شعارات لفرق موسيقية بديلة تنتفض على كل الكلاسيكيات والموسيقى الريفية، الدينية، الجاز والبلوز -ليرحمكما الرب يا بيلي هوليداي وفرانك سيناترا-.
أما هو فمازال يرمقها بنفس النظرات وهي تقوم بحركاتها المعهودة، فتحت الزر العلوي للسترة وأخذت تلمس رقبتها النحيلة التي تشقها ندبة عرضية تبلغ السبع سنتيمترات.
الدكتور كراولي قد تعود على هذه الحركات المصاحبة لنوبات الهلع التي تنتابها بشكل دائم، بل صارت روتينية بالنسبة له، يعلم متى تبدأ وكيف تنتهي وكم من الوقت تدوم.
سكتت قليلا ثم انفجرت بالبكاء وقالت بصوت بائس:
- **أمثالك لا يفهمون شيئا يا دكتور ففي نهاية اليوم لديك منزل دافئ وأسرة لتعود إليهم دون أن تفكر في شيء...**

فأنزل رأسه فور سماعه تلك الجملة في الواقع هي لا تعلم عن حياته الشخصية شيئا ولا تعلم إن كان حقا لديه أعزاء ليعود إليهم بعد نهاية اليوم، بل أصر على التحفظ طيلة السنوات.

ثم واصلت التذمر:

- **هل تعرف معنى الجوع أو التشرد؟ هل سبق وأن تسولت في أزقة دبلن؟ هل سبق أن نمت أمام الحانات، وضاجعت رجلا سمينا ثملا قذر الرائحة كجرذ المجاري وكريه الأنفاس لا تعرف عنه شيئا مقابل بضع جنيهات؟ هل سبق أن تسكعت مع "البانكرز" - بالطبع الذين يمقتهم الجميع- حتى طلوع الشمس؟ طبعا لا، فأنت لا تعرف شيئا عن أزقة الموت تلك، أيام تفصلني على أن أرمى في الشارع وأعود لحياة التسول من جديد، كيف لي أن أهدأ... كيف؟**

ثم صمتت لتلتقط أنفاسها، لكنها لم تتوقف عن البكاء.

لكن الأخير حاول أن يخفف من ألم روحها الذي كان يعلم أنه لن يشفى، ولن يتمكن من علاجها وتبرئة ضميره المهني وإثبات صحة النظريات التي بناها فرويد ولسان حاله يقول:

هل أعطيها قرصا مهدأ؟

لا... ستعود للادمان.

هل أجرب معها التنويم المغناطيسي؟

لا... فأنا لم أتمكن منه بعد... سحقا.

هل أرسلها لمستشفى الأمراض العقلية الحكومي؟

لا... ستسوء حالتها أكثر .

ثم خاطبها بصوت حازم واثق بأن الأمور ستكون على ما يرام:

- **إيفا، لا أريد أن أراك منهارة هكذا، لقد تخطيت الكثير، وتجاوزنا كل المحن مع بعضنا، وسنجد حلا لهذا أيضا، فقد أحرزت تحسنا ملحوظا على الصعيد النفسي، هل تتذكرين تلك الأيام العصبية التي قضيتها في العنبر الخاص بالمرضى النفسيين في المستشفى بعد موت عائلتك، أتذكر الحزن الذي رأيته في عينيك في ذلك اليوم لقد كنت بريئة في سن الرابعة عشر تلك**

النظرة هي التي جعلتني أتشبث بك، هل مازال يصيبك الجاثوم ويمنعك (أولئك الأشخاص) الذين ترينهم في أحلامك عن النوم؟ بالطبع لا، هل مازلت تعانين من الرهاب الاجتماعي؟ أيضا لا... وعديد الأشياء الأخرى، فأنا أشرفت على علاجك منذ سنوات... وقد أثبتت للجميع أنك صرت إنسانة جديدة... فقط تحلي بالصبر، فالأشياء الجيدة غالبا ما تأخذ وقتا أكثر من اللازم.

فانتفضت صارخة:

- **أولئك الأشخاص هم عائلتي، أمي وأبي اللذان ماتا شر ميتة لا تنسى كيف لك أن تتحدث عنهما كأنهما نكرة؟ الجاثوم يصيبني بسبب ذلك الرجل كل ما أراه هو كيان أسود يراقبني في كل مكان، كالظل، كالقرين، ككيان تولبا غامض يتحدث معي كل يوم بنفس تلك النبرة الهادئة الحازمة... أنه هنا في المكتب... في كل مكان... وليس فقط في أحلامي، تخطيت كل شيء إلا هو... يشير عليهم بيده ثم يستمتع بالمشاهدة، إنه رئيسهم... ليتني تمكنت من رؤية وجهه في تلك الليلة أو التعرف على ملامحه.**

فرد عليها ببرود قاتل كأنه سمع شيئا قد شد انتباهه في كل الذي قالته:

- **حقا، جيد جدا أنك تتذكرين قصة كيان التولبا التي حدثتك عنها ذات يوم، كم أشعر بالشغف والفخر كلما تتعلمين مصطلحا جديدا.**

تغيرت نبرة صوته لتصير حادة:

- **أما عائلتك قد انتهت منذ وقت طويل، إنسى أمرهم فقد صاروا من الماضي، والدك هو السبب ما كان عليه التورط في هذه الأشياء، أعلم أن أمك لا دخل لها كان موتها عرضيا على الأرجح...**

ثم قال في تحسر:

- **والدك هو السبب... والدك المذنب الوحيد... والدك من جنى على الجميع، نعم لقد كان كيميائيا يعمل في مجال الصيدلة أب لأسرة سعيدة هذا ما يراه المجتمع، أما الباطن فهو يصنع كل أنواع الأدوية وأقراص الهلوسة والمخدرات وأدوية الأعصاب لتلك العصابة التي لقى حتفه على يديها، هذا ما وصلت له الابحاث وهذا ما نشرته الجرائد.**

قالت وكأنها تتمنى البصاق:

- **هراء... كلام فارغ، لا أحد يصدق الجرائد فهي لا تنشر إلا الأكاذيب والتفاهات من أخبار المشاهير... والدي رجل شريف.**

تنهد هو وأضاف:

- **اااه كم الظاهر خداع، وبالحديث عن الرجل ذو الملابس السوداء فقد كان رحيما معك، أنقذك من الموت... صحيح أنه شاهدهم يغتصبونك... اظن انه لم يتمكن من منعهم من ذلك، لكنه تمكن من منعهم من قتلك، لكن يبقى الاغتصاب أفضل من الموت في كل الأحوال.**
- **لا... بل هو أسوأ من الموت بكثير دكتور.**
- **عاهدت نفسي أن أخرجك من بؤسك، أقسم بشرف مهنتي سأخلصك من بؤسك... آنسة إيفا غراي.**

لكنها لم تهتم لكلامه وواصلت البكاء، فهي هشة كدمية بورسلان فيكتورية - رغم ملابسها السوداء الغير لائقة، التي لم ترق لا للمجتمع ولا للدكتور- ، جميلة كأنها دمية آدمية، بشعرها البرتقالي الممزوج -دعنا نتجاهل خصلاته الحمراء- المنسدل الهادئ كسماء في وقت المغيب وعيناها المخضرتان الجميلتان كجمال الريف الايرلندي الذي تغزل بيه أوسكار وايلد، نظارة بشرتها زينها بعض النمش الذي قبّل وجنتيها بكل عفوية، لنتجاهل أيضا ذلك الخرص الذي في أنفها ونحمد الرب أنها لم تثقب المزيد من الأخراص في فمها وحاجبها.

بئسا فالجميلات لا يعيشن دائما حياة مترفة كما تصورها لنا الشاشات الفضية الهوليودية، بل ربما هن أعثر المخلوقات حظا.

فدائما ما كان الجمال عائقا في هذا الكون، كلنا نبحث عن المثالية وعن الجمال الأخاذ الساحر الذي يلقى بتعويذته على قلوبنا، الذي يأسر فؤادنا ويعمي عقولنا لكن في النهاية، الجمال يبقى مجرد لعنة أسطورية قديمة لن تزول .

فينوس آلهة الجمال أمامي تتضرع من أجل المساعدة، وأنا أقف مكبلا... عاجزا.

******

"طق، طق، طق، طق..."
"تك، تك، تك، تك..."
"طق، طق، طق، طق..."
"تك، تك، تك، تك..."
لم يكن هذا الصوت متأتي من الساعة الجدارية الفكتورية العملاقة وحدها، بل سابقه صوت طقطقة حذاء الدكتور كراولي الذي كان يتجول في أرجاء غرفة المكتب ذهابا وإيابا بطريقة تعكس توتره أو بالأحرى توتر المريضة المستلقية على الأريكة أمامه منتظرة "الخلاص".
جاب كل أرجاء غرفة المكتب مرارا وتكرارا، تأمل الكتب التي ملأت مكتبة الروكاي الضخمة والفخمة تلك، تمثال رأس ديفيد المركون بين كل تلك الكتب، وتمثال فينوس دي ميلو "مبتورة اليدين، بائسة الحال" الذي وضعه على طاولة في إحدى زوايا المكتب، تأمل لوحة "إصرار الذاكرة" للعظيم سلفادور دالي رائد الحركة السريالية، ثم أمعن النظر في لوحة أخرى علقت على الجدار المقابل لوحة لرجل كهل مرسومة بأسلوب الحركة التعبيرية تعود للوسيان فرويد وهي أصلية قد كلفته ثروة طائلة من أجل شرائها، وقد اشتراها فقط لأنها تعود للرسام لوسيان فرويد حفيذ الدكتور سيغموند فرويد، بعدها أنزل عينيه من على اللوحة لتسقطا مباشرة على صورة قدوته الدكتور سيغموند فرويد بينما كان يرفع حاجبا وينزل الآخر ويمرر لسانه على شفتيه بتكرار ويتلاعب بالقلم بين أصابعه بكل خفة، كأنه يخطط لشيء ما، إلى أن هدأت طقطقة حذاءه أخيرا، وقف جاثما في مكانه ثم راح يجول بنظره في كامل أرجاء المكتب كأنه يدخله لأول مرة.
في الواقع كان يتعمد فعل ذلك هروبا من مشهد إيفا التي فطر حزنها قلبه، فهو لم يتحمل رؤية إيفا مستسلمة ثانية، ففي السنوات التي باشر فيها الدكتور كراولي حالة إيفا غراي، فعل معها المستحيل ليخرجها من بوتقة العزلة والاكتئاب السريري الذي صارعته لسنوات وسلبها كلا من صحتها النفسية والجسدية على حد السواء كأنه مرض خبيث لن يشفى.

كان هنا منذ البداية

في بعض المواقف كانت تدعي القوة، لكن كان هو الوحيد القادر على رؤية روحها الشفافة المنهارة ...
نعم فالدكتور ثيودور كراولي خريج جامعة كامبريدج هو من يلصق شظايا روحها المبعثرة.
امتزج صوت تكتكة عقارب الساعة بصوت بكاء إيفا التي لم تملك حلا آخر غير النحيب.
وفجأة ظن الدكتور أنه وجد حلا مناسبا لأزمتها، غمرته الغبطة في ثانية وبحركة سريعة التفت إلى طاولة مكتبه، مد يده نحو المسجل ليوقف تسجيل حصة اليوم.
توجه نحو مشغل الاسطوانات وشغل معزوفة الدانوب الأزرق.
ألقى بالقلم على المكتب وقال بصوت منشرح متفائل:

- **لقد وجدتها، لقد وجدت الحل الذي سيغير حياتك إلى الأبد... آنسة إيفا غراي أعدك أنك لن تبكي بعد الآن.**

كلماته جعلت إيفا تتوقف عن البكاء مباشرة وأخذت تراقبه وهو يفتح أحد أدراج مكتبه ويخرج منه صحيفة ثم قال بابتسامة عريضة لم يسبق وإن ابتسم مثلها طيلة هذه السنوات لتعكس نجاحه في إنقاذ أحد مرضاه وتغيير مسار حياتهم نحو الأفضل وحفظ أرواحهم المعذبة المستسلمة للموت من مزيد من الوجع والألم والمناجات:

- **نعم يا ميس إيفا غراي فاليوم هو بالفعل يوم حظك، أحمد الرب أني تذكرت شيئا مهما، فقد قرأت قبل بضعة أيام إعلان شغل في صحيفة "ذي آيريش تايمز"... هيا ألقي نظرة عليه أظن أن الأمر سيعجبك.**

كانت تتأمل الصحيفة المطوية في يد الدكتور كراولي، لم يلفت انتباهها أي شيء في تلك الصفحة غير كلمة "عرض شغل"
وبدأ الدكتور يقرأ عليها ما ورد في الاعلان :

<u>عرض شغل</u>

كان هنا منذ البداية

يعزم اللورد إدوارد ماكغريغور انتداب جليسة أطفال مجالسة ابنته الرضيعة التي لم تتجاوز السنتين وذلك بدوام كامل مع توفير كل متطلباتها وعديد الامتيازات الأخرى علما أن الإقامة ستكون في القصر مع راتب الاسبوعي يعادل 30 جنيه إسترليني.

العنوان: قصر اللورد فيليب غاردنر 265 غرب إيرلندا.

***

L. Edward. McGregor

كان هنا منذ البداية

THE IRISH TIMES

عرض شغل

يعزم اللورد إدوارد ماكفريغور انتداب جليسة أطفال مجالسة ابنته الرضيعة التي لم تتجاوز السنتين وذلك بدوام كامل مع توفير كل متطلباتها وعديد الامتيازات الأخرى علما أن الإقامة ستكون في القصر مع راتب الاسبوعي يعادل 30 جنيه إسترليني.

.العنوان: قصر اللورد فيليب غاردنر 265 غرب إيرلندا

L. Edward. McGregor

ليحمي الله الملكة

الملكة اليزابيث تخصص مبلغا هاما للتبرعات

تفاصيل اخر حوار أجرته الملكة مع الصحيفة

1

كان هنا منذ البداية

- أجر خيالي... أليس كذلك آنسة غراي.

كانت دموع إيفا تنهمر بغزارة لتمسحهم بابتسامة ثم ضحكات متقطعة لتقول:

- وما الذي يجعلك متأكدا من أنهم سيوظفونني، وما الذي يجعلك توقن أنها فرصة العمر، بانكر... جليسة للأطفال، هذا أسوأ بكثير مما فعله ايد في الكنيسة؟

- هيا... قليلا من التفاؤل، دائما ما تبالغين في سودويتك آنسة غراي رغم كون إسمك العائلي غراي... غراي...

وضحك على تلك النكتة التي يبدو أنها لم تضحك إيفا على الإطلاق فسألته:

- سنتان تفصلاننا على سنة *1980*، وهذا المعتوه لا يزال يلقب نفسه باللورد ويسكن قصرا في أعالي هضاب ايرلاندا، لنحمد الله أن القصر ليس في ترانسيلفانيا، أو في ويتبي وإلا سأظن أن الكونت دراكولا نفسه هو من يقترح عرض الشغل ذاك... خزعبلات

فأجابها:

- النبلاء يا عزيزتي... النبلاء.

ثم سألته مجددا:

- ما الذي يجعلك مقتنعا أنه سيوظفني؟

- وهل لديك حل آخر غير المحاولة وانتهاز الفرصة؟ أعلم أنك تستطيعين نيل هذه الوظيفة، يحب أن تقدمي أفضل ما لديك لتقنعي اللورد، فهو من أثرى الرجال في إيرلندا، لقد ورث هو وزوجته أموالا، عقارات، سفنا والكثير من الأشياء عن صهره اللورد فيليب غاردنر -لترقد روحه بسلام- فقد توفي ذلك العجوز منذ سنتين وصار اللورد إدوارد المشرف الرسمي على كل الاملاك، فكري في الأمر فالفرصة تأتي مرة واحدة في العمر ولا يوجد أمامك أي خيار آخر غير إثبات جدارتك ونيل الوظيفة... عزيزتي إيفا أنا أثق ثقة عمياء بقدرتك.

- لكن...

- لا يوجد لكن، هيا إن الأمور في غاية السهولة.

تناول ورقة بيضاء صغيرة، كتب فيها عنوان القصر وناولها إياها وقال:

- **هو يعيش على الطراز القديم... لا يملك هاتفا ولا يوجد أي وسائل اتصال في القصر... هذا ما يقوله الناس عنه، لكن فرصة كهذه تستحق عناء السفر والمغامرة، ارمي النرد لعل اليوم يوم حظك.**
- **سحقا... هذا محال، حتى هاتف لعين لا انسى الأمر...**
- **بئسا للهاتف والتلفاز والأفلام وكاميرا البولارويد وتقنية تسجيل الvhs والموسيقى المعتوهة التي تسمعينها... أنت على أبواب التشرد... هل لديك حل آخر... أنيريني؟**

وبالفعل قد بدت عليه علامات التوتر.

- **لا... للأسف.**
- **فقط فكري في الأمر، انه يستحق المغامرة، ارتدي ملابس لائقة، سترة بيضاء وتنورة محتشمة، تخلصي من الخصلة الحمراء الفاقعة التي في شعرك وشديه للوراء، ولا تنسي خرص الأنف... فالاخراص مبتذلة لا تليق بكرتوازية قصر اللورد فيليب... آه، حتى أقراط الأذن فهي مبالغ فيها، غطي تلك الندبة ان أمكن يجب على مظهرك الخارجي أن يعكس جديتك وحزمك ولطفك فأنت ستجالسين ابنته الوحيدة التي لم تتجاوز السنتين، إن طبقت كل هذا ستودعين دبلن وازقتها الممتلئة ب"البانكرز" والمتسكعين وشعاراتهم الثورية المتمردة القادمة من بريطانيا العظمى "فليحفظ الله الملكة" وموسيقى "مسدسات النكاح" الصاخبة الثاقبة الآذان التي صارت أشهر من النشيد الوطني... اووووه، رباه أولئك المعتوهين ومظاهراتهم وموضتهم التي تملأ الشوارع، سحقا... حسنا لنعد لموضوعنا، فقط تخيلي أن الأمور تسير على ما يرام، وأنك ستذهبين لغرب أيرلندا لقضاء عطلة بين أحضان الطبيعة... أترين أنت دائما ما تعتقدين الأمور، راتب محترم... لا بل راتب خيالي... وإقامة مجانية، رحبي ببعض التغيير فأنت جميلة ويافعة، حياتك قد بدأت للتو.**

فقالت في تردد:

- **في الواقع... في الواقع ليس لدي ملابس محتشمة... ولا مالا للسفر...**

فتوجه ميستر كراولي نحو الشماعة ودس يده في جيب معطفه وأخرج لفة من النقود وتوجه نحو إيفا محافظا على نفس الابتسامة على وجهه مناولا إياها النقود قائلا:

- **خذي... أولا تخلصي من خصلات الشعر الحمراء الفاقعة، شعرك البرتقالي الطبيعي في غاية الجمال... ثانيا اشتري ملابس محتشمة ورخيصة... ثالثا سيبقى لك حق تذكرة القطار ثم خذي سيارة أجرة.**

دهشت إيفا للحظة قبل أن تستوعب ما حصل ثم قالت:

- **دكتور... أحقا تعني كل هذا... كيف لي أن أشكرك، حقا لساني عاجز...**

فقال بسرعة:

- **لا داعي للشكر... سفرة سعيدة ورحلة ممتعة يا آنسة غراي، هذا كل ما أستطيع فعله لمساعدتك.**

أخذت إيفا النقود من يده وقالت بفرحة لا توصف كأنها تلك البريئة ذو الرابعة عشر، لا المتسكعة ذو الجوارب الممزقة:

- **أنا حقا مذهولة.. متفائلة لأول مرة...**
- **دارلينغ هذا عادي، فهذا عملي، أن أنقذ أمثالك وأخلصهم من العذاب، ستشكرينني لاحقا عندما تعلمين قيمة ما فعلته من أجلك، لن تتألمي بعد الآن، لن تتعذبي، ولن تبكي مجددا... أما الآن فاعذريني فقد انتهت حصة اليوم ويجب أن أجرى اتصالا مهما مع أحد الأصدقاء ثم أستقبل أحد المرضى.**
- **حسنا، إلى اللقاء.**
- **وداعا، آنسة إيفا غراي... وداعا.**

واستدارت نحو الباب لتفتحه وتخرج، لكنها التفتت له مبتسمة ابتسامة جعلت وجهها يحمر كتفاح تساقط من جنات عدن، وعيناها يشعان كأنهما أحجار كريمة بسحرهما الخاص وقالت بصوت خافت لكن مسموع:

- **دكتور ثيودور كراولي لتحفظك الملائكة.**

ثم استدارت وأغلقت الباب بلطف.

في المنزل أين كانت ايفا تحزم أمتعتها المتكونة من بعض الملابس الرخيصة المحتشمة التي اشترتها للتو، وقفت أمام المرآة بعد أن فرغت من صبغ شعرها الى برتقالي طبيعي مائل للصدئ... تأملت نفسها أمام المرآة طويلا... كأنها تودع شخصا عزيزا لن تراه مجددا.

كان هنا منذ البداية

ثم نزعت خرص الأنف ذاك وألقت به في المرحاض والدموع تنهمر من عينيها فهو لم يكن مجرد خرص في أنف بالنسبة لها... بل كان يمثل هويتها، مواقفها، تمردها، تفردها وصديقها الوحيد... كان يمثل ميس إيفا غراي.
وبحركات بطيئة بدأت بخلع ملابسها، ألقت بالجوارب الممزقة في سلة المهملات.
نزعت التنورة والحزام الجلدي الذي تأملته طويلا لتتذكر محاولات انتحارها الفاشلة، قميصها...
لتصنع من نفسها شخصية جديدة الآنسة ايفا غراي العادية المحتشمة الطيبة الودودة التي لا تشكو أيا من الأمراض النفسية.
استدارت فتفطنت لامتلاء حوض الاستحمام فقالت في سخرية:
- **حان وقت التطهير... بإسم الله، الابن، والروح المقدسة...**

ثم حبست أنفاسها تحت المياه.

لقد بعثت إيفا من جديد...

2

دعونا نتجاهل كل التدابير والإجراءات المتعبة التي قامت بيها إيفا من أجل الذهاب لقصر اللورد المزعوم ذاك فسردها سيكون نمطيا مملا لأن كل الذين يستعدون

للسفر لمكان بعيد وبدئ حياة جديدة يقومون بنفس الطقوس تقريبا ولن يكون في سردها لحضراتكم ما يفيد، فقد كان مزاجها يجمع بين التأفف والحماس، الفرح والحزن، التشوق والتوتر، النشوة والسخط... لكن التضحية من أجل الارتقاء بالذات واجبة.

لن تقول أنها قد عرفت الجوع والعراء.

لن تقول أنها تعاني من اضطرابات ذهنية.

فالآن هي شخص جديد.

كل ما دار في ذهنها أثناء تلك الرحلة هو عديد التساؤلات عن قصر اللورد إدوارد ماكغريغور وما طبيعة العمل هناك.

هل يشبه القصر قصر باكينغهام ؟

هل سيكون هناك الكثير من الخدم؟

هل يعج القصر بالعناكب والأشباح؟

هل الناس هناك لطفاء؟

هذه الأسئلة ستتمكن إيفا من الاجابة عليها فور وصولها إلى هناك.

تطلب الوصول الى القصر مجهودا عسيرا، استقلت القطار ثم سيارة أجرة، ثم سارت على الأقدام لبضعة أميال شادة الرحال نحو المجهول.

رحلة مكلفة ماديا وجسديا، لكن حمدا للرب أنها لم تدفع عبء تلك المصاريف.

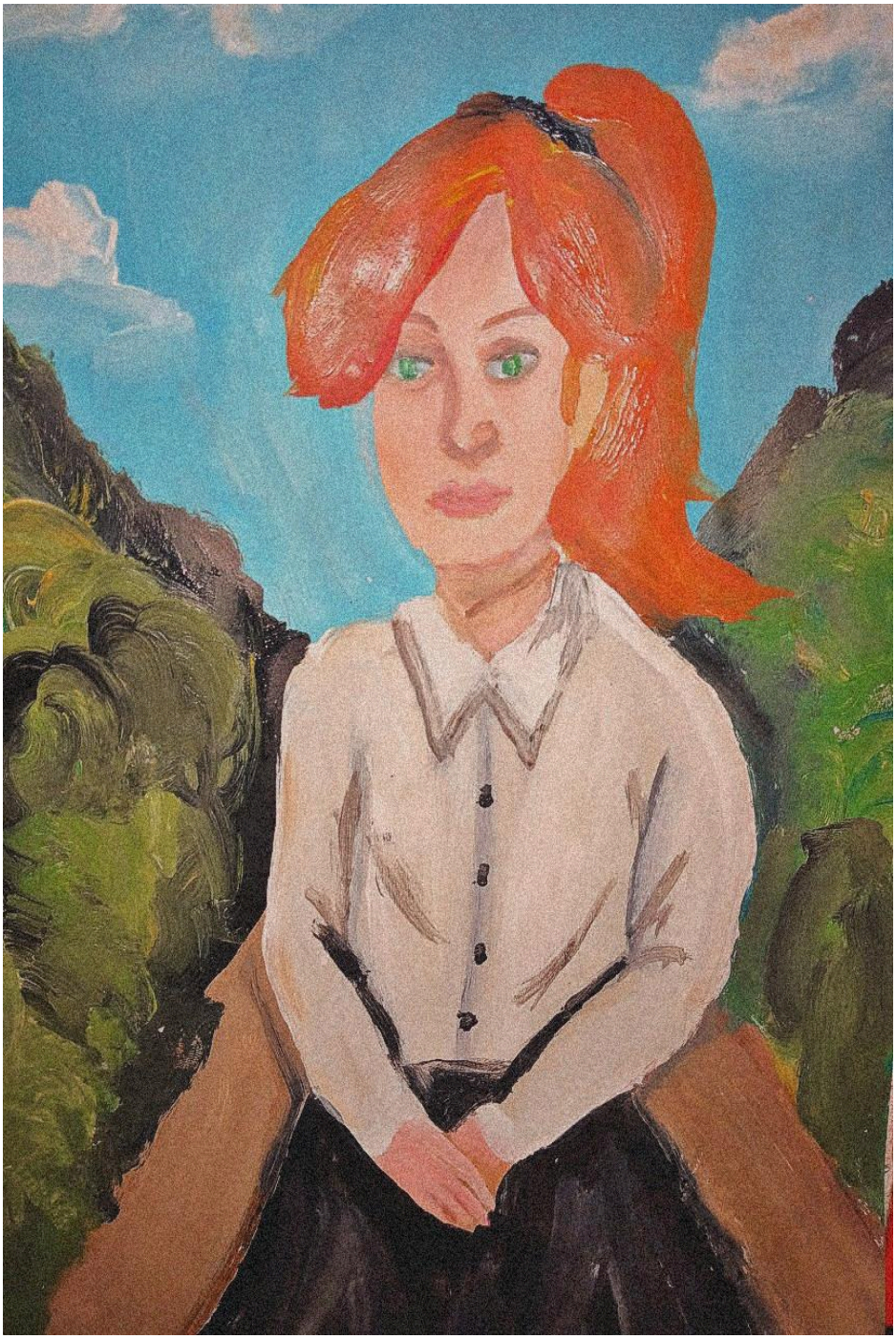

كان هنا منذ البداية

وقفت إيفا غراي بكل براءة تتأمل عظمة القصر الذي وجدت نفسه واقفة أمامه.

قرأت العنوان المنقوش على الحجر الرخامي مليا:

قصر اللورد فيليب غاردنر

Lord Philippe gardner's manor

اذن هذا هو القصر دون أي أدنى شك، طراز قديم قوطي فيكتوري، بوابة حديدية يبدو أنها طليت حديثا، مروج خضراء فسيحة وبحيرة قريبة من القصر...

فقالت في نفسها:" آه لهذا يدعو نفسه باللورد... ثراء فاحش، ياله من بخت".

تقدمت إيفا نحو البوابة وقالت بصوت أنثوي بريء متردد لعل شخصا يجيبها:

- مرحبا....

لكن ما من أحد يجيب.

كانت البوابة مفتوحة وقد جالت بذهنها أن تدخل.

ترددت في البداية، اخترق رأسها البوابة وقالت بصوت عالي لكن مازال مترددا:

- عفوا... هل من أحد هنا؟

لكن... مجددا ما من مجيب، فلم يكن لديها خيار غير الدخول...

بثقل كبير خطت خطواتها الأولى نحو هذا القصر الذي سحر معماره قلبها وعقلها كأنها طفل يمشي لأول مرة ويرى العالم اليوتوبي والطبيعة البريئة التي لم ترها ولا في أحلامها وكان لها الآن رؤية معالم القصر بوضوح:

قصر ذو طابقين تطوقه مساحة خضراء ممتدة تتوسطها شمالا بركة مياه تحول مائها الى أزرق مخضر وبجانبها وجدت كنيسة صغيرة.

يمينا كان هناك مأوى السيارات ومنزل صغير أشبه بالكوخ، على الأرجح هو بيت حارس القصر، رائحة أزهار الليلك يعبق عطرها في كل مكان، أشجار الدلب والسنديان والصفصاف الباكي على أطلال البحيرة...

أحقا هنا يعيش النبلاء؟

وقفت وملأت رأتيها بذلك الهواء النقي الذي لم تستنشقه منذ زمن بعيد،

وببهجة تغلفها براءة الفتاة الصغيرة ذو الرابعة عشر كانت تلتفت يمينا وشمالا في انبهار بسحر جمال الريف الايرلندي وهذا القصر الراقي ذو الطراز الذي لم تره سوى في الأفلام.

فجأة انتفض أحدهم صارخا في وجهها بلكنة ريفية غليظة بينما يمضغ الشطيرة التي في يده والبصاق يتناثر من فمه:

- **هاي، هاي، هاي... أنت... من أذن لك بالدخول.... منذ متى يقتحم الغرباء منازل الغير بكل وقاحة؟**

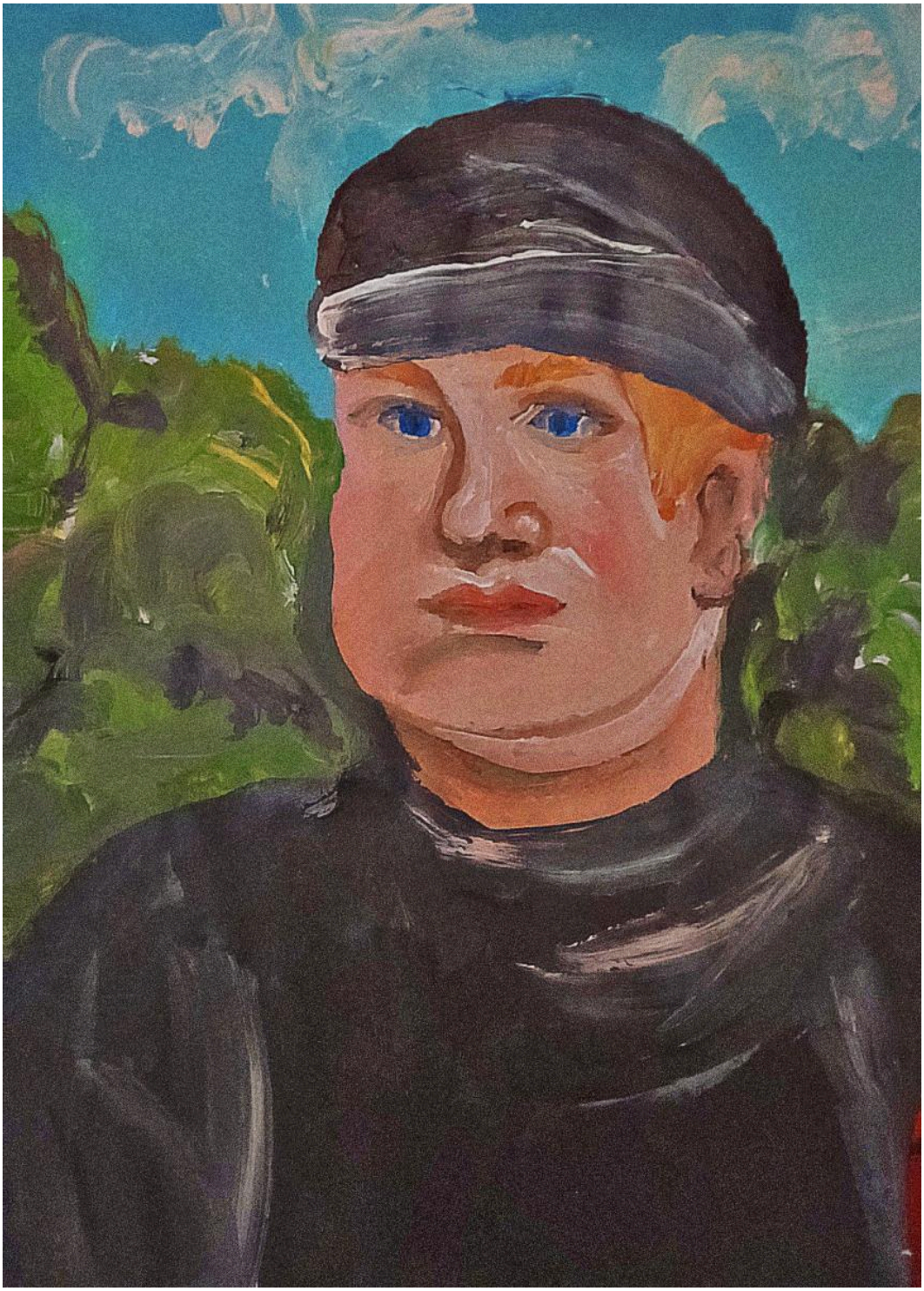

ولوهلة أوشك قلبها على التوقف فقد أطل عليها معتوه ما حتى يشتت لحظة التأمل تلك، أوشكت إيفا على الوقوع أرضا بسبب الذعر فهي لم تتوقع أن يقطع رجل سمين قبيح المنظر رث الملابس لحظة التأمل تلك.

كان هنا منذ البداية

- وقاحة؟ حقا... لقد كنت واقفة في الخارج للأبد، أ لم تسمعني أنادي ؟

هكذا سألته قصد تبرير موقفها، لكنه أجابها بنفس اللكنة بعد أن قضم لقمة أخرى من الشطيرة والبصاق الممزوج بفتات الخبز يتناثر من فمه:

- أجل... سمعت... لكن الشطيرة، إني على موعد مع شطيرة جبن ولحم مقدد وبصل أعدتها زينا خصيصا لي، لذلك...

فقاطعته إيفا في تقزز:

- بصل... أستطيع أن أحزر...

لكنه اغتنم الفرصة وواصل الأكل في نهم ثم قال بعد أن مسح فمه بكم قميصه:

- هناك...

وقد أشار بيده ثم واصل الحديث:

- أعيش هناك، في ذلك البيت الصغير على اليمين، أو بالأحرى ذلك الكوخ... رأيتك تدخلين وبدون إذن، ألا تعلمين قصر من هذا، إنه قصر اللورد فيليب غاردنر...

- آه مدهش إذن أنت الحارس الذي ترك الباب مفتوحا ليختلس لحظة خرقاء مع شطيرة... النهم، أحد الخطايا السبع المميتة.

فرد في تأفف:

- ليس من شأنك، أنا أعرف عملي...فلا يزورنا أحد هنا، لا أحد...

ثم أضاف سائلا في تعجب:

- ما الذي جاء بك إلى هنا، تبدين غريبة عن هذه المنطقة؟

فأجابت إيفا في تررد يغلفه التلعثم:

- جئت هنا من أجل مقابلة الكونت ايدوارد...

لم تنهي جملتها تلك إلا وقاطعها ساخرا:

- كونت... لا تكوني بلهاء، أي كونت... إنه اللورد إدوارد... اللورد.

فأجابت في تأفف واستعلاء يعكس عدم اهتمامها بذاك اللقب الذي كانت تتعمد تناسيه:

- كونت، لورد، بارون، دوق، ملك، امبراطور... أيا كان جئت لمقابلته بخصوص عرض الشغل الذي وضعه في صحيفة ذي آيريش تايمز، وأنا

أشعر بالتعب والإعياء لقد كان يوما طويلا والظلام سيسقط بعد ساعة أو أكثر على أقصى تقدير وتتحول السماء لقرمزية ثم زرقاء داكنة ويحل الليل.
لكن الحارس لم ينبس ببنت شفة وظل يرمقها كالاهبل الذي لم يفهم أي كلمة مما قالته، فهو يعلم أن اللورد ادوارد لا يتعب نفسه بقراءة الجرائد فما بالك بنشر إعلان، تأملها مليا دون قول أي كلمة، لكن مظهرها لا يدل على أنها معتوهة أو متسولة أو مجنونة جاءت من مكان ما لتستجدي عطف اللورد الذي لن يكون عطوفا، فقال لكن بلطف هذه المرة:

- **آسف يا آنسة، أظن أنك في العنوان الخطأ لأن اللورد لم ينشر أي إعلان...ولم يوظف أي شخص في المنزل منذ سنتين... أنا آرثر الحارس والمشرف على كل شيء هنا وأستطيع أن أؤكد لك ذلك، ربما من نشر الاعلان مالك قصر آخر... فمالكوا القصور في إيرلندا كثيرون... طابت ليلتك.**

ثم استدار عائدا للكوخ.
فقالت إيفا بصوت مناد قصد لفت انتباهه:

- **أرجوك، فلتعلم اللورد بمجيئي صدقني، فما قرأته في الإعلان صحيح.**

فاستدار وقال بلكنته الريفية الغليظة ثانية وقد ذهب كل ذاك اللطف الذي استعاره لآونة:

- **إذا أريني الاعلان وسأبلغ اللورد في الحال...**
- **ليس معي...**
- **يا آنسة، يا أنت، فأنا بعد الشطيرة لا أرغب في أي شيء غير الإستلقاء والهضم... حتى يحين موعد العشاء لا تضيعي لي وقتي أكثر من هذا.**

فتوسلت محاولة اقناعه:

- **أرجوك... فقط بلغه، يجب أن أراه، من أجل عرض الشغل ذاك، بالاضافة، فالليل سيخيم عن قريب... ولن أتمكن للعودة إلى دبلن الآن.**

وقد تبسمت له وقامت بحركاتها اللعوب تذبيلة العيون التي طالما استجدت بها عطف الدكتور كراولي، فقال لها آرثر وكله ضجر:

- آها من دبلن إذا، حسنا لأنك جئت من مكان بعيد سأبلغه... لكنه لن يوظفك، فهو لا يوظف أي أحد، ولا يستقبل أي ضيوف خاصة وإن كانوا غرباء، ولن يهتم إن قضيت ليلتك مع الذئاب والخنازير البرية المحيطة بالقصر... تضيعين وقتك... ووقتي.

ثم استدار ليتوارى عن الأنظار...

ظنت إيفا أنها ستنتظر لوقت طويل لكن انتظارها لم يدم سوى بضع دقائق.

دقائق مرت كأنها ربع قرن حتى عاد ذاك الأحمق السمين وقد إحمر وجهه بعد أن هطل عليه اللورد بضرب من السباب والتأنيب، فقال للآنسة الجميلة التي أعياها السفر والانتظار بتهذيب رقيق مستعار كالعادة:

- يا آنسة، آسف، حقا آسف... لم أعلم شيئا عن الإعلان... لقد أعلمته بقدومك ستجدينه في انتظارك يمكنك الدخول، ها هو القصر أمامك ثم استدار متوجها نحو كوخه.

- ألن توصلني إلى اللورد؟

لكنه تجاهلها.

خطت بكل ثقة وفرح، إلى أن وقفت أمام باب القصر الذي وجدته مفتوحا و اللورد ادوارد واقفا بدوره مستديرا نحو الحائط ينتظر قدومها.

طرقت طرقا خفيفا على الباب.

فقال بصوت إنڤليزي ساحر مهذب كالذي نسمعه في الأفلام.

- تفضلي يا آنسة.

ثم استدار نحوها وحياها بابتسامة عريضة، رجل وسيم أشقر يفرق شعره في الوسط، أربعيني بني العينين وشارب أشقر أنيق يدخن غليونا خشبيا فخما، يرتدي رداء نوم أحمر مخملي طويلا فهذا ما يرتديه معظم الأثرياء في منازلهم.

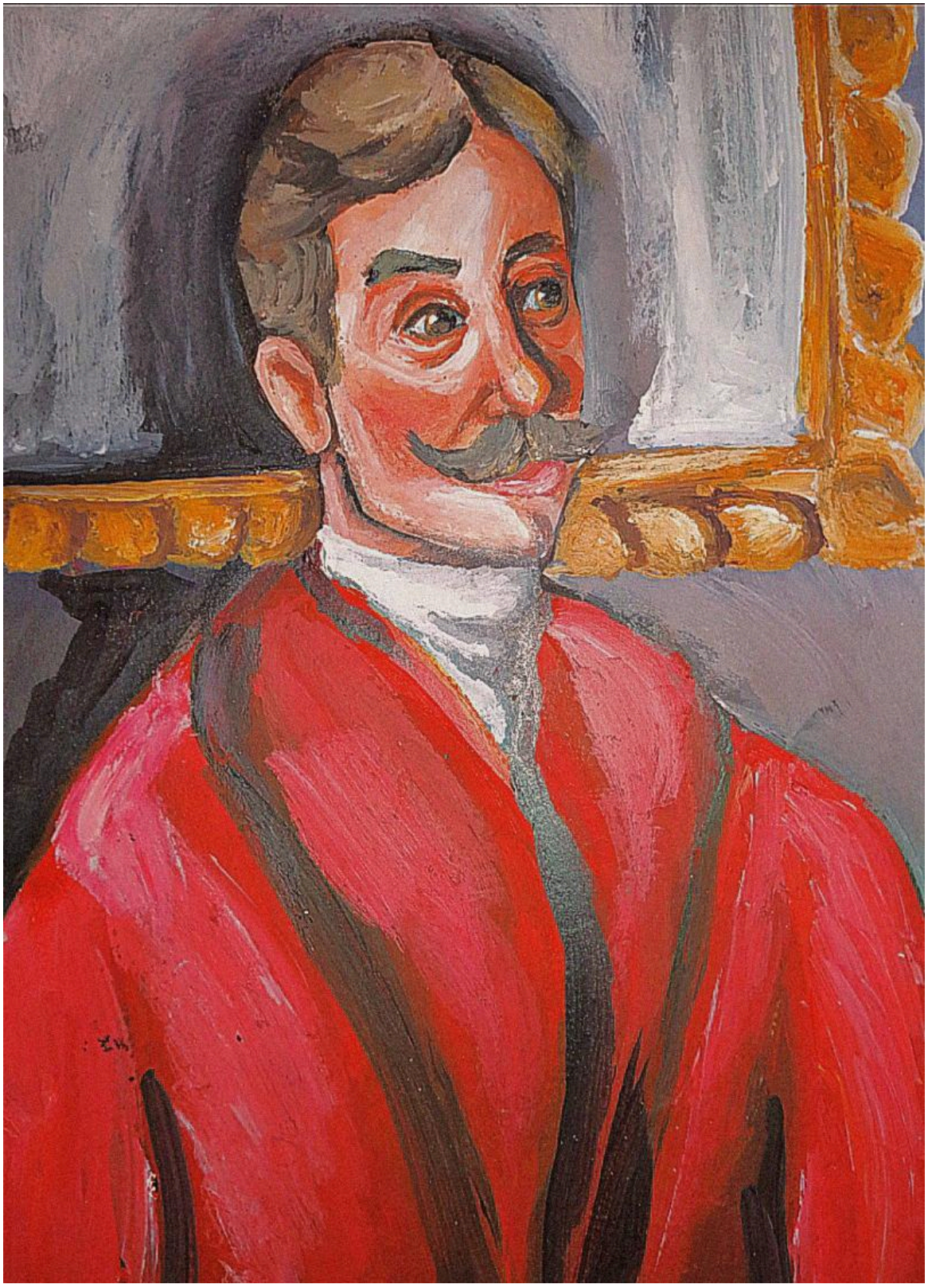

كان هنا منذ البداية

فأضاف دون أن يفسح لها المجال لقول كلمة واحدة، فقد عقد لسانها من شدة الدهشة والانبهار بكل تلك الفخامة والأثاث والذوق الرفيع وحتى... وسامة اللورد نفسه:

- **كم أنا سعيد لأنك جئت من أجل عرض الشغل الذي كنت قد نشرته منذ مدة ونسيت أمره كنت فاقدا للأمل فلا أحد يرغب أن ينعزل عن حياة المدينة ويقضي كامل يومه حبيس قصر قوطي شبيه بالذي في الخرافات الشعبية.**

تأملت الغرفة مليا دون أي خجل أو حياء أدارت عينيها في كل الزوايا، والانبهار لم يفارق محياها بعد، كأنها لم تسمع ما قاله لها اللورد للتو.

فأضاف بلباقة عالية مبالغ فيها كالتي عهدناها عند النبلاء:

- **أستسمحك عذرا انستي فآرثر أخرق أحيانا، هل لي بمعرفة اسمك؟**

فقالت وقد اختلطت مشاعرها بين دهشة وفرح وانبهار:

- **ميس إيفا غراي، قدمت من دبلن وقد كانت سفرة طويلة...**

فقاطعها ضاحكا:

- **لا داعي أن تخبريني، فهذه الضريبة التي ندفعها نحن النبلاء سكان القصور وأعالي الجبال... مشقة السفر لدي شقة في دبلن أقضي فيها أغلب أيام الأسبوع، هيا تفضلي بالجلوس لما كل هذا الخجل الزائد.**
- **في الواقع أنا منبهرة بجمال هذا القصر، كأن لديه سحرا خاصا**

فسأل في تعجب:

- **رباه، كم أنا مسرور لأن القصر قد راقك، أتمنى أن تستمتعي بشغلك هنا.**
- **أول مرة أدخل قصرا كهذا، شبيها بالمتاحف التي بالطبع أسمع عنها وأراها في التلفاز لكني لم أزرها، وها قد سمحت لي الفرصة أن أسافر عبر الزمن وأمتع ناظري بفخامة كهذه... ظننت أني سأجد طوابير من الفتيات يحتشدن أمام البوابة يتهافتن من أجل نيل الوظيفة... لكن شكي كان مخطئا تماما، وهذا غريب...**
- **دعك من كل هذا آنسة غراي... أخبرتك الناس في عصر كهذا يسأمون الأماكن القديمة، بل ربما يفضلون مشاهدتها في الأفلام التاريخية وأفلام الرعب على أن يعملوا داخلها ليلا نهارا... فقد تغيرت الحياة إننا في عصر**

السرعة، عصر التكنولوجيا وكل تلك التفاهات المزعومة... أما أنا فمصر على التشبث باصالتي وجذوري الملكية.

لكن إيفا لم تكن تصغي ولا لكلمة واحدة مما كان يقوله، بل كانت تتأمل غرفة الجلوس وذوق اللورد الرفيع الدال على القوة والثراء، فسألها ادوارد بصوت خافت حتى لا يقطع ذهولها بما تشاهده عيناها لأول مرة:

- **لا بأس ببعض من الشاي؟**

فردت في حالة شرود تام:

- **هذا لطف كبير من حضرتك لورد ادوارد.**

فنادى ادوارد بصوت عالي على مدبرة القصر التي تمكث في المطبخ حتى تتمكن من سماعه:

كان هنا منذ البداية

- **كوبان من الشاي يا زينة، أسرعي فلدينا ضيوف...**

ثم ابتسم لإيفا وقال بذاك اللطف الذي يصر أن يستعمله البرجوازيون مع النساء:

- **سنتحدث عن طبيعة العمل فور قدوم الشاي.**
- **أبهذه البساطة وطفتني؟**

سألته إيفا في دهشة فأجابها:

- **أنت أول من أتى من أجل الوظيفة ولا أظن أن عناك من سيأتي غيرك، وأنا حقا أقدر مجهودك، إن أعجبتك طبيعة العمل فهنيئا لك، بالإضافة إلى أننا لم نتناقش بعد...**

فردت بينما كانت ترمق اللوحات الزيتية المعلقة على الجدار:

- **حسنا... مهما كانت الشروط وطبيعة العمل فأنا موافقة.**

ابتسم ابتسامة خفيفة وسأل في تعجب:

- **مهتمة بالفن أيضا؟ أنت ترمقين اللوحات منذ دخولك.**

فسألته لتجيبه عن سؤاله ضمنيا وتعلمه أنها ليست من رواد الفن أو من أولئك الذين يميزون اللوحات الاصلية عن غيرها:

- **هل تلك الموناليزا أصلية؟**

فقال ضاحكا بخفة دم:

- **يا آنسة طبعا لا، لو كانت أصلية لشنت فرنسا علي حربا منذ زمن بعيد، وكنت قد قبعت في الجحيم منذ الأزل.**

فابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم سألت مجددا:

- **ماذا عن البقية؟**

فأجابها بنفس النبرة المرحة كأن فضولها كان فيه شيئا من الإمتاع والتباهي بالنسبة له:

- **ذاك جورج الخامس، أما الآخر، فهو نيكولاس قيصر روسيا، وكلا اللوحتان غير أصليتان تماما كالموناليزا.**
- **حقا كم هذا راق وجميل...**

ثم استدارت إلى الجانب الآخر من الغرفة وسألت بطريقة مستهزئة:

- **وماذا عن ذاك؟ لا تقل لي أنه ملك إمبراطورية النمسا المجر أو ما شابه؟**

فقال ضاحكا كأن تلك العبارة قد راقت له:

- **يا فتاة... أحب روح دعابتك، وهذا كفيل بتوظيفك، عالأقل العزيزة أناستازيا مدللة قلبي لن تشعر بالملل، ذاك... آه، إنه المرحوم.**

كان هنا منذ البداية

كان هنا منذ البداية

- أي مرحوم؟

فقال ضاحكا:

- **نعم أنا لا أزال أعلق صورة زوج زوجتي السابق بالقصر... أنه ريتشارد أوكونور والد ألكسندر، وألكسندر يصر على أن تبقى صورة والده معلقة في مكانها مع بقية العظماء... لا ألومه فهو والده في النهاية، لترقد روحه الطاهرة بسلام كان رجلا عزيزا على قلبي...**

ثم تنهد، بعدها زأر كالأسد فجأة:

- **زينا... الشاي... لقد جف حلقي...**

جاءت زينا...

اسمها يبدو غريبا فتاة ذات بشرة حنطية لامعة ذو شعر أجعد يأبى أن ينسدل على كتفيها، ترتدي زي الخدم الأبيض والأسود المكون من بذلة ومئزر وتنورة كأنها كبيرة خدم عند أحد البارونات غير أنها تبدو شابة يافعة ربما لم تتجاوز العشرين بعد يغمرها الخجل، لم ترمق لإيفا ولو بنظرة واحدة ولم ترفع نظرها نحو اللورد المزعوم، اختلست النظر إليه بينما وضعت طقم الشاي على الطاولة وقالت بصوت خافت وبإنجليزية لا يصح القول عنها لغة إنجليزية، لذا تستطيع التخمين بسهولة أنها ليست إنجليزية ولم تتعلم هذه اللغة سوى منذ مدة قصيرة قصد خدمة اللورد لا أكثر:

- **تفضلا.**

فنظر إليها اللورد صارخا:

- **خرقاء... أين قطع البسكوت... كم مرة قلت لك يا زينا نحن نقدم الشاي مع البسكوت... الشاي اللعين مع البسكوت.**

فحنت رأيها وقالت:

- **آسفة لورد ادوارد.**
- **رعاع... لا أريد البسكوت اللعين انصرفي.**

وبنظرة من اللورد أشار على زينا للانصراف ليوفر عليها كل تلك الاتيكيت المبالغ فيها في إعداد الطاولة وبسط الأطباق وسكب الشاي والعودة لاحضار البسكوت من المطبخ، فاستدارت منصرفة دون أن ترفع رأسها، أما عزيزتنا إيفا فقد كانت ترمق

طقم الشاي العتيق الذي سحرها كأي قطعة أثاث في المنزل بورسلان أبيض باروكي منقوش بالأزرق الملكي ، كأنها في إحدى حفلات الشاي الراقية التي كان يقيمها الإنجليز في القرون الماضية، سكب لها اللورد بنفسه بعضا من الشاي، أخرج علبة سجائر تبغ حديدية عليها نقش ملكي ما، أما السجائر التي فيها كانت تبدو مختلفة عن للسجائر التي عهدتها إيفا، وقد كانت إيفا تنظر في دهشة كالطفل البريء إلى أن قال لها اللورد:

- **شاي ليبتون الإنجليزي الأصلي لا يحلو إلا مع لفافة تبغ أصلية دائما ما أصر على حشوها بنفسي، جدي الأكبر كان يعرف توماس ليبتون شخصيا وقد عمل معه في غلاسغو وقد كان يروي لجدي قصة نجاحه الساحق بمجرد بيعه للشاي... الحياة هي مجرد ضربة حظ وهذا ما أؤمن به أنا اللورد إدوارد ماغريغور شخصيا، رغم الثراء الفاحش الذي ترعرعت فيه، تبقى الحياة فرصا يا آنسة، ثم أضاف مبتسما كالعادة:**
- **هيا، اشعري كأنك لمنزلك.**

نظرت له إيفا باستحباب وقالت:

- **هذا حقا سخاء ولطف كبير منك.**

ناولها لفافة التبغ وأشعلها إياها، ثم أخذ هو بدوره لفافة لنفسه، أراح ظهره على الأريكة التي تبدو من طراز أحد اللويسات فخمنت إيفا أنها تعود للويس الرابع عشر أو الخامس عشر أو حتى العشرون من يدري... ذاك عاشق الذهب الشمس والأشياء اللامعة فهي لا تذكر دروس التاريخ التي كانت تحدثها عنها والدتها، ثم وضع اللورد إدوارد ساقا على الأخرى وقال في أنا متعالية:

- **آه... الأحمق الذي قال أن التدخين مضر بالصحة لا يعرف شيئا عن لذة السجائر، والتبغ، فرجال الأعمال الذين تكثر مشاكلهم وتتهاطل عليهم كالأمطار يلجؤون إلى الهروب منها بالتدخين... لن تجدي رجلا في قيمتي لا يدخن، غليونا، أو سيجارة، أو سيجارا كوبيا غليضا لفته أجمل الحسناوات... آه، حتى النرجيلة لقد جربتها قبل سنتين عندما سافرت لمصر.**

فقاطعته إيفا لتظهر تحمسها لتلك المحادثة المملة:

- **عظيم...**

بالطبع دون أن تقول أنها لا تعرف النرجيلة.

- **أجل عظيم، فأنا دائم السفر بحكم طبيعة الأعمال التي أشرف عنها، وأغلب سفراتي لم تتجاوز حدود أوروبا، لذا سفرتي لمصر كانت مميزة، رغم أن تلك التجربة لم تكن الأفضل على الإطلاق...**
- **جيد جدا...**

لكنه واصل الثرثرة بتباهي كأنه الكسندر المقدوني أو بونابارت نفسه:

- **زرت الأهرامات... إخخخخخ لكنها لم تعجبني، كتل من المثلثات الحجرية المرمية في قلب صحراء رملية حارقة، صدقيني، لا جمال في ذلك، لا شيء يعادل جمال القصور القوطية، وكل ما يقال عن الأهرامات مبالغ فيه، صحراء مقفرة ورمال هنا وهناك كدت أصاب ببقلة شمسية، لكن الشيء الجميل في التجربة كلها كان عندما جربت النرجيلة لأول مرة، وقد كان احساسا فريدا من نوعه، نشوة من نوع آخر، كنشوة ممارسة الجنس لأول مرة -عفوا لا أقصد الإساءة- لذا من ذلك البلد الأفريقي العجيب ذو الحرارة المرتفعة، قررت أن أحضر منه أقرب التذكارات لقلبي فأحضرت نرجيلة...**

صمت قليلا وأضاف:

- **نرجيلة مصرية، ومعها زينا حتى تعدها لي...**

ثم تعالت قهقهته.

فسألت إيفا في تعجب:

- **زينا؟ تقصد مدبرة شؤون القصر.**

فرد على سؤالها الغبي ذاك بعد أن أخذ نفسا من سيجارته، وقبل أن يهم بشرب الشاي:

- **أجل... زينا مصرية... عربية، زنجية، افريقية، ماذا تتوقعين إذن ، لا أظن أن مظهرها يوحي بأنها انقليزية أو ألمانية.**

وتعالت ضحكات ساخرة اشمأزت منها إيفا، التي لم تفهم سبب الفضاضة المبالغ فيه عند هذا اللورد، الذي لا يزال يصر على أن يسمي نفسه لوردا في سنة

1978، فتارة يبدو لها شخصا نبيلا طيبا، وتارة أخرى تسمعه يشتم الخادمة بأبع النعوت، كم هو عديم الأخلاق...
لكن الخبيث رأى ملامح التوتر على وجع ايفا الذي بدأ بالاحمرار وتملكها ضرب من الاشمئزاز الذي أرادت أن تموه عليه برشفة من الشاي، آه حتى وإن كان قدحها قد فرغ من الشاي فقد عمدت التمويه قصد إخفاء عدم ارتياحها لتلك الكلمات:

- **عزيزتي (كما قالها *sweetheart* بلكنته الايرلندية الطليقة) باعني اياها أهلها وهي في السادسة عشر، وقد فرح أبوها باجراء تلك الصفقة فلديه ستة أطفال غيرها، أليس هذا ما يفعله النبلاء ميس إيف، انظري إليها الآن هي في الثامنة عشر، تجيد الانجليزية، بارعة في الطهي والايتيكيت، فما الذي تريده فتاة مثل زينا من العالم غير هذا؟**
- **أ تقصد نبلاء القرون الوسطى؟**

امتقع لونه فور سماعه تلك العبارة وحاول ألا يظهر عدم ارتياحه لعبارة القرون الوسطى، التي مثلت له التخلف والجهل لا النبل والرفاه:

- **آه يا عزيزتي، أنت لا تعرفين شيئا عن حياة النبلاء هذه... فقد نشأنا على نوع من الاتيكيت التي نعتبرها، بل نصر وسنبقى نصر على اعتبارها بمثابة طقوس، يجب أن يكون لكل نبيل -مثلي- (مشيرا باصبعه لنفسه) خادمة زنجية جميلة وصغيرة حتى يكتمل ذاك المشهد الأرستقراطي الراقي، أحظرت زينا وقد أشرفت أمهر طباخات إيرلندا على تعليمها كل شي بدا من الطبخ وآداب المائدة واللغة الانجليزية طبعا لأنها كانت بالكاد تقول ربع جملة دون ان ترتكب فيها ثلاثة أخطاء نحوية على الأقل، فاللغة هي اهم شي للتواصل، وكما ترين، قد جعلت من تلك الفتاة الافريقية الفقيرة انسانة جديدة، حتى وإن كانت خادمة، على الأقل أفضل من أن تكون قروية عربية تبيع خبز التورتيلا (الذي كان يقصد به بالطبع خبز المشلتت المصري) على قارعة الطريق بثياب ممزقة قذرة... رباه العرب، لن يتقدمو ...**

فانتفضت إيفا قائلة بنبرتها الثائرة التي طالما خاطبت بيها الدكتور كراولي وأصدقائها البانكرز:

- **لكن... هذه تراهات الماضي... ألا ترى كيف صار العالم الآن... الهيبيز *hippies* يناشدون بالسلم والعظيم جيمي هيندريكس وفرقة البيتلز تسعى لتوحيد العالم بموسيقاهم المسالمة اللطيفة التي أثارت جدلا في كل العالم... حتى عند العرب الذين تمقتهم حتما...**

تسمر في مكانه فجأة، وقد احتدت ملامحه، وقال بنبرة صارمة:

- **من... هؤلاء... البيتلز، وأغنيتهم هلتر سكلتر *helter skelter* التي قادت ذاك الرجل المخبول وأتباعه الحمقى الى الجنون والقتل... موسيقى الشيطان، صحيح أنه لا يوجد تلفاز هنا، لكن في شفتي التي قي دبلن لدي واحد، ولدي هاتف هناك... ببساطة لدي كل شيء، أيضا أنا أقرأ الصحف يوميا وأعلم بما يحدث حتى وإن كان في الولايات المتحدة الأمريكية ومضى عليه ما يقارب العشر سنوات... عن أي سلم تتحدثين، كم أشعر بالقرف، ألكسندر أذاقني الويل جراء هذه الموسيقى...**

قال ذلك وقد قام بكل الحركات الدرامية التي توحي بأن ما قالته إيفا غراي لا يغتفر ثم واصل القول بعد أن تنهد:

- **لا أريد أن أصدق، لماذا أنتم في كل مكان، لماذا تلوثون العالم بموسيقى كهذه، لا أريد... ولن أسمح إن كنت تريدين أن يتم توظيفك في هذا القصر أن أسمع أي نغم لهؤلاء، رذالة العصر... يكفي فقد عانيت منهم الكثير.**

ثم وثب من مكانه كحيوان مفترس مكشر عن أنيابه متجها نحو إيفا قائلا في غضب درامي مبالغ فيه:

- **لهذا القصر حرمة، حرمة تاريخية لعائلة ايرلندية أصيلة مالكة، هذه هي القاعدة الوحيدة، لتنسي أنك في سنة *1978* وعودي مئة سنة إلى الوراء، الطراز الرفيع الموسيقى الكلاسيكية، الكورتوازية، معنى أن تكون نبيلا، مختارا عكس الآخرين... مميزا عن الآخرين أن تجبر كل العالم على مناداتك باللورد، اللورد إدوارد ماكغريغور حتى وإن كنت على عتبة سنة *1980*، أن تجبر شركة الغوتشي نفسها على أن تحيك لك أفخم البدلات القوطية والفيكتورية والايدوارية فقط لأنك ستسد جوع ماليكيها ببعض الجنيهات... عفوا أقصد آلاف الجنيهات... لا بل ملايين الجنيهات.**

دفنت إيفا جسدها الصغير في تلك الأريكة ثم قالت في ارتجاف:

- **آسفة جلالة اللورد...**

فتحولت ملامحه فجأة، لتشع عينيه فرحا وتنبسط التكشيرة التي كانت على وجهه:

- **جلالة اللورد... عظيم، لم يناديني أحد بهذا من قبل...**

فابتسمت ابتسامة خبيثة واقتربت منه هامسة بصوت انثوي مغري:

- **جلالة اللورد، سماحة اللورد، فخامة اللورد، كلها تليق بنبيل مثلك.**

وعلى وقع هذه الكلمات أنقذت نفسها من الطرد من وظيفة لم تبدأها بعد.

ابتعد عنها وقال بعد أن أشعل لفافة أخرى من التبغ:

- **هنيئا لك بالوظيفة، سأعرفك على الجميع غدا عند العشاء، فالليلة لينور متعبة، ولا أعلم شيئا عن ألكسندر إن كان سيستيقظ أو سيرقد في غرفته لأيام فهو غريب الأطوار ينام سبات الدببة ثم يصحو كالاموات الأحياء، سأطلب من زينا أن تعد لك الغرفة المجاورة لها وبإمكانك تناول عشائك في المطبخ كما تفعل زينا، لكن غدا سنتناول العشاء سويا... سأعرفك على ابنتي الصغيرة أناستازيا في الصباح ، صدقيني ستحبينها فهي ملاك طاهر، لينور زوجتي الحبيبة التي تترفع عن مقابلة الضيوف والعاملين هنا في أغلب الأحيان، فهي تعاني حالة متقدمة من فقر الدم، لذا لن تريها كثيرا فهي غالبا لا تخرج من الغرفة، وتصر على تناول عشائها في برجها العاجي فوق أين تقع غرفة نومنا، وابنها ألكسندر ذاك مفتعل المشاكل أرجو أن لا تزعجك تصرفاته الخرقاء، فهو يمقتني لأني فقط زوج أمه، ولا يريد أن يشاركني طاولة الطعام والجلوس معي وجها لوجه... ذاك الشجار الكلاسيكي وزوج الأم البريء المكروه لأن الابن يظن أن الزوج قد سرق أمه منه.**

بعد تلك المحادثة التي أربكت إيفا لكن أثارت إعجابها وغموضها خطرت بذهنها عديد الأسئلة و قدحت زناد فكرها ولسان حالها يقول هل من الأفضل ان تبقى، أو ترحل، لكن ترحل الى اين؟
ذاك اللورد يبدو غريبا نوعا، تارة يتصرف كالنبلاء ومرة تراه يلقي بشتائم لا يقولها حتى العامة... ان لم يكن يعاني من انفصام في الشخصية فعلى الأرجح هو يخفي شيئا ما.

أذن لها اللورد بأن تتناول عشاءها في المطبخ، وكما تتوقعون فإن المطبخ أيضا ذو طراز قديم، ذو جدران حجرية علقت عليها أواني الطهي النحاسية التي حافظت على لمعانها، موقد قديم وفرن يشتغل بالحطب واضاءة واهنة بالكاد تصلح لشيء، في ركن جانب الطاولة وجد باب قبو مخصص لتخزين الخمر والجبن واللحم المقدد والطماطم المجففة ومعجون الفاكهة والغلال المجففة وباقات الثوم المجفف.
جلست إيفا إلى الطاولة وحدها دون زينا، التي نادا اللورد ادوارد حتى تخضر له طاولة العشاء، فذهبت لتسترق النظر، وقفت ترمق في تعجب وقد نسيت أمر عشائها الذي كان قد برد .
بدأت زينا بإعداد طاولة العشاء للورد الذي سيجلس فيها وحيدا، وقد تعودت زينا المسكينة على هذا العمل الممل والشاق في نفس الوقت، فإنها لو أبعدت السكين عن مكانه سنتيميترا واحد فمن المحتمل أن يذبحها اللورد به من الوريد إلى الوريد، وهاقد بدأت الطقوس الأشبه بالشعائر الدينية التي تقوم بها زينا في كل وجبة، في البداية تفرش مفرشا أنيقا حريريا في لون الأزرق الملكي على الطاولة

بشكل منسق وأنيق، تحظر شمعدانا فضيا يحمل ثلاث شمعات وتقوم باشعالهم باستخدام عود ثقاب، وتزين الطاولة بورود حمراء قاتمة كان قد قطفها لها آرثر من حديقة القصر ومن ثم يتوسط طبق العشاء الأساسي الطاولة وبجانبه السلطة والحساء على الجانب الآخر.

ترتب زينا الأطباق التي يختلف شكلها وحجمها حسب الطعام الصحن الذي ستوضع فيه السلطة كمقبلات باردة، ثم صحن الحساء الذي يصر اللورد على طهييه يوميا فالايتيكيت تقول أنه يجب أن يكون هناك مقبلات باردة ثم مقبلات ساخنة ليليهما الطبق الرئيسي ثم طبق التحلية الذي تحضره زينا بعد أن يفرغ اللورد من أكل طعامه.

الآن تضع المنديل على يسار الأطباق ثم تضع عليه الشوكة.

على يمين الأطباق تضع السكين بشكل مقارب إلى الطبق، بحيث يكون الجانب الحاد من السكين مقابلا إلى جانب الأطباق، وبجانب السكين توضع الملعقة.

وقد كانت إيفا تتأمل تلك الجدية في انبهار كأن مساعد الجراح يجهز أدوات الجراحة بكل دقة وحذر.

ثم تأخذ زينا كوب الماء وكوب للويسكي لتضعهما أمام الطبق من الناحية الأمامية ما بين الأطباق وأدوات المائدة، أخيرا تحضر قنينة ويسكي جيمسون وإبريق الماء... وبحركة سريعة تثني يدها وتطوي عليها منديلا أبيضا ثم تأخذ نفسا طويلا وتستعد لأخذ مكان على خشبة المسرح تلك أين ستقف جامدة عند رأس اللورد لتتمكن من خدمته إن احتاجها أو أشار عليها باحضار بعض من الجبن.

يبدأ قبل كل شيء بتلاوة صلواته، يشبك يديه ويقول كالآتي:

- **باركنا، يا رب، وهباتك هذه، التي نحن على وشك الحصول عليها من فضله، من خلال المسيح ربنا. آمين.**

ثم يقذف زينا بأوامره المعتادة في سادية مقيتة:

- **ضعي لي بعضا من السلطة.**

فتفعل في صمت.

ثم يبدأ المضغ في تملق وتباطؤ متعمد.

وفور انتهائه من السلطة تأخذ الطبق للمطبخ وتعود مهرولة لتسكب له بعضا من الحساء...
وهكذا تتواصل الطقوس التي غالبا ما يثريها ب"اسكبي بعضا من الماء"
أو يأمر ببرود "هيا اسكبي لي الويسكي".
أو "أريد بعض الشيدر".
فتهرول المسكينة الى المطبخ حتى توجد له ما طلب.
يشرب من حساء الفطر دون أن يصدر صوتا أو يلطخ مفرش الطاولة بالبعض منه، يلتهم شريحة اللحم الدامية بكل تأن وأدب مستخدما الشوكة والسكين كأنه جراح يشق لمريض ببراعة عن طريق الأدوات التي رتبتها له زينا، ثم يمسح فمه بالمنديل الملفوف حول رقبته، ويشير عليها ملوحا بالناقوس الصغير الذي يضعه أمامه لتفهم أن وقت التحلية قد حان، فتجمع كل الأطباق الموجودة على الطاولة وتحظر طبقا فيه بعض من تحليه البودينغ بنكهة الكراميل وتضع أمام الطبق ملعقة وشوكة فيبدأ بقطع ذاك الهلام المتراخي ويلتهم القضمة الأولى في تلذذ ايروتيكي قصد اثارة غيضها...
وبعد دقائق تنتهي المسرحية التي لعبها اللورد إدوارد بامتياز، يمسح فمه بالمنديل ثم يفسح لها المجال لكي تنظف الطاولة وقد تأسفت إيفا على حال زينا الفتاة الصغيرة المسكينة التي تتحمل كل هذه المعاناة بمفردها... يوميا، مغتربة في بيئة ليست بيئتها، منفية في ايرلندا بين جدران قصر لن تخرج منه إلا جثة هامدة... غالبا ما يكون الفقر أفضل حالا من كل هذا العذاب والاغتراب، ثم تساءلت إيفا في قرارة نفسها عن المصير الذي ستؤول له بين جدران هذا القصر الغريب، هل سيعاملها اللورد بنفس الطريقة التي يعامل بها زينا وآرثر، ماذا عن سيدة المنزل الليدي لينور هل ستكون قاسية متسلطة كزوجها؟

بعد أن فرغت زينا من كل الأعمال المنزلية صار بامكانها تناول العشاء والخلود للنوم.
لكن قبل ذلك عليها أن تتم جدول المهام الذي لم يبقى فيه سوى جلي الأواني والصحون وأخذ العشاء للحارس آرثر، كان التعب باد على وجهها فهي الخادمة

الوحيدة في هذا الوقت، كيف لفتاة في الثامنة عر من عمرها أن تتحمل عبء قصر كامل على عاتقها دون أن تبدي أي ضرب من التذمر أو الاعياء بعد يوم شاق حافل بالاشغال، كانت إيفا تشاهدها وهي وتكتفي بملعقتين من الحساء دون أن تلمس شيئا من اللحم ففي ديانتها والتي هي الإسلام قد حرم عليهم أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، ثم قالت بلغتها التي بالطبع لم تفهمها إيفا التي لازالت جالسة في المطبخ تتأمل مأساة هذه البريئة المسكينة التي لا يقل حظها سوءا عن الأخيرة:

- **الحمد لله، بأحمدك وأشكرك يا ربنا عالنعمة دي.**

ففهمت إيفا على الأرجح أن زينا تتلو صلاة ما بعد الأكل تماما مثلما يفعل المسيحيون لكن بلغتها العربية ولكنتها المصرية التي تسمعها لأول مرة.

ثم نهضت لتغسل بقية الأواني والصحون...

وهنا تبتسم لها إيفا محاولة التودد إليها وتقول في استلطاف:

- **دعيني أساعدك.**

لكن الأخيرة تحني رأسها وتباشر في غسل الصحون.

فتحاول إيفا ثانية:

- **هل تفهمين الانجليزية جيدا؟ هل فهمت ما قلته؟... يمكننا أن نصبح صديقتان.**

فردت عليها زينا بانجليزية متعثرة لكن صحيحة نوعا ما يسهل فهمها:

- **أجل أفهم درست الانجليزية في الإعدادي قبل أن يرغمني الفقر على ترك الدراسة، شكرا لا أحتاج مساعدة، أشرف على كل شيء وحدي منذ سنتين... اعتدت الأمر، سيغضب اللورد إن ساعدتني، فالقوانين هنا قوانين، ولكل منا وظيفته.**

فعادت إيفا للجلوس وأشعلت سيجارة مارلبورو وقالت لها:

- **إذا أتدخنين؟**
- **لا...**

دق جرس الساعة الثامنة مساءا، كان اللورد ادوارد ماكغريغور جالسا في قاعة الجلوس نادى على ميس إيف حدثها عن ابنته أناستازيا قليلا:

- **عمرها يقارب السنتين، لكنها لا تتكلم، لا تبكي، فقد تغمغم بأصوات غير مفهومة وتحدق بالناس دون حراك.**
- **ما خطبها؟**
- **لقد مرت لينور بفترة عصيبة أثناء حملها، هذا كل ما في الأمر**

ثم وضع في الفونوغراف اسطوانة لسيباستيان باخ قصد تغيير الموضوع وأضاف:

- **على الأرجح سيكون ألكسندر أول من ستقابلين الليلة لأنه س...**

ثم سمعت إيفا طقطقة حذاء شخص ينزل من الدرج متجها نحو قاعة الجلوس، ليرمقهما بنظرات جمعت بين الاستهتار والتعجب في آن واحد كأنه أراد القول عجبا... زائر غريب في قصرنا... وأنثى، آه لو رأت لينور هذا حتما ستضرب إدوارد بذاك الفونوغراف اللعين لكنه فضل الصمت في النهاية دون أن يولي أي انتباه للحسناء الجديدة:

- **سحقا لك يا ادوارد الملعون ومن معك، الآن، صرت تخون لينور أمام عينيها...**

تسمرت إيفا في مكانها بسبب الذي سمعته لكنها لم تتمكن من التبرير.

وجد زينا في انتظاره كالعادة لتحييه بابتسامة وضحكات توحي على أن ألكسندر لم يفهم شيئا مما يحدث فرمى لها بقبلة في الهواء وقال في مرح:

- **مواااه، ملكتي الفرعونية.**

فابتسمت زينا.

ثم استدار نحو الباب ليخرج دون ترك أي فرصة لخصمه اللدود الذي هو زوج أمه بأن يرد له تلك الشتيمة... وخرج من المنزل في لمح البصر.

أما إدوارد فقد مات غيظا، بسبب كل تلك الوقاحة التي كان قد شهدها، ذاك الأخرق قد رمى قبلة لخادمة ويلقبها بالملكة...

غرس ادوارد رأسه في الأريكة وقال محاولا أن يبرر موقفه لايفا:

- **أخبرتك أنه مفتعل مشاكل....**

لكن إيفا لم تقل شيئا بل ظلت تفكر في ألكسندر
من هو الكسندر أوكونور؟
لكن الذكرى ضبابية.
كأنه من تلك الوجوه التي كانت تراها فجأة ثم تختفي فجأة بين أصوات الخفافيش الليلية وأضواء النيون المتوهجة، بين رائحة العرق واللحم البشري المتلاصق الذي يتراقص بثمالة على ألحان صاخبة .
بين كل تلك الأقراص المخدرة وحبوب الهلوسة والجعة الرخيصة التي تعبق منها رائحة الشعير المتخمر العطن.
كان يظهر لها فجأة بين أضواء النيون التي تومض دون انقطاع...
ثم يختفي كأنه لم يكن.
ثرثر ادوارد طوال السهرة، تحدث عن المال والمال والمال.
تحدث عن عشقه للثروة.
تحدث عن مشاريعه في المدينة.
تحدث عن نفسه وعن عظمته حتى غلبها النعاس.
وهكذا انتهت المسامرة التي لم تدم لوقت طويل، واقترح ادوارد على ايفا أن يريها معالم القصر قبل أن يريها غرفتها
الجولة في القصر كانت رتيبة نوعا ما، كأنها إحدى الجولات التي تقوم بها معلمة الأحياء عندما تأخذ كامل القسم لإحدى المتاحف وهنا كان اللورد ادوارد دليلها السياحي في هذا القصر الفخم، كانت تسمعه يثرثر ويسرد تاريخ احدى اللوحات بدأ من تاريخ اللورد فيليب غاردنر الذي كان رجلا متدينا طيبا لكن حازما:

- **هذه غرفة ألكسندر، هذه غرفة الضيوف الأولى وقد صارت غرفتك، وغرفة زينا في آخر البهو ولتحمد الرب أني لم أجعلها تنم في القبو مع الخمر والجبنة المتعفنة وكل الفئران التي يشرف ألكسندر على القضاء عليها بنفسه.**

فاشمئزت إيفا.
ثم واصل صعود الدرج وهو يقول:

- **في الطابق الآخر لدينا غرفة نومي أنا والليدي ولينور، هذه غرفة أناستازيا، وهذا مكتبي الذي كان في الواقع مكتب اللورد فيليب... هذه غرفة الضيوف الأخرى بالطبع هناك غرفة استحمام في كل طابق.**

وقف في الدرج وأشار باصبعه:

- **والعلية في الطابق الأخير، لا شيء فيها سوى الأثاث القديم والأوراق التي لا جدوى من الاحتفاظ بها، جرائد أكلتها الفئران التي يشرف ألكسندر على القضاء عليها ولا تخافي فالعلية ليست مسكونة بشبح فيكتوري مات في فترة الوباء الأسود أو مليئة بالوطاويط...**

لكنها لم تضحك وقالت ببرود:

- **حسنا فهمت...**
- **هذه لوحة لماري أنطوانيت، من فترة الروكوكو...**

لكن إيفا لم تكن تعلم شيئا عن فترة الركوكو هذه فتتبعته في صمت...

كل ما تتذكره هو أن ماري أنطوانيت تحب الكعك كإدوارد...

تبا للأثرياء.

ثم سألته ايفا أثناء نزولها:

- **ومن هذا؟**
- **اللورد فيليب غاردنر، المالك الأصلي للقصر، ووالد الليدي لينور، لقد لترقد روحه الطاهرة بسلام.**

ثم تنهد.

ارتمت إيفا على السرير أخيرا دون أن تفكر في شيء غير النوم....

والمغامرات التي ستنتظرها في هذا القصر الغريب.

الموت...

الموت الذي حدثت عنه الدكتور كراولي مرارا وتكرارا لكنه لم يهتم.

حقا... ان كان الموت شخصا... لكان ألكسندر.

كان هنا منذ البداية

ذاك الذي لم يهتم لأمرها... مثلما فعل الموت تماما...
بوسامته، وشحوبه، بكورتوازيته، ملابسه السوداء الأنيقة القوطية الفيكتورية ، والرداء الأسود المنسدل من على كتفيه وصولا للأرض، تسريحة شعره المفروق في الوسط وشاربه الفخم.
شيء كالسحر يجذبك إليه، بسوداويته والدم الذي لم يسري في وجهه، لم يشبه اللورد في شي، لا في الارستقراطية المبالغة، ولا في التبجح كالطاووس في كل بهو في القصر.
ألكسندر الذي لم يرغب بمناداته باللورد ألكسندر أو حتى السيد ألكسندر، أو السيد أوكونور ... فقط ألكسندر بوسامته، وشحوبه كقمر مكتمل، مائل للزرقة
من هو الكسندر أوكونور؟
لقد بدا مألوفا...
لكن الذكرى ضبابية.
كأنه من تلك الوجوه التي كانت تراها فجأة ثم تختفي فجأة بين أصوات الخفافيش الليلية وأضواء النيون المتوهجة، بين رائحة العرق واللحم البشري المتلاصق الذي يتراقص بثمالة على ألحان صاخبة .
بين كل تلك الأقراص المخدرة وحبوب الهلوسة والجعة الرخيصة التي تعبق منها رائحة الشعير المتخمر العطن.
كان يظهر لها فجأة بين أضواء النيون التي تومض دون انقطاع...
ثم يختفي كأنه لم يكن.

كان هنا منذ البداية

3

من هو الكسندر أوكونور؟
وراح ذلك السؤال يتكرر في ذهنها.
لقد بدا مألوفا...
لكن الذكرى ضبابية.
كأنه من تلك الوجوه التي كانت تراها فجأة ثم تختفي فجأة بين أصوات الخفافيش الليلية وأضواء النيون المتوهجة، بين رائحة العرق واللحم البشري المتلاصق الذي يتراقص بثمالة على ألحان صاخبة .
بين كل تلك الأقراص المخدرة وحبوب الهلوسة والجعة الرخيصة التي تعبق منها رائحة الشعير المتخمر العطن.
كان يظهر لها فجأة بين أضواء النيون التي تومض دون انقطاع...
ثم يختفي كأنه لم يكن.
ارغب ان اخبركم عن قصة حياته التي لا تعرف عنها إيفا شيئا البتة، ولد الكسندر أوكونور في الخامس والعشرين من مايو سنة *1953* وقد كان ثمرة الحب الوحيدة التي خلفها زواج الابنة الوحيدة للورد فيليب غاردنر اللايدي لينور غاردنر بأحد نبلاء ايرلندا السير ريتشارد أوكونور، وقد ترعرع بطريقة تقليدية لأي نبيل من عائلة ايرلندية ثرية ومتدينة نوعا حياة جمعت بين الرفاه والبدائية، وهنا كان يعتبرها بدائية نوعا، لأنه لم يعد هناك ناس تسكن القصور المسكونة النائية، فقد تغير فكر ألكسندر عندما كثرت زياراته لدبلن واحتكاكه بسكان المدينة، أولئك الذين لم ينشأوا على ذاك الطراز القديم الذي كان يراه الكسندر مملا نوعا، لا تفعل كذا وكذا فأنت من سلالة نبيلة...
لا تتحدث مع فلان وعلان فجدك هو اللورد فيليب غاردنر أثرى رجال إيرلندا.
لم يكن الكسندر أوكونور غريب الأطوار -كما يصفه ادوارد- منذ ولادته بل شخصا عاديا على مقاييس النبلاء التي تلتزم بها عائلة غاردنر، التحق بأحد كليات

الهندسة أراد أن يصير مهندسا حتى يضفي لمسة قوطية على الهندسة المعمارية المعاصرة، كانت هوايته التجوال في شوارع ايرلندا والتنقل بين المنازل القديمة التي كان يري فيها جزءا من نفسه وقد ساعدته كل تلك الأساطير الشعبية والخرافات عن الاشباح والساحرات في الإبحار في خيالات متشعبة عن تلك المنازل والقصور.

سمع قصصا عن قصر ليب المسكون *leap castle* الذي كان مسرحا للقتل والخيانة ، قصر هضبة مونتبولي Montpelier Hill في مقاطعة دبلن قصر ليمانيه Leamaneh Castle في مقاطعة كلار الذي شنق فيه عديد الخدم وعلقت الخادمات من شعرهن حتى الموت...

وغيرها من الروايات وغيرها من القصور والمنازل.

كان كل ذلك يحدث في قصور الآخرين، وليس في قصرهم ...

لن يحدث شيء كهذا في قصر اللورد فيليب غاردنر فاللورد فيليب كان رجل متدينا طيب القلب، لم يقتل زوجته ولم يسفك دماء الخدم العذارى ولم يعذب خادما زنجيا في قبو القصر...

وهكذا ظن الكسندر أن كل هذه القصص تحصل للآخرين ولن تحصل في قصرهم، فالشر هو الذي يفتح باب اللعنات على تلك القصور، هو الذي يعذب الارواح الساكنة هناك، لذلك فقصر اللورد فيليب غاردنر لن ينضم للائحة القصور السوداء التي تتحدث عنها الجدات في عيد القديسين.

هذا ما ظنه ألكسندر لغاية وفاة والده.

لأن وفاة ريتشارد أوكونور كانت نقلة نوعية في حياة الجميع ، ميتة فتحت باب اللعنات على جميع سكان قصر اللورد فيليب غاردنر لتشملهم واحدا تلو الآخر.

يذكر ألكسندر أن السنة كانت *1974*، كان الجو ربيعيا وكان القصر يعج بالبهجة والحياة، كان فيه في زمن ما حارس غير آرثر، سائق، وبستاني، ومدبرات القصر كن خادمتان وطباخة، وبالطبع كان هناك كبير الخدم، "بتلر"، *butler* يشرف على الكبيرة والصغيرة والذي هو ادوارد ماكغريغور، هو من كان يعد طاولة الطعام كما صارت تفعل زينا من بعده فهو الذي أشرف على تعليمها بنفسه.

كان هنا منذ البداية

في تلك الأيام الخوالي وفي زمن كانت فيه الحياة ربيعية، كان السير ريتشارد أوكونور يستعد للذهاب في رحلة صيد رفقة ادوارد ماكغريغور كبير الخدم فقد جرت العادة ان يرافق ادوارد ريتشارد في رحلات الصيد تلك مع ثلة من النبلاء المولعين بالصيد..

يذكر ألكسندر أن ادوارد كان مجرد خادم بسيط وودود في القصر قبل أن يصير زوجا لأمه، ويذكر ألكسندر جيدا أن ادوارد قد عاد يومها وفي يده صيد وفير وقد بدى عليه بعض التشنج والقلق والحيرة، اتجه لمكتب اللورد فيليب غاردنر وأخبره بأنه لم يعثروا على ريتشارد في أي مكان قائلا:

- **صدقني أيها اللورد فيليب، هو الذي أصر بأن يلحق بالغزال وقد وضع مبلغا لمن يصطاده أولا، رحنا نبحث عن الغزال ولم نجده ثم عاد جميعنا ما عدى ريتشارد...**

امتقع اللورد فيليب في مكانه وصرخ في وجه ادوارد:

- **أيها الحقير كيف تركته يغيب عن عينيك، مهمتك هي أن ترافقه وتحرسه لا أن تلعب معهم وتبحث عن الغزال...**

بعدها فعل اللورد فيليب كل ما في وسعه حتى يعثر على زوج ابنته المفقود السير ريتشارد أوكونور وقد ساعده ادوارد في ذلك.

فتشت كلاب الشرطة في كل مكان، وبعد بحث دام ليومين فقط عثر على جثة السير ريتشارد أوكونور واقعة من سفح جبل قريب وبد نهشتها الحيوانات.

لقد مات وقد رجح أن الوفاة نجمت جراء محاولته اللحاق بالغزال ففقد التوازن وسقط من الجبل.

صدق الجميع هذه القصة حزنت الليدي لينور على رحيل زوجها وهو في بداية أربعيناته ولبست لون العزاء الى الأبد.

حزن ألكسندر على موت والدته لكن الجميع سيموت في النهاية.

أن يموت والدك فذلك عادي، ستحزن لأيام ثم تعود وتيرة حياتك لسابق عهدها، فذلك طبيعي، فالبشر لا يحزنون على فراق شخص عزيز الى الأبد...

هذا ما ظنه الجميع، لقد مات ريتشارد وصار ذكرى يشتعل لهيبها في روح ألكسندر كلما حدق بصورته المعلقة على الحائط لغاية ذلك اليوم الملعون...

كان هنا منذ البداية

لقد فتحت موت السير ريتشارد أوكونور المسترابة باب اللعنات.
يومها سمع ألكسندر لينور والدته تصرخ وهي تخاطب والدها ... كان ذلك في حد ذاته كان تصرفا غريبا، فهو لم يسمع والدته تصرخ من قبل وخاصة عندما تخاطب والدها اللورد فيليب غاردنر فهي تحبه وتكن له كل الاحترام والتقدير وأخذ كريشندو صراخها يتصاعد ليملأ القصر ويسمعه كل خدم القصر الذين كانوا هناك في يوم من الأيام:

- **أنا سأتزوج ادوارد رغما عن أنفك...**

كاد اللورد فليب يصاب بجلطة أو سكتة قلبية فور سماعه تلك الكلمات وقد كان الأخير يصرخ في وجهها وقد أحس بضيق بصدره:

- **كيف... ذلك لا يعقل تتزوجين كبير الخدم ولم تنقضي سنة على موت زوجك... لينور انه مجرد خادم رباه كيف لي أن اداري فضيحة كهذه... ماذا سأقول للناس... ابنتي الوحيدة تتزوج من الخادم.**
- **لا يهم... أنا فقط أعلمك وسأنفذ ما قلته.**
- **ان كنت ترغبين في الزواج فليكن ذلك من عائلة مرموقة لها سمعتها في البلاد ... لا ذاك الاسكتلندي النكرة.**

صدم الجميع، وصدم الكسندر، في الواقع لم يصدم لأن والدته ستتزوج بمجرد خادم، بل لأن رجلا آخر سيحل مكان والده ريتشارد.
رجل آخر سينام على التخت أين كان ينام ريتشارد بجانب لينور .
رجل آخر سيلمس لينور.
رجل آخر سيأخذ منه أمه.
رجل آخر سيشرف على مشاريع العائلة ومصالحها.
رجل آخر سيجلس معهم الى طاولة العشاء .
رجل آخر سيلعب دور رب الأسرة الحازم.
رجل آخر سيلعب دور الأب.
وهذا الرجل هو كبير الخدم إدوارد ماكغريغور ، ذلك الفتى الريفي الهزيل القادم من اسكتلندا ، ذلك الخادم الطيب الودود الذي قضى ألكسندر طفولته يلعب معه الكرة قرب تلك البركة.

كان هنا منذ البداية

ذلك الرجل الذي يلبس بدلة كبير الخدم ويشرف على الكبيرة والصغيرة ويعد طاولة العشاء سيصبح هو زوج أمه.
هذا كابوس ويجب على ألكسندر أن يستفيق منه...
لكن باب اللعنات قد فتح على مصرعيه ليسمح لشرارات الجحيم بالدخول وتعكير مزاج القصر الهادئ.
لقد فات الأوان لإصلاح أي شيء فقد أصرت لينور على أن تتزوج ادوارد وقد نالت ما أرادت.
تشاجرت مع اللورد فيليب...
تشاجرت مع ابنها الوحيد ألكسندر...
تشاجرت مع مدبرات القصر...
وصارت تكره الجميع عدا ادوارد.
أما الآن سيداتي سادتي دعوني أقدم لكم السير ادوارد ماكغريغور زوج الليدي لينور الجديد، وقد تمت كل مراسم الزواج في كنيسة القصر لم يحضر الزفاف أي من أقارب ادوارد، بل لم يطلعهم بأمر زواجه حتى.
في عشية وضحاها صار ادوارد أحد النبلاء، لقد حصل على الياقوتة الغالية المتوهجة التي عمل اللورد فيليب جيدا على صقلها وحمايتها ومعها لقد حصل على كل شيء حلم به رجل بسيط مثله من جاه وجبروت وسلطة وثروة وتحققت كل أحلامه على أرض الواقع.
- الحياة فرص ... وقد انتهزتها ...
هذا ما كان ادوارد يقوله لألكسندر قصد أن يغيضه.
بهذه البساطة صار الوغد نبيلا.
بهذه البساطة تحول ادوارد من خادم ودود لثري وغد يصرخ على الخدم يهينهم، يتطاير الشرر من عينيه وهو يبصق الشتائم على هذا وذاك، يصرخ على ألكسندر ويضربه أمام مرئا من لينور قصد اعادة تربيته كما كان يقول لها، يهينه أمام الخدم وتدريجيا حول حياة ذلك الشاب البائس إلى جحيم...
تلك التصرفات الغير آدمية لادوارد جعلت ألكسندر يشك في أمر وفاة والده...

من دون أدنى شك هو من فعلها، هو من دبر لتلك المكيدة الشنعاء وقد نجح في ازاحة ريتشارد من طريقه والاستحواذ على كل شيء.
سكنت هذه الفكرة في عقل ألكسندر الذي هزل ونحل وساءت حالته النفسية، ترك كلية الهندسة وأصبح يختلق الحجج للهروب من القصر والاختلاء بنفسه بعض الوقت في المدينة...

- **أجل ادوارد هو الذي قتل والدي .**

هذا ما كان لسان حاله يقوله وهو يبحث عن خيط أو دليل يجعله يتمسك بتلك النظرية ولم يكن أمامه خيار غير أن يصارح جده اللورد فيليب بتلك الأفكار والشكوك.
وبالطبع، فاللورد فيليب سيقف في صفه لأن عدوهما هو واحد، وتواصل تهديد اللورد فيليب لادوارد منبها:

- **لن يدوم مكوثك في هذا القصر، ستقبض عليك الشرطة فور أن يعرفوا ما فعلته للوصول إلى هنا .**
- **صعب... ما تقوله صعب... أظن أن الخرف قد لعب بعقلك يا "فيليب" فلينور تحبني، لن تصدق حرفا مما تهذي به انت وابنها المخبول... قدري أن أصير نبيلا، وها أنا أكتب التاريخ من جديد... آه نسيت لم أخبرك.**

أشعل ادوارد سيجارة، وضع ساقا على ساق وقال في تحذلق:

- **أنا والعزيزة لينور ننتظر مولودا... قريبا سيصير كل شيء ملكي ولتذهب أنت للعدم أيها العجوز البغيض، ستقبع في مكان تتعذب فيه للأبد... ستموت ببطئ... بعدها سينادي الجميع باللورد ادوارد ماكغريغور وسيكون ذلك عما قريب...**

كان اللورد فيليب أقوى من أن يعير هذه التهديدات اهتماما، رغم كرهه لادوارد إلا أنه كان سعيدا فابنته لينور تنتظر مولودا جديدا ربما يأتي بالخير لكل العائلة ويزيل كل الضغائن تلك الأنباء السارة جعلته يتريث بأمر ادوارد، أما ألكسندر أوكونور فقد صدم فور سماعه خبر والدته التي تنتظر مولودا من ذلك الخبيث ادوارد وهذا لن يكون مؤشر خير .

واصل ادوارد تعنيف ألكسندر وتحويل حياته الى جحيم، صار القصر بمثابة سجن له وادوارد هو جلاده الذي يتفنن في تعذيبه نفسيا وجسديا...
وفي النهاية وجد ألكسندر ملاذه في أزقة دبلن العطنة التي قرر أن يسكنها دون رجعة.
تراه هائما في شارع آبي *abbey street* كمن لا وجهة له.
يقضي يومه يتسكع من محل الى آخر، من حانة إلى أخرى ثم ينام في سيارته، تجده جالسا القرفصاء في ذلك الزقاق بالتحديد يداعب قطا ضالا بين خليط من رائحة البول والجعة الكريهة و قوارير البيرة المرمية في كل مكان، وجد من يرحب به. أولئك الغير أسوياء الذين يمقتهم المجتمع ، أولئك الذين يرددون أغاني مسدسات النكاح وشعارات البانك "الفوضى في المملكة المتحدة" أوشام، أقراط، تسريحة الموهوك المنتصبة فوق رؤوسهم بأبشع الألوان، جوارب مشبكة يلبسها الفتيان والفتيات على حد السواء
طلاء أظافر أسود.
ملابس سوداء.
مستقبل أسود.
لا يوجد شيء غير السواد.
جيل منكوب، لا حظ له، كلهم عاطلون، كلهم منتشون.
مجموعة من الضائعين المشردين: هذه هربت من البيت، والآخر قد طرد، وهذا لا يملك بيتا أصلا.
من يهتم... فهم الأشخاص الوحيدون الذين رحبوا به.
في حانة ذو هارب *the harp bar* أين كان ألكسندر يرى فتاة جميلة بشعر صدأ كأوراق الخريف المتساقطة وخصلات حمراء، وقرط في غضروف أنفها وندبة على رقبتها كانت تتباهى بها أمام أصدقائها الذين أدمنوا إيذاء ذواتهم بينما تلقي عليهم محاضرة مختلطة بصوت البيس والطبول ومغني روك أو معدن صوته أقرب للفحيح من الغناء في احدى البارات أو أنفاق الأندرغراوند أين تقام أكثر الحفلات صخبا:" البانكرز يقطعون أوردتهم، يزينون رقابهم بندوب كهذه، يضعون جروحا على وجوههم، ندبة طولية تشق العين كأبطال مجلات السايبر

بانك المصورة... نعم فهم لا يهتمون بذلك لأن ألم الواقع أعمق بكثير من ألم مشرط صدئ دام يقطع وريدك، غير مبال إن كان قد يسبب لك شللا على مستوى اليد، أم موتا رحيما كالذي نراه في المسرحيات الاغريقية، أو الأسوأ أن يتعفن الجرح ويسبب لك تعفنا دمويا بسبب متلازمة الصدمة التسممية المتسببة فيها البكتيريا العنقودية الذهبية، إما أن تبتر أعضاؤك أو تموت".

ليرد عليها أحد الحاضرين بصوت ثمل يملؤه الحماس والاثارة:" تبا هذه الكلمات تصلح لتكون أغنية جديدة، عيديها حتى أكتبها".

عندها تشعر الفتاة ذو الشعر الصدئ بالفرح وتكرر ما تقوله بعد أن تحتسي جغيمات من قارورة البيرة...

هناك أين تمكن ألكسندر من نسيان همومه التي طال ما لازمته كلما دخل القصر.

هناك في أزقة دبلن صارت لديه صديقة ذو شعر أرجواني اسمها جوليا تجوب أنحاء المدينة وعلى ظهرها غيتارة بيس.

ناولته صورة البولارويد البالية خاصتها وقالت:

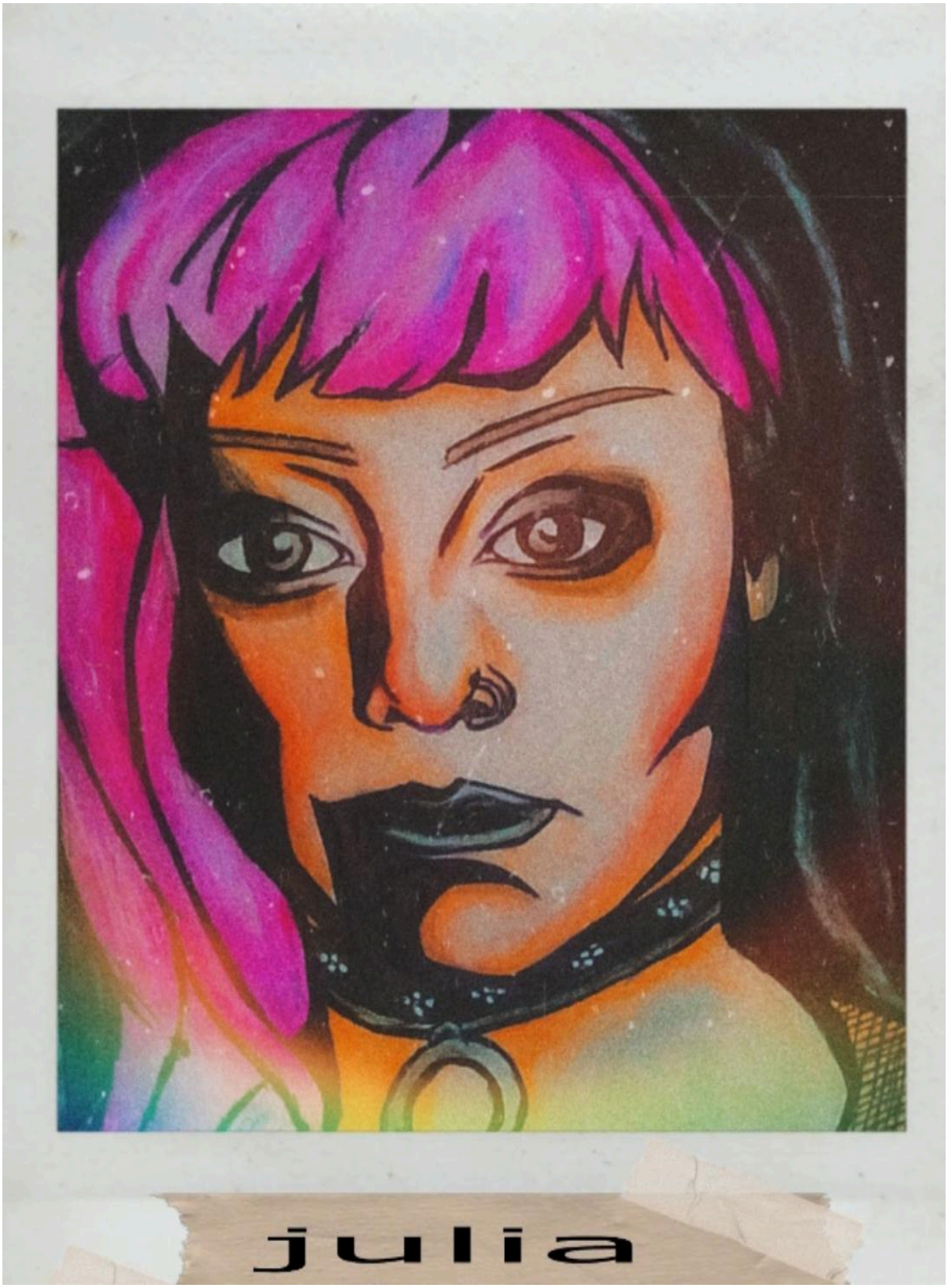

- **أعلم أنني سأعلق في ذاكرتك الى الأبد.**

كان هنا منذ البداية

وكان يعلم أنها ستفعل.
كانت رائحة أنفاسها أشبه برائحة محرقة نازية تأبى الانطفاء، ملابسها رثة خليعة، صدرها شبه عار وقد كسته الكدمات، تنورتها قصيرة، وجهها مطلي بأصباغ رخيصة، لا تبرح أن تفارق قارورة البيرة، لا تتحدث عن أي شيء سوى النشوة، والمزاج العالي، وما فوق السحاب، والهلاوس التي تراها عندما تتعاطى فطرا ما...
ومع كل ذلك فقد راقت له تصرفاتها المتحررة من كل القواعد والقيود.
التمرد، العصيان، الجرأة، الانتفاض، التصدي، هذا ما كانت ترده وهي ترسم شعار ال*anarchy* بعبوة سبراي .
كانت جوليا أول من قبل صحبته، اصطحبته لشقتها كأنه جرو عليل بلا مأوى وقالت ورأسها يهتز على وقع موسيقى تصم الآذان وعلامات الانتشاء بادية على عينيها المرتخيتين:
- أيها المسكين، دعني أعتني بك وأخرجك من بؤسك.
هناك في دبلن سمحت له جوليا أن يقيم معها في شقتها الرخيصة التي كانت تأجرها مقابل بضع جنيهات، شقة تفوح منها رائحة لفائف الطعام الرخيص العطن الملقات على الأرض هنا وهناك، هذا صندوق بيتزا عبث الصراصير ببقاياه، هذا واق ذكري مرمي على الأرض بكل اهمال، بينما تكومت عشرات من قوارير المياه المعدنية لتشكل جبلا من البلاستيك. ما سيلفت انتباهك فور دخولك للشقة رائحة المرحاض المسدود التي تصيبك بالغثيان لتذكرك بأن هؤلاء البشر مازالوا أحياء... ما زالوا يأكلون، وما زالوا يتبرزون، ويتلوثون المكان دون أي مبالاة اضف الى كل هذا قوارير البيرة المزروعة في الأرض كالألغام التي عليك تفاديها والتي اقترنت رائحتها بالبول والقيء الذي يشمه ألكسندر في أزقة الموت تلك... لكنه لم يمانع، فالمغامرات غالبا تكون بهذا المذاق.
وخلال فترة قصيرة صار ألكسندر لا يعقل.
حليق الشعر مثلهم، يرتدي ملابس جلدية واحزمة مرصعة بالدبابيس والسلاسل، كحل أسود يسيل من عينيه وأقراط في الأذنين، رائحته كريهة كأنه كلب أجرب لم

يستحم منذ سنوات، يحمل بيده اسطوانة فرقة ما تتحدث الأغنيات التي عليها إما عن القتل والدمار أو عن الموت والانتحار.

هناك أين أتمت جوليا طلاء أظافره باللون الأسود، ناولته سيجارة وقالت:

- **الآن ... لقد صرت واحدا منا ألكسندر لقد بعثت من جديد...**
- **مهلا لكني لا أدخن...**
- **ها قد صرت تدخن.**

تشعل السيجارة وتضعها في فمه.

هناك صار يتسكع معها، يتسول معها، يبيع المخدرات معها، ينام على قارعة الطريق من فرط السكر معها...

هناك أصبح هو وجوليا أفضل انسجام، تجرد من كونه من طبقة أرقى، أنفق كل أمواله في المخدرات المختلفة، سمع الموسيقى الصاخبة، قضى الساعات المتبقية من الليل وهو يضاجعها دون انقطاع ثم استلقى لينام على الأرض بعد ان خارت قواه.

هناك أين عرفته جوليا على أصدقاء جدد، كرايفن بلود *craving blood* صاحب حانة ذو هارب رجل شبيه بالمسوخ في أفلام الأبيض والأسود، فارع الطول يقارب المترين، ذو وجه طويل امتقع بالأصباغ ومساحيق الزينة، طويل الشعر، شاحب الوجه وقليل الكلام، غريب الأطوار والطباع، ممل يكره الرقص والثرثرة والتسكع في الشوارع ان حاول قول نكتة فلا يضحك أحد، ان حدث وضحك أحد فاعلم أنه مزطول فوق العادة، كانوا فقد يصادقونه لأنه صاحب الحانة.

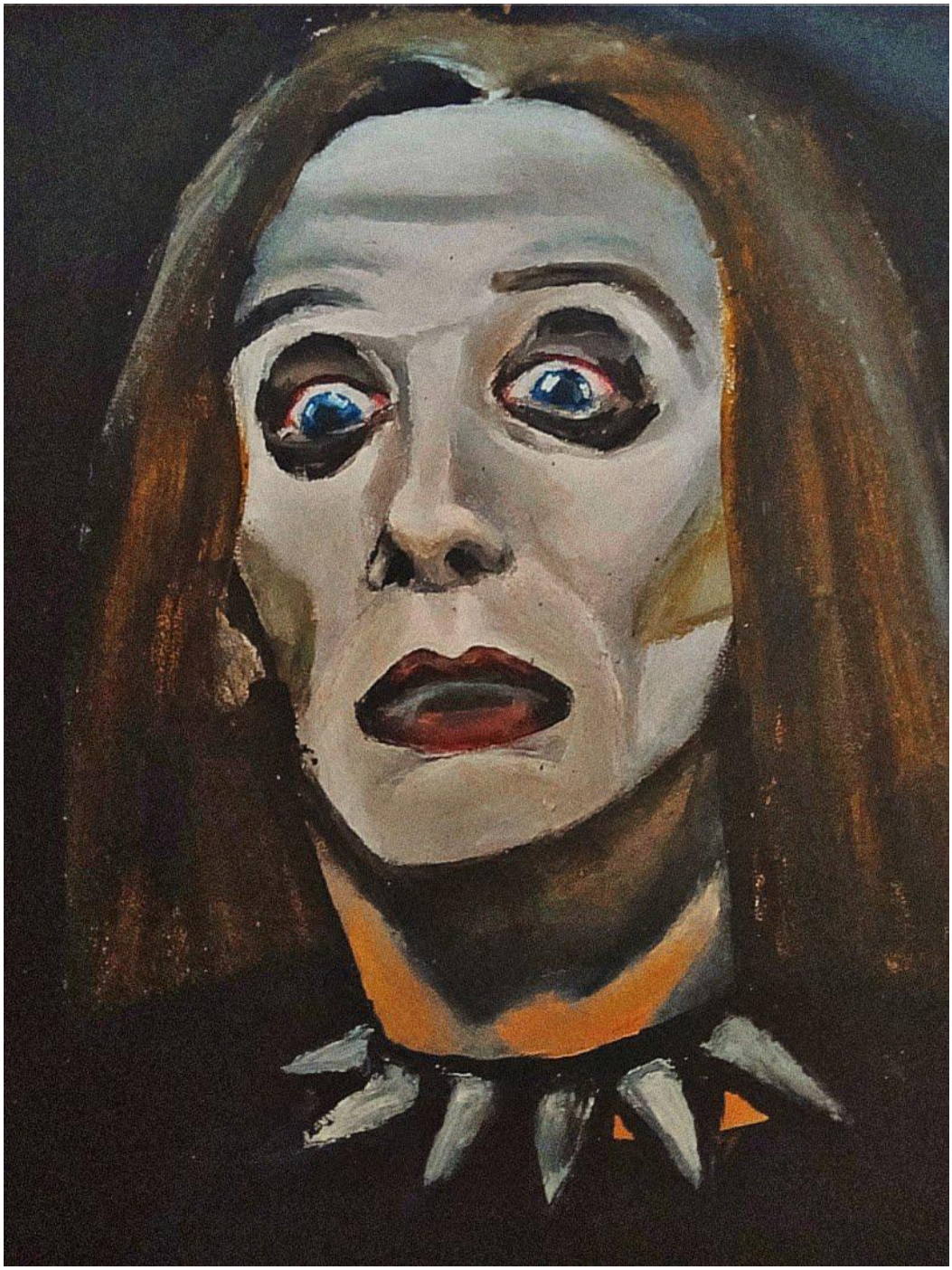

وكما قدمته جوليا لشلتها المحببة، مجموعة شباب طائش أكبرهم في العشرين من عمره هواة لموسيقى الروك: جاك، ليلي ولويز...
كان حلم جوليا أن تعزف البيز غيتار في فرقة موسيقية مع ذلك الشباب الضائع وتسافر العالم، وقد أقنعت ألكسندر بتلك الفكرة الساذجة :

كان هنا منذ البداية

- **أنا وأنت، وبمال أسرتك الوفير، سننشأ فرقة روك آند رول، أنا أعزف على البيس وأنت تغني كالأموات، جاك على الطبول، وليلي ولويز على الغيتار، سنسجل أول ألبوم لنا، ستموله أنت بالطبع ونجوب به العالم... صدقني سيكون لنا مستقبل واعد في الولايات المتحدة هناك الكثير من المجانين العاشقين للموسيقى الصاخبة...**

وكان ألكسندر يغمغم دون أن يصارحها بأن كل ذلك لن يحدث فقد حرمه ادوارد من مد يده على أموال العائلة وهو يحصل على جنيهات قليلة من عند جده اللورد فيليب، والا ما قرر أن يترك القصر ويقبل بالعيش معها في شقة أشبه بمهجع للفئران، أضف إلى أن صوته رديء ولن يصلح حتى لهذا النوع السيء من الموسيقى.

لكنه كان يحبها حتى ولو لم تتسنى له الفرصة في أن يفصح لها عن مشاعره فقد كان يعتبر العيش معها في مزرعة البكتيريا تلك أفضل من قصر اللورد فيليب غاردنر.

هناك قدمته جوليا لعالم النشوة كما كانت تقول وهي تناوله قرصا أزرق أو قرصا أرجوانيا...

- **لكني لا أتعاطى...**

فتفتح فمه وتناوله قرصا ما وتقول في خبث:

- **وها قد صرت تتعاطى.**

فيبتلع القرص كطفل صغير ، ثم تكرر ذلك عديد المرات دون أي اعتراض منه:

- **هيا ستنسى همومك بهذا القرص... هيا سطر كوكايين سيجعلك تطفو فوق سحابة من النشوة... هيا هذا قرص بروما زيبام ان تناولت قرصين أو ثلاثة ستنام كالأموات أو ربما ستفقد الذاكرة ان تناولت أكثر ...**

وبسرعة ألف ألكسندر نمط العيش الجديد، ألف الملابس الجلدية الرثة قذرة المنظر وكريهة الرائحة والشعارات العنصرية للنازيين الجدد... نمط موسيقي جديد والحان أول ألبوم ل *patti smith* يتصاعد بينما كان هائما في العالم الآخر كما كانت تقول جوليا، ينهض في ساعة متأخرة من المساء، يشرب البيرة

الرخيصة بدل أرقى أنواع الشاي، يلتهم عقب الساندويش في الذي تركه ليلة البارحة بدلا من قطعة خبز محمصة بالزبدة والمعجون، يلبس ملابسه السوداء الجلدية عوض بدلاته الفخمة، يمسح عن قميصه بقعة القيء الذي تقيأه البارحة، يشعل سيجارة على طريقة الممثلين في السينما الهوليوودية، يتأبط يد جوليا متوجهان نحو حانة ذو هارب أين سيجلسان في ركن منزو مظلم رفقة صاحب الحانة كرايفن بلود.

على اثر وقع إيقاعات ألحان *joy division* وومضات ضوء النيون المتلألأ أزرق، أخضر، أحمر...

ويومض من جديد...

أزرق.

أخضر.

أحمر

ويومض من جديد...

كان ألكسندر يرقص وفي يده قارورة جعة سيئة المذاق لكنه قد تعود عليها، ليتفطن بجوليا تسحبه للحمام وهي تقول له بصوت يعجز عن سماعه بسبب صخب الموسيقى:

- ألكسندر... تعال للحمام... أنظر على ماذا حصلت...

وتفتح يدها لتريه مجموعة أقراص فيتبعها وقد سال لعابه ككلب مسعور.

يجلسان في ركن كريه الرائحة على الأرضية المبللة بمزيج من البول والماء في المرحاض لوثت جدرانه بالبراز الذي كتبت به كلمات بذيئة، يحكمان غلق الباب وتقول له جوليا وعيناها تشعان خبثا:

- الليلة ستعرف السحابة التاسعة... هنا وليس في أي مكان آخر سنجرب النشوة الكبرى... هل سمعت بالـ *DMT*...

فيتعجب كأبله أمام عاهرة عجوز ملت كل شيء ولم يعد هناك في الكون من شيء يسلي خاطرها فتجيبه في استهتار:

- من يأبه... الليلة ستجربه.

أخرجت قطعة *LSD*، وقالت:

- بهذه ستغيب عن العالم لساعتين أو ثلاثة ستطفو وتسكن اليوفوريا كل سنتيمتر في جسمك ستتحرر من الأبعاد الثلاثة وتطلق العنان للبعد الرابع... رحلة ممتعة.

وضعت قطعة في فمها وناولته قطعة أخرى وبدأت تكرر كلمات لم يفهم كنهها وتأمره أن يعد لها خليطا عجيبا من كل هذه السموم:

- سحابة تاسعة... خط أبيض... هذه المرة... لقد تدفق الأدرنالين.

كل ما يذكره ألكسندر عن تلك الحادثة أنه لا يتذكر أي شيء سوى أن جوليا كانت تقول له هيا أعطني الأقراص الزرقاء التي بحوزتك هيا ناولني سطرا آخر... انه الادرنالين يتصاعد...

يتصاعد.

يتصاعد.

إلى أن غاب ألكسندر عن الوعي وسافر للأبعاد الأخرى.

عندما سأله كرايفن في وقت لاحق عن تلك الحادثة قال إنه لم يقصد قتلها، بل كل ما أراده في تلك اللحظة هو أن يجعلها تصل لأعلى درجات الانتشاء، لا يذكر كم عقارا خلط لها في تلك الليلة، وهي تردد السحابة التاسعة... الادرنالين... كان هناك كوكايين، أقراص طبية مخدرة حبوب هلوسة، الاقراص الارجوانية والزرقاء، المزيد المزيد من ال*LSD*، المزيد من الأقراص الأرجوانية... وماذا بقي بحوزته ... بروما زيبام، ألبرازولام... إلى أن توقفت على طلب المزيد...

تطلب الأمر منه ثلاث ساعات حتى أدرك حجم الجرم الذي ارتكبه فتح عينيه، حك عينيه، جوليا مسندة ضهرها الى الحائط، وقد سال خيط من الدم من أنفها وتحولها لونها الى أزرق أرجواني، ولحسن حظه أنه لم يأخذ نفس الجرعة بل اكتفى بعقار الهلوسة اياه، عندها فقط أدرك أن عليه الفرار.

ماذا لو كان بوسعه انقاذها؟

ماذا لو طلب الإسعاف؟

ماذا لو لم يعطيها المزيد؟

ماذا سيقول صاحب الحانة؟

ماذا سيقول الجميع؟
نعم لقد كان السبب في موتها... دعنا نقل أنه السبب الغير مباشر في موتها، لكن لقد كان له يد في ذلك.
عثر على جوليا صباح اليوم الموالي ميتة في المرحاض كجرذ منسي.
وبالطبع سيتساءل الجميع عن من كان معها؟
سحقا كلهم يعلمون أنه ألكسندر.
متى ستصل إليه الشرطة؟
فور أن يفتحوا تحقيقا بسبب وفاة جوليا.
كلها مسألة وقت وستستجوبه الشرطة ثم يتم عرضه لإجراء التحاليل اللازمة ثم يتورط في قضية قتل وقضية مخدرات وفضيحة عائلية كبرى ستسمع بها كامل المملكة المتحدة، وان لم يعدم فسيقضي ما تبقى له من سنين عمره في الظلام بين قضبان زنزانة لن يخرج منها لا ميتا...يا لها من ورطة وضع فيها نفسه.
عاد لحانة ذو هارب ليلتها وكان يحمد الرب على أن قبضة العدالة لم تطله بعد، بالطبع لم تغلق الحانة فمنذ متى تهتم السلطة لموت جرذ آخر في المجاري، كل ما قاله أعوان الشرطة أنهم سيبحثون في القضية من أجل الحد من آفة المخدرات، انتشلوا الجثة التي لم يكن لها أقارب وغادروا دون عودة.
وقد كان ألكسندر يردد في نفسه:
- لا بأس معي بعض الوقت قبل أن تكشفني الشرطة وهرول نحو المرحاض.
وعلى اثر وقع إيقاعات ألحان أغنية "فليحفظ الله الملكة" وومضات ضوء النيون المتلألأ أزرق، أخضر، أحمر...
ويومض من جديد...
أزرق.
أخضر.
أحمر
ويومض من جديد...
دخل الحمام دون أن يستوقفه أي أحد أو يسأله عن حبيبته التي ماتت ليلة أمس فالكل كان مزطولا أو مخمورا يتراقص دون انتباه.

أغلق باب الحمام وجلس على تلك الأرضية الرطبة وقال بصوت غير مسموع بسبب صخب الموسيقى:

- **الليلة سأنهي هذا العذاب واتخلص من هذه اللعنة...**

أخرج علبة أقراص البرومازيبام من جيبه وأفرغ الأقراص في كف يده المرتعشة وأخذ يتذكر ما كانت تقوله جوليا:

- **هيا هذا قرص بروماز يبام ان تناولت قرصين أو ثلاثة ستنام كالأموات أو ربما ستفقد الذاكرة ان تناولت أكثر ...**

أكثر...

ثم أكثر...

ثم أكثر...

ابتلع كل الأقراص التي بحوزته، في الواقع كان قد فقد الوعي قبل أن يدرك كم قرصا ابتلع.

لم تخرج رغوة بيضاء من فمه.

لم يترنح من شدة الألم الذي يمزق أحشاءه.

لم يندم ويتقيأ ويفرغ ما في معدته من سموم.

فقط فقد الوعي واستسلم لنوم عميق....

لقد تخلصت ايرلندا من جرذ آخر.

فليحفظ الله الملكة.

- هيا استيقظ... أنت لست جرذا...

سمع ذلك الصوت الجهوري الخشن قادما من بعيد، قادما من نهاية نفق، أو نهاية سرداب، أو نهاية الهاوية التي كان يهوي فيها ألكسندر....

- هيا... أنت تعلم أن وقتك لم يحن بعد...

صوت قادم من بعيد...

يأبى الاقتراب.

لقد كان ذلك الصوت صوت كرايفن بلود صاحب الحانة الذي أدرك أن ألكسندر ليس على ما يرام وقد فات الأوان لانقاذه، صفعه وتوسله عشرات المرات أن يستيقظ... ركله صائحا:

- هيا استيقظ يا ابن الملعونة والا سيغلقون لي الحانة بعد حادثة ثانية.

حاول أن يجعله يتقيأ:

كان هنا منذ البداية

- **نبضه ضعيف، نبضه يضعف، نبضه واهن... لم يعد أمامي أي خيار غير هذا...**

وبدأ ألكسندر يسمع ذلك الصوت القادم من بعيد...

انه يقترب...

لكن مهلا، الكسندر يتذوق شيئا ما، سائل قرمزي دافئ له مذاق الصدأ...

وكرايفن يصرخ ويقول:

- **هيا اشرب بعض القطرات يا فتى... لم يحن وقتك بعد...**

ابتلع ألكسندر قطرات الدم تلك وفتح عينيه ليرى مشهد لم يتخيله في أسوأ كوابيسه :

وجه كرايفن بلود صاحب حانة ذو هارب الذي لم يعد آدميا بأنيابه المكشرة الطويلة ومعصمه الدامي الموضوع فوق شفتي ألكسندر بينما يصرخ:

- يا ابن الملعونة لقد كدت تضيع من بين يدي.

كان هنا منذ البداية

- **ماذا يحدث... هل ما شربته للتو كان دما؟**
- **لقد أنقذت حياتك بتلك القطرات.**
- **هل ما أراه الآن حقيقي... مصاصوا الدماء ليسوا واقعيين... هل أنا احلم، هل أنا أهذي، هل أطارت الأقراص عقلي؟**
- **لقد أنقذتك من الموت يا ألكسندر...**
- **لكنك... غير آدمي وهذا مستحيل.**

ابتسم كرايفن حتى كشف عن أنياب حادة ناصعة البياض ثم قال:

- **الآن ... لقد صرت واحدا منا ألكسندر لقد بعثت من جديد...**

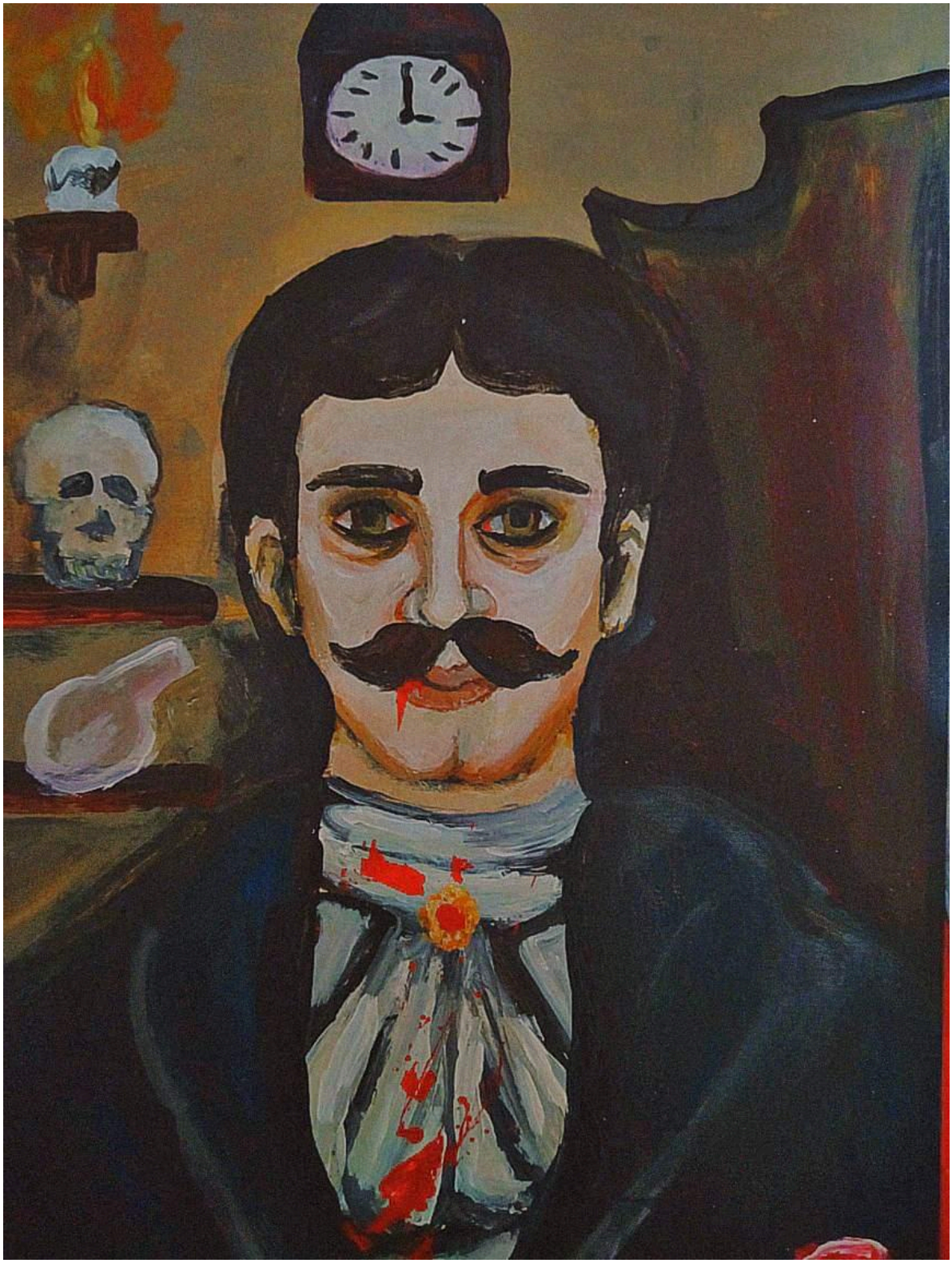

كان هنا منذ البداية

طبيعة مصاصي الدماء التي اكتسبها ألكسندر لم تكن محببة لقلبه، قد تمنى الموت على العيش كجثة آدمية ممسوخة، فهو لن يسكن الأزقة في انتظار فريسة آدمية ما، ألا يكفيه قتل جوليا ألا تكفيه اللعنة التي حلت به، لقد صار خالدا... سيتعذب في خطاياه الى ما بعد الأبدية وما وراء السرمدية.
وجارا أذيال الخيبة قرر العودة للقصر فلينور ستضع مولودها عما قريب...
في القصر، ظن الجميع أنه يمر بحالة اكتئاب، اعتكف في غرفته وأوصد غلق كل الأبواب، طرد كل من طرق باب غرفته، نام طوال النهار كالأموات وصحى يسري في ظلام الليل لعله يعثر على حيوان ما يكون له عشاءا طازجا .
تحول لوطواط يطير عبر الغابات ويسكن الخرائب.
سئم القطط والفئران والجرذان، سئم الجري وراء الكلاب ومطاردة الذئاب في الخلاء، سئم تصيد الغزلان والخنازير البرية.
لكن كل هذه الدماء الحيوانية لا يضاهي قطرة من دم بشري طازج، فصار يشتري أكياس الدم من عند أحد الممرضين مقابل اسعار غالبا ما يكون مبالغا فيها.
كتب له أن يعيش بقية حياته في الظلام كالمنبوذين والنكرة، صار الدم ترياقه وشرابه واكسيره في الحياة.
أدرك أنه لن يجلس على الحافة يشاهد غروب الشمس او طلوع يوم جديد بينما يلقي القصائد الرومانسية.
حياته صارت ظلاما غاشما لن يضيئه أي نور .
صار يقدر ذلك النبض الذي يدب في عروق الآخرين، لن ينعم بدورة حياة يكبر فيها ويشيخ ويهرم.
لن يموت إن رفعوا في وجهه علامة الصليب فهذا ما قاله له كرايفن وقد اختبره بنفسه.
لن يموت ان دخل الكنيسة او اشتم أزهار الثوم، في الواقع لن يموت حتى لو أكل الثوم المحبب لقلبه، كل الملح المرشوش والسكر المبعثر لن يبطل تلك اللعنات فمصيره بات واضحا وضوح الشمس التي لن ينعم برؤيتها مجددا، أنه يتعفن في القصر مع والدته إلى الأبد .

4

سنتين ونصف السنة مرت على تلك الحادثة التي غيرت ألكسندر
لو عرفت إيفا كل هذه الأشياء لما حدقت به، فقط لو عرفت كل هذا لأحجمت على المكوث دقيقة أخرى في هذا القصر الملعون.

كان هنا منذ البداية

لكن من الأفضل لها ألا تعرف.
الساعة الآن كانت الثالثة بعد منتصف الليل، هذه إذن أول ليلة تقضيها إيفا في القصر، جليت في شرفة غرفتها تتمتع بانعكاس ضوء القمر على البحيرة الصغيرة، بينما عقلها يفكر بعديد الأشياء حتى رأت ألكسندر من شرفة غرفتها عائدا بتلك الملابس الغريبة، ان كان يطمح لتقليد السير كريستوفر لي فبئسا لهذا المعتوه، وأول سؤال جال بذهنها كان:
"اين ذهب الكسندر بتلك الملابس القوطية وكيف عاد بهذه السرعة؟"
ترجل الأخير من سيارة الشيفرولي السوداء خاصته وقد كان يحمل كيسا بلاستيكيا اسود فيه بعض الدماء الطازجة التي يشتريها من ممرض في المستشفى، رفع رأسه ليرمقها وهي تحدق به في ثبات...
بالطبع هو يعرف تلك العينين اللتين سكنهما الارق
بثوبها الأبيض الشفاف الذي بدا أكثر شفافية تحت ضوء القمر...
حزينة كئيبة ينعكس عليها ضوء القمر الشاحب الذي جعل دخان سيجارتها خيط ضباب أزرق يطوق ما حولها من جمال.
وبنظرة صارمة ظلت تتبع خطواته.
بعد عدة ثوان سمعت طرقا على باب غرفتها، فتحت بينما كانت تحمل السيجارة بين اصابعيها النحيلة وقالت في عجب كاد يسقط السيجارة من يديها:
- **عجبا... أنت، لكن كيف، فقد تركتك في الأسفل منذ بضع ثوان، والآن أنت أمامي في الطابق الثاني...**

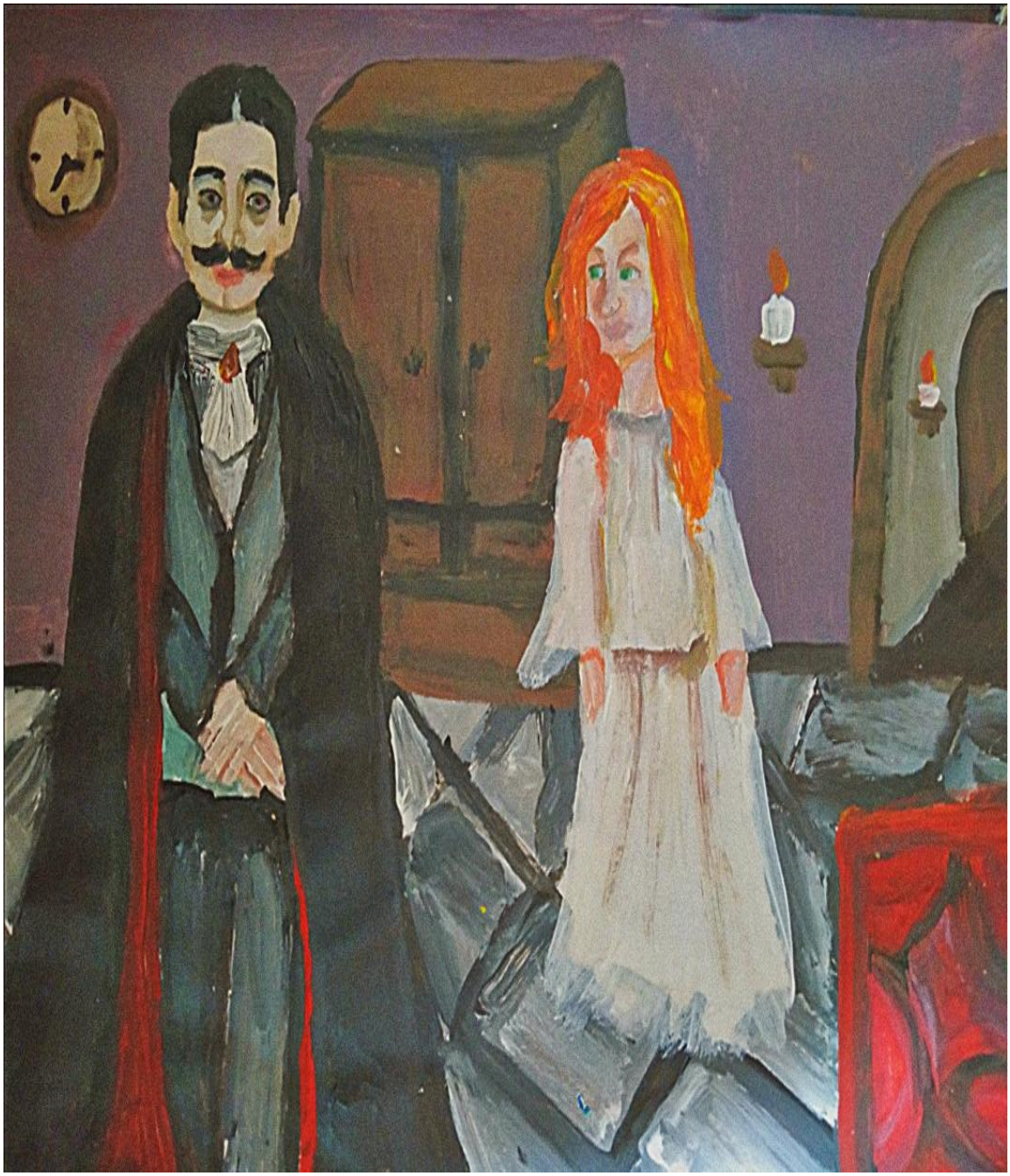

جفى الكسندر على ركبة واحدة وقال كأنه في أحد مسرحيات شيكسبير:

- **لأنك تدينين لي باعتذار عن ما بدر مني في المساء...**

كان هنا منذ البداية

وقبل يدها، بشفتيه الباردتين برود الأموات، ليلمس لحما آدميا ينبض بالحياة، ورديا دافئا تسري في عروقه دماء وتملأ رائحته الغرفة، إحساس مثير، جعل الأدرينالين يتدفق في كامل جسده، لكنه قاوم فكرة أن ينقض عليها ويشبع حاجته من دماءها ولسان حاله يقول:

- قطرات قليلة لن تضر...

نظرت اليه إيفا باستغراب وقالت في سخرية:

- لم يحن عيد الهالوين بعد، لماذا أنت فاعل بنفسك هكذا؟

ونظر لها بعينيه العسليتين الثاقبتين المنومتين - طبعا هذا ليس كلامه، بل كلام كل الفتيات اللواتي وقعن في حبه وخاصة جوليا- التي صارت تتراءى له في أحلامه وهي تردد "سأعلق بذهنك الى الأبد".

أذنت له إيفا بالدخول وقد جلسا على حافة السرير، ناولته سيجارة كنوع من آداب الضيافة، أو استلطاف أو هيا نصبح أصدقاء، فالمخابيل امثالك مثيرون للاهتمام.

أشعلت ذاك الفانوس الخافت المجاور للسرير فلمحها.

- ذلك الوجه يبدو مألوفا...

هذا ما قاله في نفسه...

- هذا الوجه يبدو مؤلوفا...

هذا ما قالته هي في نفسها...

لكن الذكرى ضبابية...

وجه اعتاد رؤيته في ظلام أزقة دبلن...

تلك الندبة التي على رقبتها...

طبعا إنها هي والا لن توحد حسناء أخرى تخطط لذبح نفسها.

أشعلت ايفا السيجارة وقبل أن يسألها عن إسمها همس الكسندر بصوت منوم:

- إيفا؟

- ماذا هناك...

- إذا أنت هي ...

وبالفعل لقد كانت هي...

- **أنا أعرفك، في حانات بدبلن، أين الخصلات الحمراء، مساحيق التجميل الثقيلة، وأين الأقراط أحمر الشفاه القرمزي... كالدم...**
- **مهلا من أنت أنا لا أعرفك؟**

هكذا سألته في استغراب ورهبة، ثم سكتت وحاولت أن تسترجع ذاكرتها التي أرهقتها كل الحبوب المهدأة وأقراص النوم.

لقد بدا مألوفا...

لكن الذكرى ضبابية.

كأنه من تلك الوجوه التي كانت تراها فجأة ثم تختفي فجأة بين أصوات الخفافيش الليلية وأضواء النيون المتوهجة، بين رائحة العرق واللحم البشري المتلاصق الذي يتراقص بثمالة على ألحان صاخبة .

بين كل تلك الأقراص المخدرة وحبوب الهلوسة والجعة الرخيصة التي تعبق منها رائحة الشعير المتخمر العطن.

كان يظهر لها فجأة بين أضواء النيون التي تومض دون انقطاع...

ثم يختفي كأنه لم يكن.

فسألته:

- **هل كنت ترتاد تلك الحانة في دبلن؟ آه لا تقل لي أن امثالك يرتادون تلك الأماكن القذرة قصد التسلية؟**

فأجابها دون أن يكذب في أي شي:

- **أجل، كنت أذهب الى هناك رفقة حبيبتي السابقة جوليا، ثم توقفت عن الذهاب الى هناك عندما ماتت بجرعة مخدرات زائدة في حمام الحانة...**

فاتسعت عيناها وقالت بحماس:

- **آه... رباه... كم هذا مثير.**

عضت ايفا شفتيها ثم قالت:

- **بالطبع أذكر تلك الحادثة، سمعت بأنهم عثروا على جثة فتاة في الحمام ومع خليط من المخدرات...**
- **لا بأس تجاوزت الأمر ... كنت أرتاد تلك الحانة وأجلس في زاوية مظلمة مع صاحب حانة ذو هارب يدعى كرايفن بلوود كان أقرب أصدقائي، كنت**

اراك هناك، ورأيتك مرة في زقاق ويلينغتون كواي وتامبل بار، رأيتك مرة تتشاجرين مع فتاة شقراء نحيلة من أجل قرط أذن، أنت تقولين هذا لي والأخرى تقول هذا لي إلى أن جاء رجل وافتك القرط ورماه في المجاري حتى يوقف الشجار، رأيتك مرة في احدى الحفلات تتباهين بالندبة التي على رقبتك وتلقين خطابا مطولا عن البانكرز والمجتمع البائس، ومرة كنت تقطعين أوردتك في دورة المياه...

- **آه رأيت ذلك أيضا... اذن لما لم تقترب؟**

من الأفضل لها ألا تعلم لماذا لم يقترب ألكسندر في تلك اللحظة بالذات، لم يلتقط المشرط من يدها ويرمه في المرحاض، ولم يربت على كتفها ولم يحدثها عن الجانب المشرق الذي ينتظرها في ناحية ما...

تذكر ألكسندر أن تلك اللحظة كانت أصعب لحظات حياته فقد سال لعابه لكنه قاوم وانهال يمتص دماء أول قط مسكين قابله في الزقاق. ثم عاد للقول:

- **نعم كيف لي أن أنسى ايفا غراي.**

فقالت ساخرة:

- **آه، وكيف لي أن أتذكرك وأنا بالكاد أعرفك.**

ثم رجع بذاكرته للحاضر الراهن بعد ان غاب عنه لوهلة وقال:

- **ما الذي جاء بك إلى هنا...**

فأجابت:

- **ميستر كراولي.**

فرسم الصليب على صدره بطريقة ساخرة كانت إيفا قد صدقتها، ثم قال قصد المزاح:

- **إذن ستحل علينا لعنة ذاك الساحر أليستر كراولي... القصر لا يحتاج المزيد من اللعنات.**

وضحك قصد تبريد الموقف.

- **ماذا دهاك انت... ميستر، أو دكتور ثيودور كراولي، هو من أطلعني على إعلان الشغل الذي وضعه اللورد في الصحيفة... لكن حقاً أحب حس الفكاهة الذي لديك... غامض ومظلم مثلك.**

لم يعلم ألكسندر بأمر الإعلان أو نوايا ادوارد ولينور في توظيف شخص آخر في القصر، لكن مجنون عن مثل ادوارد يتوقع منه كل شيء.
لم يقل الكسندر الكثير في تلك الليلة بل اقترب منها وظل يسمع ثرثرتها وذكرياتها في حانة هارب وأصدقائها البانكرز الذين كان الكسندر مثلهم في يوم من الأيام، بتسريحة شعر حليقة وأقراط أذن وكحل حول العينين والأقمصة التي تحمل صور الفرق وشعاراتهم.
لقد كان منهم...
لقد كان مثل ايفا في يوم من الأيام...
لكن الكل يتغير، وها هي ايفا أمامه الآن بالكاد تمكن من تمييزها وها قد صارت من مجرد فتاة تتشاجر من أجل قرط رخيص في زقاق تفوح منه الروائح الكريهة الى جليسة لأخته الصغرى في قصر اللورد فيليب غاردنر...

أما أيفا فما زالت تتحدث...
تثرثر وتثرثر في أشياء لم يتمكن ألكسندر من سماعها بسبب ما كان يجول في ذهنه .
وبحركة لا ارادية رفع يده حول رقبتها حول رقبتها التي تنبض بالحياة....

كان هنا منذ البداية

تحسس شريانها السباتي بينما كانت متسمرة في مكانها ميتة من الخوف وقد طالت أظافره، تشعر ببرودة الموت يلتف حول رقبتها ليلامس تلك الندبة...
قلبه الذي لم يمت بعد، صار يخفق بشدة ليتناغم مع خفقان شريانها السباتي من فرط الهلع ، فقد شعر بنبضها يتزايد بين يديه...
بدأ يقترب ويشم رائحتها كأنه ذئب أنهكه الجوع ... رائحة دمائها البشرية، ذاك السائل الحديدي الصدئ الذي يستطيع شمه على بعد طبقات من اللحم...
وعلى ضوء ذلك المصباح الخافت رأته وقد اتسعت عيناه العسليتان وتحولتا لجمرات متقدة، أحكم تطويق رقبتها النحيلة بأصابعه الغليضة الطويلة، استطالت أنيابه التي حاول غرسها في عنقها، انتصبت كل شعرة في جسمها وفي تلك اللحظة تسألت هل ما تراه هو حقيقي، ام أن التعب قد أنهكها ولحسن حظ ايفا فغريزة النجاة التي أنقذتها عديد المرات من الانتحار لعبت دورها وأنقذتها وبكل قوتها دفعته وصرخت:
- أنت لست... أنت لست آدميا مثلنا... ابتعد عني...
لم يرغب في ايذائها بعد ان امتقع وجهها وبدى عليها الشحوب وشهقت مدوية بتلك الكلمات...
فقال بعد أن عادت كل ملامحه لطبيعتها:
- هل أنت على ما يرام آنسة ايفا غراي؟
نظرت له مجددا فإذ بملامحه عادية، لا توجد أنياب ولا أظافر ولا أعين متوهجة ثم كرر سؤاله بابتسامة بريئة:
- هل أنت على ما يرام؟
وقد نظرت اليه مجددا لكنه كان عاديا، بشريا مثلها يخلو من الغرابة...
- لا ... لا يوجد شيء أنا أتوهم.... أنا متعبة سأخلد الى النوم الآن... طابت ليلتك.
- حسنا طابت ليلتك ميس إيف، أظن أننا سنصير أقرب أصدقاء...
ثم مد يده ليصافحها، تأملت يده، لم تكن هناك أظافر طويلة لكنها كانت يدا باردة:
- يداك... سيد الكسندر يداك باردتان... إن حرارتك منخفضة.
فيسحب يده بسرعة وقال:

- ذلك لأن الطقس بارد... أيضا أعاني فقر الدم مثل أمي ليلة سعيدة، طابت ليلتك ميس إيف إن زارك الأرق في ليلة أخرى فستجديننني له خير صديق، آه ولا تصدقي أي شيء يقوله ذاك المعتوه الأبله ادوارد.

واستداى ليتوارى عن الأنظار في ظلمة بهو القصر...

لحسن حظه أنها لم تقتفي أثره والا لأدركت أنه يحب التحول لوطواط عندما يتجول في القصر...

يوم جديد قد بدأ أخيرا بالكاد تمكنت ايفا من النوم بعد كل الهلاوس التي رأتها. قضت ايفا يومها مع الطفلة أناستازيا التي كانت أشبه بدمية بشرية لطيفة المعشر لكن فيها شيء غريب، لم ترغب في اللعب قرب البركة، لم ترغب في قطف الأزهار، لم ترغب في الجلوس رفقة زينا في المطبخ، لم ترغب في الرقص، ولم ترغب في لعب الغميضة، الليدي لينور وألكسندر نائمان طيلة اليوم، ذهب ادوارد للصلاة في كنيسة القصر صباح اليوم بعدها عاد يلوك غليونه ويتبجح في أرجاء الحديقة ويسلط عديد المهام على آرثر: أغلق باب الكنيسة جيدا، اغسل لي السيارة فأنا مسافر الى دبلن صبيحة غد، تخلص من الأعشاب الطفيلية هناك، لا تنسى جز

العشب، اذهب واقطع بعض الحطب من الغابة، دق تلك المسامير، تفقد الموقد فزينا قالت أنه لا يعمل، نظف المدخنة وأشعل المدفئة، توقف غن الأكل أيها الحقير.

ثم يذهب الى المطبخ حتى يصدع زينا بأوامر مشابهة: الخضار تغسل هكذا ولا تغسل هكذا، لا نطهي الحساء في ذلك القدر، أعدي لنا كعكة خوخ، أو لا اجعليها كعكة شكلاطة، لماذا لم تغسلي الملابس اليوم، افرمي اللحم، اخبزي الخبز، ثم يستدير ليخرج لكنه يجد دلوا مليئا بالماء فيركله ويقول ضاحكا:

- **لم أره... هيا نظفي هذه الفوضى.**

فتترك زينا ما في يدها وتنكب على الأرضية قصد تنظيفها.

ثم يتجه الى غرفة المعيشة أين يجد إيفا مع أناستازيا، يدعي مداعبة طفلته الصغيرة، يبتسم ابتسامة صفراء لايفا، ثم قرر أن يحدثها عن البلدان التي زارها، لابأس ببعض الكذب والتزييف لتاريخ وهمي، فالكذب والتباهي بأشياء وهمية هي لعبة ادوارد المفضلة.

ثم بدأ ينتفض في مكانه من فرط الحماس وهو يقول:

- **أحضرت تلك الستائر القرمزية الحريرية خصيصا من اليابان، إنها مطروزة باليد، لن تجدي مثلها في أي شبر من المملكة المتحدة فهي أصيلة عتيقة صممت خصيصا لي.**

واكتفت ايفا بالابتسامة وهز الرأس، سكت ادوارد قليلا ثم أضاف:

- **أترين تلك اللوحة هناك التي رسم عليها رجل عجوز ذو لحية كثيفة يرتدي قبعة ومعطفا طويلا، أهداها لي أحد نبلاء انجلترا، ابتاعها من ألمانيا بعد فترة من انتهاء الحرب وهي تحمل توقيع الرسام الألماني الانطباعي آرثر كامف.**
- **لم ارى لوحة أصلية من قبل.**

قالت تلك الكلمات حتى تداري عن جهلها لهذا الرسام

ناول إيفا أحد سجائره الخاصة التي يصر على حشوها بنفسه، ابتسم ثانية ثم واصل القول:

- **كل أثاث الغرفة أصلي، هذه الأريكة التي تجلسين عليها هي من طراز لويس الخامس عشر، إنها أصلية أحضرها اللورد فيليب من فرنسا، الأريكة زرقاء في الركن هناك من بلاد الفرس، تلك الأقنعة الخشبية أحضرتها من الكامرون عندما ذهبت في رحلة صيد في عيد ميلادي العشرين، أما ذلك التمثال الذهبي والأسود فهو مجسم لأحد الفراعنة، أحضرته من مصر... أنت محظوظة يا إيفا لأنك ترين كل العالم في غرفة واحدة، فكل قطعة أثاث تروي قصة وتحكي تاريخا.**

أطفأت إيفا السيجارة، واكتفت بالابتسام لأنها أحست بأن هذا التبجح مبالغ فيه.

في الواقع لم يكذب ادوارد في كل ما قاله فقد سافر وهو صادق في هذا بالطبع ان اعتبرنا سفره لغلاسغو أو زيارته لأقاربه هناك نوعا من السفر...

أما بالحديث عن سفره لمصر، فهذا هو الشيء الصحيح لكنه لم يقل الحقيقة بأكملها، سافر الى هناك وهو يظن أنه قادر على القيام بالإصلاحات الاقتصادية التي يقوم بها الخواجة وسيستثمر في مشروع ما، ويقوم بصفقة تجارية يكسب بها سمعة المصلح الانجليزي المرموق، إلا ان ذكائه المحدود في التجارة منعه من التصرف كرجل أعمال لائق، فخسر الصفقة وخسر المال وعاد بنرجيلة غريبة وخادمة سمراء، وتحفة مصرية مقلدة.

حتى جاء ذلك الوقت من المساء.

كالعادة ذهبت زينا لتوقظ ألكسندر من أجل العشاء كما أمرها ادوارد:

- **سيد ألكسندر، استيقظ... الوقت قد صار متأخرا، متى ستتوقف عن السهر كامل الليل والنوم طيلة النهار فالسهر عادة سيئة؟**

لكن ألكسندر لم يجبها.

دنت منه حتى لامس شعرها المجعد وجهه الشاحب الوسيم فقال دون أن يفتح عينيه:

- **لن أستيقظ... أريد أن أنام فأنا لن أخرج الليلة.**
- **لكن اللورد بنفسه يريدك.**

فنهض في فزع، حك عينيه ثم نظر إليها سائلا:

- **لماذا؟**
- **يريدك أن تجلس معه من أجل العشاء، لقد أعددت لك مكرونة بكرات اللحم أعلم إنها المفضلة عندك بالطبع مع الكثير من الثوم، قال ادوارد انه يريد الجميع على طاولة العشاء الليلة، سأحظر لك موسا نظيفا حتى تحلق ذقنك التي بدأت بالنمو، فالشارب له سحر مميز على وجهك، في موطني يعتبرون الشارب أهم ميزة في الرجل.**

- لا أهتم... أنت تعلمين أني لا أهتم.

واستدار على جانبه الآخر ليكمل النوم.

لكنها اقتربت منه أكثر حتى دغدغته بشعرها المجعد ذاك، هامسة بصوت لطيف ولكنة انجليزية عرجاء:

- هيا على الأقل إنهض لترى ماذا يريد، ثم عد إلى النوم، صدقني قد أقسم إن لم تتناول معه العشاء الليلة فأنت تعلم... تعلم غضبه...

- حسنا، سأنهض.

زينا كانت بشوشة طيلة الوقت مع ألكسندر، فهي وحدها تعلم حجم المعاناة التي يعانيها ألكسندر جراء زوج أمه، ذات مرة بعد أن انقلبت حياة ألكسندر على عقب وآل الى ما آل عليه، دخل عليه ادوارد ليوقظه من نومه، ركله شتمه سحبه من السرير وجره على الأرض ثم قال في سخرية:

- أتمنى أن تكون قد استيقظت الآن.

ومنذ تلك الحادثة التي رأتها بأم عينها صارت تشرف على ايقاظه من أجل العشاء.

كان ادوارد في غرفة نومه يوقظ زوجته الليدي لينور من أجل أن موعد العشاء:

- **عزيزتي لينور، زوجتي العزيزة استيقظي إنها الساعة السابعة والربع.**

انحنى عليها وقبلها من جبينها البارد لترمقه بعينيها المتعبتين كأنها تقول أنها متعبة ولا تريد النهوض، لكنه أضاف:

- **أرجوكي عزيزتي، لنتناول العشاء سويا ونقدم بعضا من كرم الضيافة لإيفا التي جاءت منهكة البارحة ولم يتسنى لنا فعل ذلك معها...**

نهضت مبتسمة لتقول له في انشراح يخفف من شحوبها:

- **أنا سعيدة لأننا وجدنا من سيعنى بأناستازيا، أنا متشوقة لمقابلة الفتاة... ماذا قلت لي اسمها؟**
- **إيفا غراي، يجب أن نرحب بها ترحابا لائقا، زينا ستطبخ أشهى المأكولات.**
- **عزيزي أدوارد كم هذا لطف ونبل منك، تصرفاتك هذه تذكرني بوالدي فيليب، -ليغفر الرب ذنوبه- لولاك لكانت حياتي جحيما أنت من أنقذتني من بؤسي، وجعلتني سعيدة بعد موت ريتشارد وموت والدي والمرض الذي بارحني منذ ولادة أناستازيا.**

قبلها مرة أخرى وقال:

- **لا داعي لتذكر كل تلك الأحزان الآن، أنا هنا بجانبك ولن أتركك أبدا، أنا لست زوجك فقط، بل خادمك المطيع ادوارد فقد أحببتك منذ أول يوم دخلت فيه القصر.**

فابتسمت ابتسامة تمسح حزنها وأضافت:

- **أذكر جيدا كيف كنت تنظر لي وعيناك تشعان حبا...**

فقاطعها قصد تفادي تلك التمثيلية الرومانسية المملة وقال بعد أن توجه نحو دولاب الملابس:

- **ما رأيك بهذا الفستان، يبدو في غاية الجمال عليك، الليلة سنتناول العشاء كأسرة سعيدة طبخت لنا زينا المكرونة وحساء البطاطا ودجاجة محمرة...**

هز حاجبيه وقال:

- **هناك محار أيضا وكعكة شكلاطة.**

لكن لينور لم تبالي بكل هذه الأشياء، فأضاف:

- **أريدك أن تأكلي، فطعامك قد صار قليلا في الآونة الأخيرة، وفقر الدم زادك شحوبا، إن زرت طبيبا لكان حالك أفضل...**

فقالت لينور قصد تغيير الموضوع:

- **ادوارد من فضلك لا تعكر مزاجي بهذا الموضوع....**

فغير الموضوع فهو يعرف أنها تكره التحدث عن مرضها غير المشخص لكن بالطبع ادوارد يصر على أنه فقر دم لازمها من منذ ولادة أناستازيا بعد ذاك النزيف الحاد الذي أصابها عند الولادة:

- **أتمنى أن يحسن ألكسندر التصرف أمام إيفا ولا يفسد الأمر فقد كاد أن يفسده البارحة.**
- **لا تقلق إنه يقدر الغرباء، خاصة الضيوف -الإناث منهم- فرغم تشنجه في السنوات الأخيرة إلا أنه لا يزال يتمتع بلباقة النبلاء ويحسن التصرف مع النساء تماما مثل والده...**

فقطب حاجبيه وقال ممتعضا:

- **هيا استعدي سأكون في انتظارك في الأسفل ريثما تعد زينا كل شيء.**

وأضاف قبل أن يغلق الباب:

- **أتمنى أن تضعي أحمر الشفاه الذي احبه، ذلك سيخفف من شحوب وجهك.**

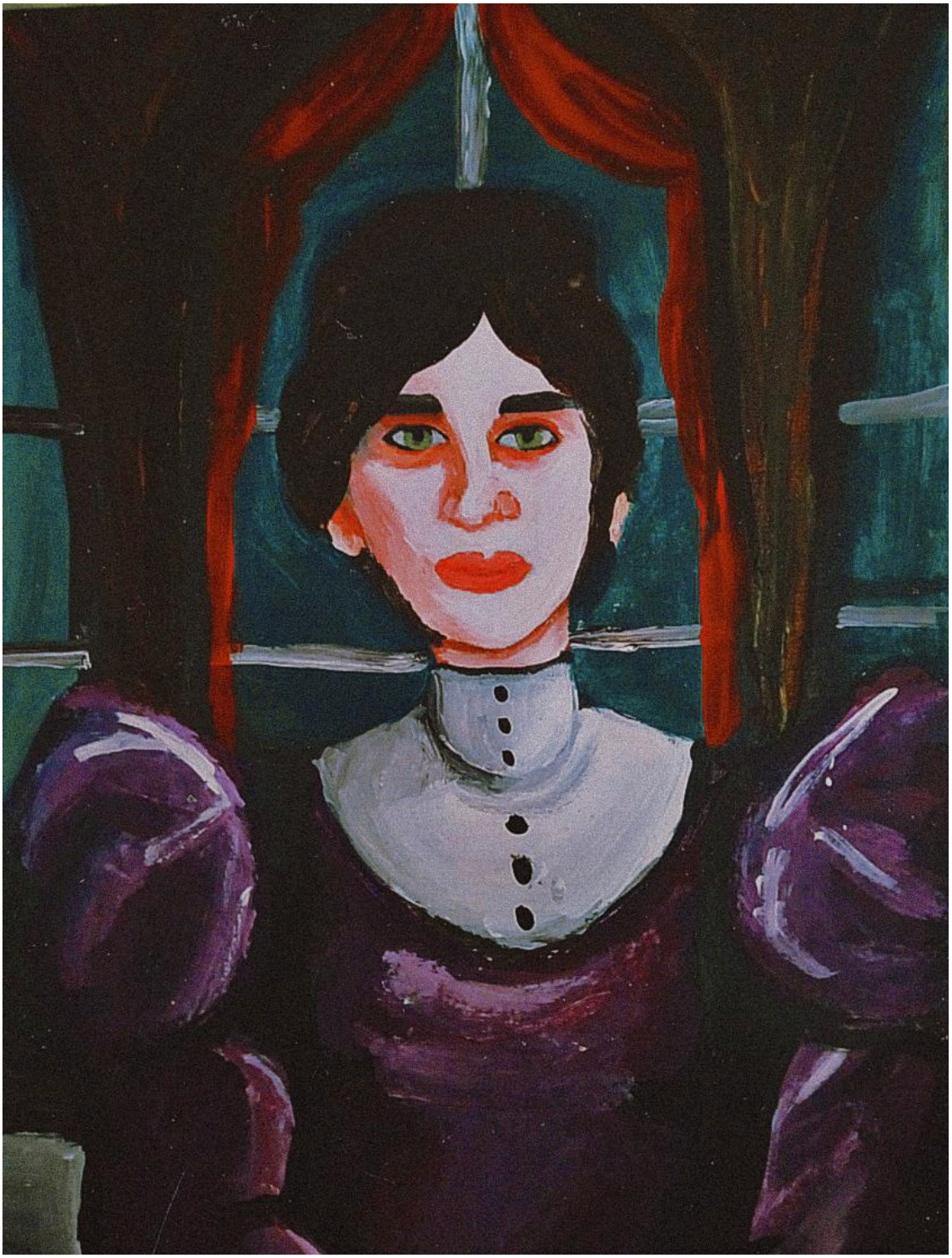

كان هنا منذ البداية

نهض ألكسندر بعد محاولات زينا المعتادة، حاول أن يرتدي ملابسا عادية حتى يبدو آدميا بما فيه الكفاية أمام ايفا الذي صار محل شك لها بعد ما رأته البارحة.
طوق اللورد به الجميع على وليمة ليلعب دور رب العائلة المثالي أمام إيفا، عرفها بسيدة القصر الليدي لينور التي أخيرا خرجت من غرفتها وتواضعت وقررت أن تتقاسم الطاولة مع ادوارد وتجلس قبالته وجها لوجه وقد أحست إيفا بشيء من الغرابة في ذلك، لينور وألكسندر ينامان طيلة الوقت، لينور وألكسندر شاحبان شحوب الأموات... هل الحالة التي رأت عليها ألكسندر ليلة البارحة عندما زارها في غرفتها حقيقية أم هي مجرد تخيلات... بالطبع لا وجود لمصاصي الدماء على أرض الواقع... هما فقط شاحبان بسبب فقر الدم الذي ذكر ألكسندر شيئا عنه ليس إلا.
أجلست إيفا أناستازيا بجانبها وأخذت تداعب خصلات شعرها الذهبية، حيّت ألكسندر الجالس قبالتها وقالت بابتسامة عريضة:

- **أختك ملاك حقيقي، لقد صرنا أصدقاءا بسرعة فائقة، وقضينا يوما ممتعا معا ولعبنا في الشرفة، شرح لي اللورد ادوارد ما علي فعله وأنّاستازيا سهلت علي الأمور فهي ذكية ولطيفة للغاية جميلة عيناها الزرقاوان تشعان براءة.**

يعلم ألكسندر أن ايفا قالت ذلك قصد المجاملة، كما أنه يعلم أن عيني أناستازيا لا تشعان براءة فهو مدرك أن خطبا ما قد ألم بتلك الرضيعة المسكينة منذ ولادتها، سكت لوهلة وعادت به الذاكرة ليوم مشؤوم آخر يوم ولادة أناستازيا.
بذرة الشر، نذير الشئم، الشيطان الآدمي.
ليلة ولادة أناستازيا، كانت ليلة مخاض عن حق...
ثلوج ورعود وعواصف ثلجية كأنها تنذر بكارثة ما.
برد أواخر ديسمبر السقيم الذي تخللته بقايا الاحتفال بأجواء عيد الميلاد، يومان يفصلاننا على سنة ميلادية جديدة، سنة *1976*.
كانت الساعة الحائطية تشير الى ساعة ما بعد منتصف الليل...
حيث استفاق الجميع على وقع صرخات لينور التي شاءت لها الأقدار أن تضع مولودها في تلك الساعة المتأخرة.

قطعت الكهرباء منذ أيام، حتى المولد لا يعمل.
لماذا تنقطع الكهرباء في أحلك اللحظات، لماذا يكون الطقس في أسوا حالاته في مواقف كهذه، بالطبع ألكسندر يعرف إنها اللعنة.
وبفوانيس الكيروسين تلك تسارع نحوها ألكسندر واللورد فيليب بينما كان ادوارد بجانبها منتظرا أسعد لحظات حياته فولي عهده على وشك القدوم.
لم يكن هنالك خدم فقد طرد ادوارد جميع الخدم وأحضر بدلا منهم خادما وفيا من ريف اسكتلندا يدعى آرثر وبالطبع لا فائدة ترجى منه في حالات كهذه.
ساءت حالة لينور اشتد بها المخاض، تقطعت أنفاسها وتصاعدت صرخاتها لمتلأ أرجاء القصر، لينور تترنح، لينور تصرخ من فرط الألم وهي تتصبب عرقا، والدها فيليب يصيح:

- **يجب أن أذهب لإحضار طبيب ما في أقرب وقت فابنتي تحتضر.**

وادوارد يقول من هناك:

- **سأحضر لها بعض الماء الساخن ثم نذهب معا لإحضار الطبيب.**
- **لا ابقى مع زوجتك سأذهب بمفردي.**
- **لا لن أتركك بمفردك فالطقس سيء، سيبقى ألكسندر رفقة لينور بينما نذهب نحن. وإن حصل شيء ما فلينادي على آرثر.**

ثم خرجا.

لم يهدأ الجو بالخارج، كانت السماء تمطر كلابا وقططا مثلما نقول.
وجد ألكسندر نفسه أمام أمه المحتضرة وقدر الماء الساخن، لقد كان موقفا لا يحسد عليه، طالما أحس أن حياته في القصر شبه بدائية وهذا خير دليل، فقط لو كانوا في المدينة لاصطحابها لأقرب مستشفى.
آه لو كان هنالك مجرد هاتف.

كان هنا منذ البداية

ما أضعف المرء حين تتعلق حياته بأشياء بسيطة كهذه...
ثم سمع لينور تصرخ مجددا، انحنى نحوها أمسك يدها وقال:

- **هيا... ادفعي ... حاولي من جديد.**
- **لا استطيع... أنا لا....**

لينور تنز و تفقد الكثير من الدماء... يضعف نبضها.
في تلك اللحظة لم يبدي ألكسندر تعطشه للدماء البشرية الدافئة، نسي أنه مصاص دماء وكل ما فكر فيه في تلك اللحظة هو سلامة والدته.

- **ليس لي في العالم سواك... أمي... ادفعي من جديد... أقوى... من جديد....**

ثم صرخت كأنها تتنفس الصعداء لقد فعلتها أخيرا.
سحب ألكسندر تلك العجينة البشرية الملطخة بالدماء ومسحها بالمنشفة المبللة بالماء الساخن بعد أن قطع الحبل السري، في الواقع لم يعرف ما حاجته لذلك الماء الساخن فلم يستعمله، تأمل المولود مليا وقال للينور:

- **إنها فتاة يا امي...**

لينور تتحشرج محاولة أن تقول كلماتها الأخيرة لكنها تستسلم، وضع ألكسندر الرضيعة جانبا وأخذ يصرخ:

- **أمي استفيقي، امي ارجوكي لا تموتي سيعود جدي وادوارد رفقة الطبيب.**

لقد نزفت بشدة حتى كادت تفارق الحياة.
لم يتمكن ألكسندر من إيقاف النزيف وإنقاذ حياة والدته المحتضرة الغارقة في بركة من الدماء.
شعره منكوش، ملابسه ملطخة بدمائها.
لينور...
لينور....
ولم يبقى أمامه سوى خيار واحد فهو لا يريد لأخته الصغرى أن تكبر يتيمة الأم بين أحضان معتوه كادوارد.
ودون أن يفكر مرتين أخذ ذلك السكين الذي قطع به الحبل السري وجرح معصمه ووضعه على شفتي والدته وأخذ يردد:

- **هيا لا تموتي... فقط اشربي بعض القطرات...**

وبصعوبة فتحت البائسة المسكينة عيناها من جديد وتدفقت الحياة في جسدها وعاد قلبها يخفق بانتظام.

نظرت له وقد سالت دمعة من عينها فمسحها بيده الملطخة بالدماء وجلس منهارا جانب أمه وقال باكيا:

- **لن أدعك تموتين فأنت كل شيء بالنسبة لي، لن أدعك تموتين حتى ان كلفني الأمر أن أحولك ل....**

ثم اجهش بالبكاء

لم تمضي ربع ساعة من الزمن حتى عاد ادوارد وحده صارخا تملأه الفرحة:

- **آه لقد وضعت لينورا مولودها أخيرا...**

فصرخ ألكسندر:

- **قف مكانك لماذا عدت بهذه السرعة، أين جدي ؟**
- **آه يا ألكسندر لو تمكنت من رؤية الطريق، لقد كانت مثلجة لم نتمكن من الذهاب...**
- **اذن أين جدي؟**
- **صدقني يا ألكسندر هو من طلب مني العودة للقصر وقال إنه سيخاطر من أجل اجتياز الطريق التي كستها الثلوج بمفرده ولن يعود إلا ومعه طبيب.**
- **سحقا لك، لماذا تركت رجلا مسنا يقود سيارته في طقس كهذا...**

لكن ادوارد لم يهتم ونط نحو الرضيعة المسكينة يتأملها وهي ترقد بسلام:

- **انها فتاة... ماذا سنسميها... دوروثي... أو كونيتانس... أو...**

لكن لينور فتحت عينيها وقالت بصوت أشبه بمعدوم:

- **أناستازيا... اسمها أناستازيا ، لأني نجوت من موت محتوم وبعثت من جديد.**

اسم أناستازيا يوناني الأصل ويعني البعث *resurrection* وقد ظهر في أوائل انتشار الديانة المسيحية وكان يطلق على الفتيات اللاتي يولدن في ديسمبر أو في عيد القيامة.

أيقنت لينور أنها قد بعثت من جديد على يد ابنها ألكسندر ، حياتها لن تعود كما كانت فقد علمت العلة التي أصابتها...
لقد تحولت لمصاص دماء.
لعنة أخرى تدخل القصر.
- أين اللورد فيليب؟
كان الجميع يتساءل .
لقد اختفى ذلك العجوز المسكين عند ذهابه لإحضار طبيب...
وكالعادة انقضت أيام معدودة والشرطة تفتش عن اللورد فيليب.
كادت اليدي لينور تفقد صوابها بسبب اختفاء والدها واصلت الشرطة البحث في كل شبر من الغابة، أدلى ادوارد بأقواله كالمعتاد وبرودة الدم تملأ تقاسيم وجهه.
في النهاية عثرت الشرطة على سيارة اللورد فيليب مركونة في الغابة مع بقع دماء وورقة كتبت بخط اللورد فيليب مع توقيعه:
- حان وقت رحيلي الآن، جاءت ساعة الخلاص، أنا ذاهب بلا رجعة... وداعا.
- لكن ما تفسير بقع الدم تلك؟
تساءل ألكسندر الذي لم يصدق حرفا من الذي سمعه، وقد أقر رجال الشرطة أن العجوز انتحر وقد نهشت ذئاب الغابة جثته.
اين بقايا الجثة وأين سلاح الجريمة ولماذا فعل اللورد فيليب ذلك عند ولادة أناستازيا؟
أسئلة لم يتمكن ألكسندر من الإجابة عنها لكنه يعرف من هو الفاعل.
ادوارد قد قتل فيليب مثلما قتل ريتشارد من قبل وسيفعل ألكسندر المستحيل حتى يبرهن ذلك.
حزنت لينور على ما ألم بوالدها، إلا أنها لم تصدق ألكسندر في ما كان يهذب به من خزعبلات .
فهي ترى ادوارد كما لا يراه الآخرون، نعم هي تحبه فهو الذي أخرجها من بؤسها عند وفاة زوجها، هو الذي أدخل البهجة لحياتها رغم كل المشاكل التي مرت بها...
فقط ألكسندر وحده هو الذي يعلم أن أخته أناستازيا أحد تلك اللعنات...

كان هنا منذ البداية

إنها نذير شئم.
فجأة استفاق ألكسندر من شروده على صوت ايفا التي تتاديه:
- ألا تسمعني... أنا أحدثك عن أختك... قلت انها ملاك آدمي
ابتسم الكسندر واكتفى بهز رأسه أن نعم.

كان هنا منذ البداية

نظر ألكسندر لوالدته لينور التي يبدو عليها ذاك الشحوب الباهت كالعادة، لم تنبس بكلمة فهي عديمة الكلام، أو قليلة الكلام إن لم نرد المبالغة، شحوبها ليس شحوب امرأة أربعينية، بل شعرها مازال أسودا لامعا مشدودا بطريقة كلاسيكية وعيناها الخضراوان فقدا بريقهما لكنهما سيأسرانك إن حملقت فيهما، ليس بسبب الفتون، بل بسبب الحزن الساكن داخلهما، وبشرتها الباهتة تصير أكثر بهتة وشحوبا إن لم يتدبر ألكسندر الأمور، تغيرت لينور كثيرا منذ أن أنجبت أناستازيا فقد كان ذاك اليوم منحوسا على الجميع، إلا على ادوارد بالطبع فقد كان يوم حظه.
كانت ايتيكيت الطاولة محسنة التنظيم مثلما شهدتها إيفا البارحة، وكالعادة زينا تقف على جانب الطاولة في انتظار أن تخدم أحدهم.
كم من السيء أن تظل واقفا تنتظر الآخرين حتى يفرغوا من طعامهم، لكي تتمكن أنت من أن تأكل لقمة بائسة بعد ذلك.
وهذا ما كانت تحس به زينا طيلة الوقت.
وهذا ما كان يشعر به ادوارد عندما كان كبير الخدم في هذا القصر.
كل تلك الاهانات التي تعرض لها ادوارد عندما كان يعمل بالقصر جعلته يحمل ضغينة على الجميع، كرها مقيتا على طبقة الأثرياء الأرستقراطية.
هم من حصدوا كل شيء ولم يتركوا لأمثاله سوى الفتات.

استمتعت ايفا بالعشاء والصورة العائلية المثالية التي نجح الجميع في رسمها، احضرت زينة التحلية وختاما لهذه الوليمة قال ادوارد:

- **والآن يا إيفا بعد أن تعرفت على جميع أفراد القصر، أتمنى أن تقضي أياما مؤنسة برفقتهم لأني سأتغيب عن القصر لأيام، فأنا مسافر لدبلن من أجل العمل، فلدي مصالح عديدة هناك... قد أغيب أسبوعا أو أكثر، قد أغيب لبضعة أيام... مرة أخرى أتمنى لك اقامة سعيدة هنا، ليلة سعيدة آنسة إيفا فغدا يوم لدي يوم حافل.**

ودون ان يترك المجال لأي أحد بالرد أو الاعتراض، مسح فمه بالمنديل ونهض متوجها نحو غرفة نومه.

5

إن أردت أن تبدأ حياة جديدة، يجب أن تهجر الماضي كأنه لم يكن ولم يحدث، أن تهجر أعزائك، أحبتك، أراضيك، وأن تذهب لمكان جديد أين لا أحد يعرف اسمك، وخاصة لا يعرف ماضيك...
أن ترحل دون ترك أي أثر ورائك كأنك لم تخلق.
أنت لست من عائلة فقيرة أبوك ليس مزارعا، وامك لم تمت منذ سنوات.
أبوك لم يتزوج ولم ينجب أربعة أطفال آخرين ليزداد الوضع فقرا سوءا.
أنت لست شبه أمي
أبوك لم ينفرك ولم يحبذ أبناءه الآخرين عنك.
أنت لم تعمل في الحقول يوما.
أنت لم تزرع البطاطا وتأكلها على العشاء كل ليلة.
أنت لم تغادر اسكتلندا من أجل أن تعمل كخادم في قصر اللورد فيليب غاردنر كل ذلك وهم.
لا بل كابوس.
اما حياتك الحقيقية فقد بدأت الآن.
هذا ما كان يقوله ادوارد ماكغريغور في نفسك كلما تذكر قسوة ماضيه والسنين التي انقضت من عمره وهو يخدم اللورد فيليب، وبعد أن لقب نفسه باللورد ادوارد ماكغريغور لم تعد طموحاته مقرونة بذلك القصر المنكوب، بل توجه نحو العاصمة دبلن.
هناك صار لديه أصدقاء من طبقة راقية ينادونه بـ اللورد ايدوارد ماكغريغور دون اي تهكم أو استخفاف.

هناك يحييه الجميع بهزة الرأس والابتسامة المتوددة وأين يهمس الجميع انه صهر اللورد فيليب غاردنر ووريث كل تلك الثروات.

هناك تقول له النسوة أنه وسيم وفاحش الثراء، بينما يحسده الرجال على زواجه من أرقى وأجمل نساء البلاد.

فقط لو كان الرجال يلبسون القبعات لرفعوها تحية له.

فقط في دبلن تمكن من لعب دور النبيل ببراعة، فقد كان يجلس مع كبار الأعيان والتجار الأثرياء والحسناوات والسياسيين والراقصات المغريات والمغنيات والممثلات...

هذا فلان صاحب مصنع كذا وكذا...

هذه فلانة قد مثلت في تلك المسرحية التي لاقت استحسان الجميع...

هذا الطبيب اعز اصدقائي...

هذه المرأة الثرية معجبة بي...

معهم يتباهى بتاريخ وهمي كالعادة، والبلدان التي زارها والمشاريع التي أقامها في البلدان النامي، وعن نيته في شراء مصنع ما، أو شركة مقاولات عقارية، أو بعث مشروع لاصطياد السمك في آيسلندا أو النرويج.

هناك صار لدى إدوارد ماكغريغور صديق مقرب تعرف عليه في عشاء عند أحد السيدات وبالطبع صديقه هو طبيب نفسي متحذلق مثله، اسمه الدكتور ثيودور كراولي، في منتصف عقده الرابع، غير متزوج وليس لديه أطفال، كرس حياته للعلم والطب النفسي.

ولكي تكتمل صورة الارستقراطي، صار لدى ادوارد عشيقة غير لينور، اسمها الأصلي هو ايما كارتر، واسمها الفني دايزي ديفاين، راقصة البيرلسك *burlesque* عشرينية في أوج شهرتها.

إن كانت لينور شعرها أسود... فدايزي شقراء.

إن كانت الليدي لينور أربعينية فدايزي عشرينية.

إن كانت الأولى شاحبة، فالثانية تنبض بالحياة.

إن كانت عائلة لينور أرستقراطية مرموقة، فالأخرى متواضعة.

إن كانت لينور تعيش في قصر، فقد طردت دايزي من المنزل عندما امتهنت الرقص.

كان هنا منذ البداية

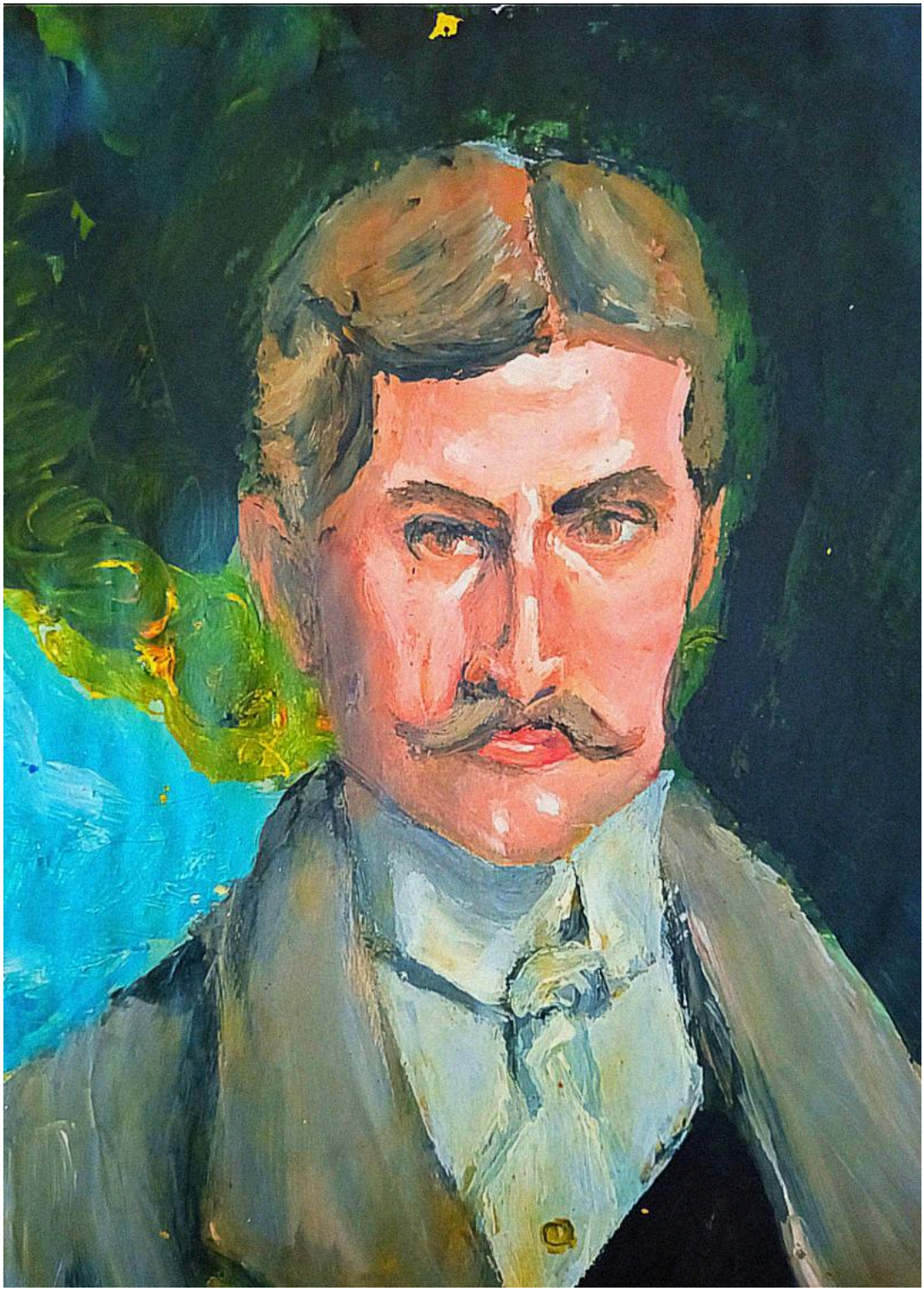

كان ادوارد يحتضن دايزي بينما يحدثها عن عقد الألماس الذي سيهديه لها، أو خاتم الياقوت المتوهج الذي أعجبها يوم خرجا سويا في موعد غرامي.

كان هنا منذ البداية

وقد راقت لدايزي صحبة هذا اللورد الذي أغرقها في الهدايا التي كانت تتباهى بها أمام صديقاتها، وببريق طفلة عشرينية لمع نجمها في سماء إيرلندا أيقنت أن اللورد إدوارد هو الرجل المناسب لها حتى وإن كان يكبرها بثلاثة عقود فكل الفتيات يتزوجن رجالا أكبر منهن، حتى وإن كان متزوجا من أخرى، فكل الرجال يطلقون ويتزوجون ثانية وثالثة...

امتلك ادوارد شقة في شارع دالكي *dalkey* أين يسكن نخبة المجتمع الأثرياء، شقته هناك كانت فخمة بطراز عصري بالطبع الهاتف موجود، التلفاز موجود، كاميرا البولارويد موجودة، وكاميرا تسجيل الفيديوهات ال*vhs* موجودة ، مشغل اسطوانات عصري، لا توجد لوحات زيتية مقلدة والأفضل من ذلك كله لا توجد صورة ريتشار والد ألكسندر أو فيليب غاردنر، قطته الجميلة الفاتنة المدللة مستلقية على الفراش تعرت من كل شيء إلا معطف الفرو الذي أهداه إياها حديثا حتى تكتمل صورة المليونير العصري، ليس هو من وضع تلك القوانين، بل هذا ما تتطلبه حياة المدينة الحياة العصرية، حياة التكنولوجيا حياة التمدن والحضارة التي كان يتوق لها.

كان يمشي في شوارع المدينة أين تتهاطل عليه الابتسامة وعبارات صباح الخير سيدي والتي يقولها الايرلنديون بلكنتهم السريعة أتمنى لك يوما سعيدا يبتسمون ثم يعبرون.

كم كان ذلك يشعره بالارتياح، فالناس يقدرون مكانته في المجتمع ولا يمقتونه مثلما يفعل الكسندر، حتى الجميلات يغازلنه يفرقن القبل والإبتسامات له عكس زوجته التي صار يراها قبيحة كأبالسة جهنم، أو ساحرات القصص الخرافية، تلك الشاحبة التي تبدو ميتة جسديا لكن تشريحيا قلبها مازال ينبض وهذا لا يسر ايدوارد.

- **ليتها ماتت عندما وضعت أناستازيا.**

تجول بخاطره تلك الأفكار، ليا زوجته، وهو يعلم أنها ستموت عن قريب ولم يعد أمامه سوى الخطوة الأخيرة. ثم أخرج تنهيدة طويلة من أعماق صدره، فلينور هي العقبة الوحيدة التي تقف أمام استيلائه على كل شيء.

بعدها سيتزوج من دايزي ديفاين ويبيع القصر ثم يبدأ حياة جديدة في دبلن.

كانت أضواء المدينة تتلألأ، المدينة حية مفعمة بالحركة والطاقة والأنوار، عاشقين يمران بجانبه ويتبالان القبل.

كان هنا منذ البداية

الشباب مقبل على الحفلات الراقصة وقاعات السينما، سمع بعضهم يتحدثون عن فيلم امريكي اسمه "غريس" *Grease* من بطولة جون ترافولتا وساندي نيوتن، وقد اصطف الجميع أمام شباك التذاكر من أجله.

أما اللورد ادوارد فقد كان على موعد مع شيء مميز من نوع خاص، لم يكن بفلم ولا بمسرحية....بل دايزي ديفاين سترقص على الركح.

تمعن الملصق الكبير الذي علق أمام قاعة المسرح، وقد شعت عيناه فرحا وقال في غبطة:

- الليلة أيضا... سيكون عرضا ممتعا كالعادة...

ثم استدار وهو يدندن أغنية ريفية ما ويتحرق شوقا كالطفل الصغير.

كان هنا منذ البداية

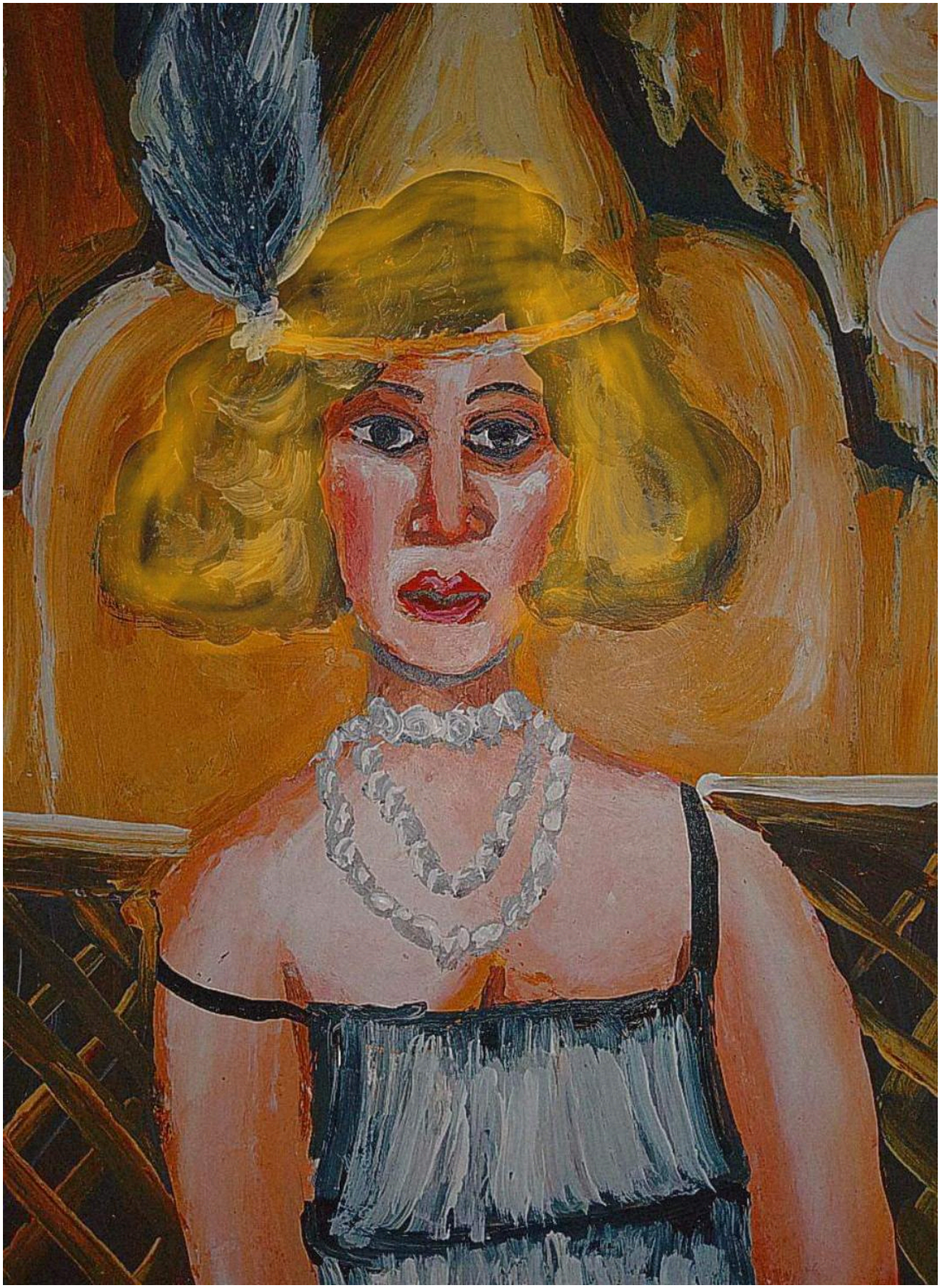

كان هنا منذ البداية

وبالفعل لم تخيب السهرة المنتظرة توقعات ادوارد على الاطلاق.
تجملت دايزي كأنها نجمة أفلام أبيض وأسود
بملابسها المبهرجة وزينتها اللامعة، راحت ترقص حتى سرقت كل أنظار المتفرجين، كانت الأفضل والأجمل بدون منازع.
ثم تنهي العرض بتلك الابتسامة العريضة والقبلة التي ترميها في الهواء.
كان إدوارد يعرف أن تلك القبلة له.

في مساء اليوم التالي كان اللورد إدوارد جالسا في شقته في دبلن ينعم ببذخ ورفاه الحياة العصرية مع صديقه المفضل، إن شئنا القول أعز أصدقائه، صديق سمج خبيث مثله لن يهتم بهراء وترهات وأكاذيب ادوارد وثرثرته الخالية من الأهمية، صديق يجب أن يكون مرموقا اجتماعيا مثقفا وخاصة ثري، ولن يجد شخصا بهذه الصفات غير الدكتور ثيودور كراولي.
عشيتها، كانا يحتسيان الشاي ويدخنان، على الطاولة كان هناك بعض الجرائد القديمة منها والجديدة، وكتاب فرويد الذي يحمل عنوان الطوطم والتابو وبجانبه نظارات الدكتور كراولي الذي كان يتصفح الكتاب تارة ويقلب قنوات التلفاز من قناة لأخرى.
بجانبه على الأريكة الأخرى كان ادوارد جالسا يتمتم في شرود:

- **آه... لو رأيتها البارحة كيف ترقص على خشبة المسرح بثيابها البراقة المشعة التي خطفت قلب كل رجل وامرأة في القاعة على حد السواء، ليتك كنت هناك...**

تنهد إدوارد في حسرة وأضاف:

- **تتحرك على الركح كزهرة تطفو على مياه عذبة، بكل ليونة، خفة واغراء، كل الرجال قد سال لعابهم واتسعت أعينهم بينما كانت زهرتي دايزي ديفاين تؤدي أحد رقصاتها المحببة لدى الجمهور، تلك الجميلة التي يتمناها كل رجال ايرلندا وانجلترا اختارتني أنا.**

لم يهتم الدكتور ثيودور كراولي لذلك الخطاب الدرامي الشاعري لأن الحب يفقد شاعريته عندما يعيشه المرء، أجمل شيء في الحب هي تلك اللحظات التي سرقناها ولن تتكرر أو تلك اللحظات التي تخيلناها لكنها لم تتحقق... أما الباقي فكله تفاهات، الانسان يحب أن ينحب الماضي، أن يتحسر على نشواته وسعادته بدلا من أن يغتنم الفرصة ويبحث عن لذة أخرى وهذا ما كان يفعله ادوارد كامل الوقت يقضي أيامه في انتظار مقابلة قطته دايزي وبعد تلك المقابلة يقضي بقية الأيام يبكي على أمل أن يتجدد اللقاء.

واصل ادوارد الحديث بشغف كأنه مراهق حالم مما أجبر الدكتور كراولي على الكلام:

- **آه يا عزيزي ادوارد دائما ما تبالغ في وصفك للأشياء، في عصرنا هذا الجمال وحده صار لا يكفي... حسنا دعنا نقل أن معظم النساء جميلات يكفي أن يضعن أطنانا من مساحيق التجميل وغالونات من العطور وارتداء آخر صيحات الموضة حتى الليدي أغاثا صديقتنا تلك تصير جميلة... وأنا كما تعرفني أمقت ذاك الجمال المصطنع...**

أخذ الدكتور ثيودور كراولي نفسا طويلا من سيجارته ثم واصل الحديث:

- **لو ذهبت معي للحفلة التي أقامتها الليدي أغاثا في منزلها لتعرفت على عشرات الحسناوات، الشقراوات والسمر...**
- **على مهلك يا رجل أنت تعرف أني لا أحب تلك المرأة حتى وإن كانت ثرية... سنها قد تجاوز الأربعين بكثير مازالت تصر على أن تلبس اللون الوردي والأصفر الفاقع وتزين شعرها البرتقالي بشرائط كأنها فتاة عشرينية... لن أثق بامرأة ترتدي أصفرا فاقعا وتجوب به كل شوارع ايرلندا في ثقة تامة...**

أصدر ثيودور ضحكة عالية ثم أضاف مؤكدا على ما قاله ادوارد:

- **صحيح... فالليدي أغاثا ستفعل كل شي حتى تبدو أصغر من ابنتها لغاية أن تجد زوجا جديدا لها ثالثا أو رابعا.**

ثم انفجرا ضاحكين...

بعدها أضاف الدكتور كراولي:

- **لما لا تذهب معي لحفلة اوبيرا ستقابل عديد الشابات هناك، على الأقل شابات يلقن بك أكثر من تلك الراقصة التي جبت كل شوارع دبلن معها، فسمعتها سيئة وعلى كل لسان، كما صارت سمعتك في الآونة الأخيرة، ألم تسأل نفسك لماذا تجاهلك صاحب مصنع العطور في ذاك العشاء، لأنه كان يعلم فسمعتك وقصتك مع دايزي تلك صارت على كل لسان كلهم يعلمون أنك متزوج من ابنة اللورد فيليب وتخونها مع راقصة... يا رجل لقد صارت سمعة دايزي كسمعة مارلين مونرو في الولايات المتحدة يحبها الجميع لكن يعلمون حقيقتها ومن تكون وهذا لا يليق بك، لا أريد أن أسمع نميمة من هذا النوع على صديقي المقرب ادوارد...**

امتعض اللورد ادوارد من كلام صديقه الدكتور كراولي فقال في سخرية قصد رد الاهانة التي تلقاها للتو:

- **ماذا عنك أيها الطبيب المحترم... لماذا لا تتزوج الليدي اغاثا وتصبح زوجها الخامس أو حتى العاشر، على الأقل ملابسها الملونة الفاقعة وأحمر شفاهها الشبيه بصلصة الكاتشب أفضل من الوحدة بكثير، رجل في سنة وقيمتك ومكانتك بدون زوجة أو أطفال... ذلك مخزي.**

فور إنهائه تلك العبارة ضربه بالوسادة وواصل الضحك.

حاول الدكتور كراولي أن يتمالك أعصابه حتى لا يفسد علاقاته العملية بصديقه ثقيل الدم هذا، لكن المصلحة تأتي قبل كل شيء وهو لا يريد أن يفسد تلك الصفقات التي بينهما، فهو طبيب نفسي تعود أن يسمع دون أن يعلق، خال من المشاعر يجب أن يكون مجردا من مشاعره الآدمية كأنه آلة، لا يحب، لا يكره، لا يتعاطف مع مرضاه حتى لا يصاب بالجنون، ربما كان قد تعاطف مع ايفا غراي وأرسلها للعمل عند صديقه هذا، لكن مع ايفا كل شيء يختلف، هي الاستثناء الوحيد في حياته...

ابتلع الدكتور كراولي ريقه وقال ببرود مفتعل فوجهه المحمر يفسر كل شيء:

- **بالطبع أنت لا تعيش في دبلن عزيزي ادوارد، وبالطبع أنا لا ألومك فأنت لا تسمع ما يهمس به الآخرون في المقاهي، في البارات، حتى في ملعب الغولف، علاقتك مع دايزي صارت على كل لسان، حتى وإن كان جمالها**

يستحق كل هذه التضحيات... حتما ستصل هذه الحكايات للينور عن قريب وأنت لم تفعل أي شيء بعد...

- **هراء... غيرة... حسد ولينور لن تسمع لأن كل شيء سينتهي عن قريب.**
- **لنأمل ذلك.**

غالبا ما تنتهي دايزي ديفاين عرضها بعد منتصف الليل بعدها تقبل المعجبين الذين يهنؤونها بباقات الأزهار، أفخم العطور ، أثمن الهدايا...
في غضون كل ذلك ينتظرها اللورد إدوارد حتى يرافقها لمنزلها كما يفعل بعد كل عرض .
كان ذوق دايزي في الأثاث كذوق أغلب راقصات البيرلسك، جدران بألوان مختلفة أحدها قرمزية وفيروزية، في كل ركن من أركان المنزل أشياء تلمع تحف و تماثيل وأقنعة وريش وأزهار متناثرة هنا وهناك .
صورة لماريلين مونرو، وصورة لبيتي بايج، ولوحة لآندي وارهول.

كان هنا منذ البداية

أريكة من الطراز العتيق، رفوف منقوشة عليها مجموعة من دمى بيتي بوب *Betty boop*، وبالطبع بوستارات دايزي ديفاين فقد ملأت كل جدران المنزل.
صورة فوتوغرافية لها وهي ترقص.
واخرى وهي على المسرح.
وأخرى مع وزير ما...
أخرى وهي في صالون التجميل....

غرفة نومها ميزتها تلك الرائحة التي تستقبلك ممتزجة من عبق ورود المعجبين وأعوات العنبر والعطور الأنثوية ك ديور و شانيل .
خزانة الروكاي التي علقت فيها ملابس النوم الحريرية لم تغلق أبوابها من فرط الملابس المحشوة بداخلها.
قبعات مرمية باهمال على كرسي متروك.
لم تكن غرفة مرتبة، بل كان كل شيء مبعثر لكن بشكل جميل مبعثر كروح دايزي التي تحاول تجميل شكلها الخارجي دون أن تكشف عن شتاتها وشظايا نفسها التي لم يراها أي أحد غير إدوارد.
رآها في غرفة نومها وهي تبكي بعد أحد العروض.
رآها عندما فقدت القدرة على تحمل كل شيء...
رآها وشلالات الكحل الأسود ينهمر من عينيها.
حدثته عن مدى اشتياقه لعائلتها التي لن تقبلها مجددا.
وقف أمامها ومسح دموعها وقال:" كل منا له ماض مظلم لذا لن أتخلى عنك."
دايزي كانت كالزهرة المتفتحة المحبة للحياة بكل ألوانها فتاة في مقتبل العمر لن تلبس الأسود، ولن أحزن على أي شيء صار... عكس لينور.
فالحياة دائما وردية طالما ادوارد بجانبها في اللهو والمرح والسهرات الخمرية الممتعة، وأيضا وراء الكواليس...
وجد فيها كل ما حرمته منه الشاحبة لينور
فدايزي تلبس له الملابس القصيرة المغرية عكس لينور ذو الاثواب المخملية طويلة الاكمام

دايزي ترقص، دايزي تبتسم، دايزي تحب الحياة والالوان.
في تلك الليلة تحديد، لم تجري الأمور كالمعتاد فقد احتد النقاش بين ادوارد ودايزي التي سألته بينما كانت تسرح شعرها الأشقر المموج:

- **قلت أن كل شيء سينتهي عن قريب ولكن متى، أنت لم تفاتحها في موضوع الطلاق حتى؟**

فأجابها إدوارد الذي كان مستلقيا قبالتها على أحد الأرائك الملونة يلك في فمه لفافة تبغه المعتادة ويشرب شايا بنكهة الفراولة:

- **اجل سينتهي كل شي عن قريب.**
- **هذا ما تقوله منذ أشهر....**

وبدأت بالتذمر كالمعتاد.
لكن ادوارد اكتفى بالتحديق بالسقف، فهو لم يأتي الى هنا قصد الشجار... بل لترويق المزاج، لكنها واصلت الحديث بجدية وهي ترتدي ثوب نومها الوردي المزين بالريش:

- **اذا هل سنستعد للزواج عن قريب؟**
- **أي زواج الآن؟ هذه الأمور تأخذ وقتا...**

بكل لامبالات قال تلك الكلمات وواصل تدخين التبغ، فصرخت في وجهه ملقية قارورة عطرها الشانيل على الأرض:

- **لكنك وعدتني، قلت أنك ستترك لينور وتتزوجني، هذا ما تعاهدنا عليه...**
- **لماذا لا تفهمين أني لا أستطيع الآن... خاصة بعد الذي سمعته**
- **وما الذي سمعته؟**
- **آه... لقد تعرضت للاهانة، أحد أصدقائي نصحني، قال يجب ألا يتزوج رجل بمثل مكانتي براقصة... أو يجب ألا أتزوج على الإطلاق وأبقى مع لينور في الأنسب لرجل نبيل مثلي.**

واحتسى جرعة ويسكي مصدرا قهقهة عالية.
كتلك القهقهات التي تعلن انتصار الرجل وانسحاق المرأة، كأنه أراد أن يقول "أجل لقد انتصرت عليك، لن نتزوج معناه أن تترجيني حتى تفقدي الأمل، أن تبكي حتى

تجف أنهار دموعك، أن تتمرغي على الأرض متوسلة مصدرة أنات وحشرجات بينما اكتفي أنا بقول" لا" بكل برود وانعدام شفقة"

- **اذن لن نتزوج؟**

أطفأ ادوارد السيجارة وجلس قبالتها ورد:

- **فكرت في كلامه مليا قبل أن أصارحك، أظن أن صديقي يعرف مصلحتي أكثر مني فهو رجل ذو علم كبير ومكانة مرموقة والمثقفون أمثاله دوما على صواب، بالاضافة، فالزواج لن يضيف لنا شيئا، نحن هكذا على أفضل حال.**

فقاطعته صارخة:

- **هراء... لكنك وعدتني، لكنك تعلم أني أحبك...**
- **من قال عكس ذلك أنا أيضا أحبك، لكني لا أستطيع... حتى وإن ماتت لينور...**

وهكذا دخلا في شجار ترتفع وتيرته على طريقة الكريشندو الموسيقية حتى وإن حاول إدوارد تهدئة الأوضاع فدايزي لا تصمت، حتى وإن كان ادوارد شخصا سمجا يمقته الجميع إلا أنه لا يتشاجر مع دايزي بل كان يعاملها بلطف، كقطة مدللة ، لكن هذه المرة كانت مختلفة فقد غسل الدكتور كراولي دماغه بكل بساطة لأنه أحمق ويسهل التلاعب به لدرجة أنه قرر أن يعدل عن الزواج دون أي مبررات منطقية.

انتهت سيمفونية شجارهما التي لم ترقص دايزي على نوتاتها المتصاعدة.

وفي النهاية طردته صارخة موقظة كل الجيران:

- **أغرب عن وجهي لا أريد أن أراك ثانية... أيها الوغد الحقير... يا قذر... يا ابن ال...**

لكن السباب توقف بعد أن أطل عليها أحد الجيران طالبا منها أن تدعهم ينامون والا سيتصل بالشرطة.

ودون أن يقول أي شيء فقد طأطأ إدوارد رأسه وركب السيارة متفاديا نظرات الجيران الذين يختلسون النظر من نوافذ الشرفات.

وصل ادوارد لشقته جلس على الأريكة في غرفة الجلوس، فتح التلفاز متظاهرا بالمشاهدة حتى يتفادى الغرق في تلك الأفكار التي تدور في ذهنه، ما كان عليه أن يسمع كلام الدكتور كراولي، ما كان عليه أن ينهي الأمور هكذا.

- آآآخ، لقد تسرعت.

أراد الاتصال بها لكنها لا ترد.

وبالطبع بعد كل ذلك فهي لن ترد.

والآن هي تبكي وطوفان الكحل الأسود يكتسح وجنتيها مثل كل مرة.

والآن هي تشعل السيجارة الأولى والثانية والثالثة...

والآن هي تسكب كأس الويسكي الأولى ثم أدركت أن ذلك لا يفيد فتجرعت كل ما في القنينة.

ووفقا للهيستيريا النسائية فقد حطمت كل شيء أمامها، تلك المزهرية، وتلك التحف على الرف، رفست كل الأزهار تحت قدميها، مزقت ذلك العقد الذي أهداه لها في وقت ما، شغلت إحدى الاسطوانات الحزينة وجلست على الأرض مواصلة البكاء.

أرادت دايزي أن تفعل أي شيء ينسيها كلام ادوارد، تريد أن تشرب إلى أن تثمل، تنتشي، تنسى وتنام...

تنام...

تنام إلى الأبد...

دق دق دق...
تناهى لها صوت طرق على الباب فقالت في نفسها:
- لا بد من أن ادوارد قد عاد... لذلك لن أفتح.
لكن الطرق تواصل وبدأ يتعالى، وآخر هم دايزي أن توقظ الجيران ثانية في ساعة كهذه، لكن من سيزورها الآن غير إدوارد، ثم وثبت من على الأرض بخطى ثملة متثاقلة غير متزنة وقالت:
- الآن سوف ترى أيها المعتوه.
وفتحت الباب، لكن الزائر كان غير متوقع.
- أنت؟
وتقهقرت إلى الوراء، لكنه دخل وأغلق الباب وتقدم بخطى ثابتة.
قبعة سوداء، سترة سوداء، ملابس، سوداء، قفازات سوداء، حذاء أسود، كتلة سوداء تقترب، كيان أسود يبسط ظلماته في كل مكان، كالظل، كالقرين، ككيان تولبا غامض صامت يقترب بينما كانت دايزي تقول بصوت متلعثم شبه مفهوم:

كان هنا منذ البداية

- قلت لك أن تتركني وشأني، أنا لا أحبك... لما لا تفهم.

لكنه لم يجب.

- لقد انتهى كل شيء بيني وبين ادوارد... هل انت سعيد؟

لكنه لم يجب.

- ما الذي أتى بك إلى هنا.

لكنه لم يجب.

- اسمع، ارحل أنا لست في مزاج جيد الليلة.

وانهمرت دموعها.

اقترب منها ليضع يده ذو القفاز الجلدي البارد على وجهها ويمسح دموعها ويهمس:

- لكنني أحبك... أنت دون غيرك.

فضحكت، ضحكة بائسة وقالت بصوت متضرع أن يدعها الليلة وشأنها:

- لكن لا أحبك، ولن أحبك ولن أتمكن من حبك حتى وإن رحل ادوارد حتى وإن مت وحيدة حتى وإن كنت آخر رجل في الكون... أنا وأنت مع بعضنا... ذلك شبه مستحيل.

لكنه لم يجب.

في الواقع هو لم يأت ليبرهن عن حبه وصدقه.

لم يأت ليتوسل من أجل فرصة واحدة.

لم يأت ليتحدث أو يقنعها بالابتعاد عن ادوارد.

لم يأت ليعرف سبب الشجار الذي دار بينها وبين عشيقها.

لم يأت ليسألها عن عروضها القادمة.

لم يأت لكي يركع أمامها ويقول بكل شاعرية "دايزي حبيبتي هل تقبلين الزواج بي؟" ويخرج خاتما ثمينا من جيبه.

لقد أتى لكي يحسم الأمور.

احتضنها وهمس في اذنها:

- احبك.

تأوهت كأنها على أعتاب الموت وقالت:

- ما هذا؟ انت....

دايزي الآن تشعر بشيء حاد بارد يخترق ملابسها ويمزق أحشاءها وقبل أن تدرك أنه قد قام بطعنها تلقت الطعنة الثانية والثالثة والرابعة قبل أن تقع على الأرض متمرغة في الدماء ثم تفقد وعيها جراء الصدمة العصبية وتموت.

لقد استسلمت المسكينة دون أي مقاومة، لأنها أرادت أن تنسى و تنام...

تنام...

تنام إلى الأبد...

توالت الطعنات على جسدها المستسلم البائس حتى أدرك الفاعل أنها قد نفقت وفارقت الحياة ليتركها مرمية في بحيرة قرمزية تتوسع لتلوث ثوبها النومها شانيل الأصلي، تتوسع لتغمر خصلات شعرها الأشقر وتحوله الى قرمزي، تتوسع لتشكل أجمل لوحة يراها على الإطلاق.

وقف يتأمل ذلك المشهد التراجيدي وقال:

- أنت تزهرين يا دايزي كما لم أراك من قبل.

لقد جاء هذا الزائر الغريب ليحسم كل شيء، ولكي تكتمل جريمته المثالية مثل سابقاتها عليه أن يحظر غالون البنزين الذي تركه أمام الباب ويضرم فيها النيران، سيظن الجيران أن حريقا قد شب في منزل الراقصة دايزي ديفاين، سيقولون إنها حادث بسبب استهتارها ويتسارعون لانقاذها ثم سيدركون أنه حريق مفتعل التهم كل أدلة الجريمة.

وبعد بحث عقيم ستجد الشرطة مخبولا سيء الحظ وتنسب له الجريمة و تملأ صوره كل الصحف والمجلات، أو إن لم يعثروا على سيء الحظ ذاك ستبقى القضية ضد مجهول ويكتب على ملفها جاري البحث عن القاتل وتركن في ملف لن تصله أشعة الشمس.

- حتى شارلوك هولمز نفسه لن يجدني.

قالها وهو في قمة النشوة فهو لم يرتكب جريمة منذ وقت طويل.

لم تمضي سوى ساعة على أقل تقدير حتى أيقن سكان الحي أنهم لن ينعموا بليلة هادئة بسبب دايزي ديفاين، بل ما أسوأ أن تستيقظ على رائحة حريق نشب في المنزل الذي يقع قبالتك.
قال أحد الجيران للشرطة أنه قد اشتم رائحة دخان خانق تسلل له من شباك نافذة مفتوحة.
في ما قال جار آخر أنه قد صحى على صوت انفجار تسبب في هذا الحريق.
قال الآخر أنه من اتصل بالمطافى، وأضاف الآخر أنه أول من خرج من شقته ليرى ذلك المشهد الذي لن يفارق خياله
منزل راقصة البيرلسك دايزي ديفاين يحترق .
وبالطبع حظر مع غفير من سكان الحي الذي لم يشهد فاجعة كهذه من قبل فالواحد لا يرى منزلا يحترق كل يوم، حضر رجال الإطفاء بعد ساعة وقاموا بإجراءات روتينية رتيبة مملة فهم يشاهدون المنازل تحترق كل يوم ولا شيء يدعو للقلق أو الخوف في ذلك، ثم يخرجون جثة متفحمة.
وسط صراخ الحشود:
- دايزي... دايزي... هل هي بخير... هل هي على قيد الحياة؟
بعدها وصلت الشرطة لاستجواب الجيران ومعاينة مسرح الجريمة وترقيم الأدلة والتقاط الصور وقد طوقوا المنزل بذلك الشريط الأصفر المعهود الذي كتب عليه بخط أسود غليظ:

كان هنا منذ البداية

مسرح جريمة ممنوع العبور.

لتليها الصحافة المتلهفة لسبق صحفي ينشر في أول صفحة في جريدة *the irish times* .
ستتحدث جميع القنوات الفضائية المحلية على هذه الفاجعة.
وتتحول دايزي من مجرد راقصة يمقتها جيرانها بسبب ميوعتها وانحلالها إلى الضحية المسكينة محبوبة الجميع.
صبيحة ذلك اليوم المشؤوم استيقظ اللورد إدوارد ماكغريغور على صوت طرق متواصل على باب شقته بعد أن نال قسط نوم قليل متقطع، لبس ثوب النوم المعلق وتوجه لفتح الباب ليجد نفسه أمام محقق يدعى المحقق جيمس سبنسر ثم صدم فور سماعه تلك الجملة الصادمة:
- سيد ادوارد ماكغريغور، انت متهم في جريمة قتل الآنسة "ايما كارتر" .

كان هنا منذ البداية

ززززززززززززززززز.....
على اثر هذا الصوت بدأ تسجيل حصة استجواب أخرى للمتهم الرئيسي ادوارد ماكغريغور.
ليبدأ الجلسة بصمت تعوده المحقق جيمس سبنسر ثم انفجاره باكيا:

- **لم أفعلها... أقسم بالرب أني لست الفاعل... آه عزيزتي دايزي المسكينة... أقسم أني لست الفاعل.**

ثم دفن رأسه بين يديه وواصل البكاء.
أشعل المحقق جيمس سبنسر سيجارة أخرى وأعاد السؤال الذي كرره طيلة ساعات الاستجواب:

- **لماذا قتلتها بتلك الطريقة الوحشية؟**
- **لم أفعلها حضرة المحقق صدقني...**
- **لماذا قتلتها بتلك الطريقة الوحشية؟**
- **قلت لك مئة مرة أني لم أفعل... لن أقول شيئا آخر لغاية حضور المحامي...**
- **حتى حضور المحامي لن يفيدك في مأزق كهذا فأنت المتهم الوحيد، أنت من كان معها طيلة الليل، وانت من رافقها الى منزلها، وأنت من تشاجر معها، وأنت آخر من شوهد يخرج من شقتها... هل كل هذا محض صدفة يا سيد ماكغريغور، هيا الاعتراف سيخفف عليك الحكم؟**
- **نعم أنا أعترف أن كل ما قلته صحيح لكني لم أقتلها... لقد أحببت دايزي وكنت أفكر في الذهاب الى منزلها في الصباح والاعتذار عن تلك المشاجرة.**
- **إذن هل قتلتها خوفا من أن تكتشف زوجتك أمر خيانتك لها؟**
- **لا... أنا برئ...**

كان هنا منذ البداية

- **هل قتلتها لأنها هددت بإفشاء أمر علاقتكما؟**
- **صدقني أنا برئ... ولن أجيب على أي سؤال حتى يصل المحامي.**
- **الشرطة تقوم بالتحريات اللازمة بعدها سنرى ان كنت مذنبا أو بريئا، خذ قسطا من الراحة لغاية حضور المحامي و سيتم استجوابك ثانية في وقت لاحق.**

ثم خرج المحقق جيمس سبنسر من غرفة الاستجواب متجها نحو مكتبه ليستوقفه ضابط شرطة يحمل ملف قضية دايزي ديفاين فأخذ من عنده الملف واتجه نحو مكتبه.

أشعل المحقق جيمس سبنسر سيجارة أخرى وأخذ يتأمل التقارير الأولية للجريمة، صور مسرح الجريمة الذي لم يحترق بالكامل لم يكن هناك آثار خلع أو اقتحام أو سرقة، اذن فهي تعرف الجاني وهي من قام بفتح الباب له، ودافعه الوحيد من الجريمة هو القتل، فهو لم يسرق المال ولا المجوهرات، صور جثة الهالكة وهي في مسرح الجريمة.

تصريحات جيران دايزي عن الأشخاص الذين يزورونها، وسئل مدير أعمالها عن علاقاتها في الشغل وخارجه، تحدثت صديقاتها عن من يحبها ومن يكن لها أبغض الضغائن، وعشيقها ادوارد ماكغريغور الذي لم تمسك في أقاويله ولم يغيرها، أما عائلتها فقد صرحت انها لم تتواصل معها منذ أكثر من سنتين ولم يبدوا أي تعاطف مع خبر وفاتها فهي بالنسبة لهم قد ماتت منذ زمن طويل منذ أن قررت أن تغرق في الآثام والخطايا.

تمعن المحقق جيمس سبنسر في تقرير الأولي للطب الشرعي الذي أظهر أن الجثة التي وجدت شبه متفحمة طعنت حتى الموت دون أن تبدي أي مقاومة للجاني ثم أحرقت قصد التمويه كما أظهرت التحاليل بأنها كانت مخمورة للنخاع ربما لذلك لم تتمكن من الدفاع عن نفسها، رتب جيمس سبنسر كل الصور والتقارير على المكتب وأخذ يدون بعض الملاحظات على دفتره:

صورة ايمي كارتر "دايزي ديفاين".

صور من هم في دائرة الاتهام.

صورة الجثة وهي في مسرح الجريمة.

صور مسرح الجريمة بعد انتشال الجثة.
تقارير الباثولوجي والتوكسيكولوجي المصحوبة بتقارير الحمض النووي، تحليل الدم، وتحليل السوائل.
صور تشريحية للمجني عليها مرفقة بتقارير الطب الشرعي، صورة تشريحية للحنجرة التي لم يكن عليها آثار تسمم بأحادي اكسيد الكربون.
صورة تشريح الدماغ الذي صار أشبه بالقرنبيط بمفعول الحريق، صور تشريح للبطن والأمعاء مع معاينة لموضع الطعنات وحجمها وعمقها.
صور بالأشعة للعظام.
قضى جيمس سبنسر ساعات في مكتبه وهو يحاول فك لغز هذه الجريمة لكن دون أي جدوى، هناك خيط مفقود لم يذكر في القضية.
لكن ما هو؟

كان هنا منذ البداية

نسي ادوارد كم يوما مضى عليه في مخفر الشرطة فقد كان في حالة سيئة حزين على حاله وحزين على دايزي وحزين على لينور التي لن تغفر له موضوع الخيانة، كل الأدلة ضده والجميع يقول أنه الفاعل، ما من دليل براءة يخرجه من هذه الورطة الأليمة.

ليته لم يسمع كلام الدكتور كراولي ويتشاجر معها قبل وفاتها ما كان عليه أن يذهب رفقتها في تلك الليلة... وأخذ يعد الفرضيات على أنامله:

- **ربما كان أحد المعجبين المجانين، أو صديقة غيور، أو رجل غير ادوارد... أيا كان فليظهر حتى أخرج من هذه الورطة.**

لم يأكل منذ أيام بل اكتفى ببعض من الماء، لم يتمكن من النوم وكل ما يراه عندما يغمض عينيه هو لينور، بالطبع لينور لن تسكت عن أمر كهذا، ولن يتمكن من أن يتخلص منها ويرث كل شيء مثلما خطط مسبقا، الجميع الآن يراه كمجرم مختل لن يبقى لديه أصدقاء ويعود للفقر من جديد، يا له من حظ عاثر.

كان يجلس القرفصاء في زنزانته عندما فتح أحد الحراس الباب وقال:

- **إدوارد ماكغريغور ، لقد تم إخلاء سبيلك.**

هل عساه يحلم، لقد جاءت هذه الكلمات من السماء بتنقذه بعد أن كاد يفقد الأمل.

توجه إلى مكتب المحقق جيمس سبنسر كما أمر، وإذ بالمحقق يقول:

- **لا تفرح كثيرا، لقد تم اطلاق سراحك لعدم وجود أي دليل ملموس ضدك بالاضافة أن جيرانك في العمارة قالوا أنك قد عدت لشقتك في وقت متأخر من الليل وقد بحثت عن مفاتيحك وأخذت تسب وتلعن وتركل الباب ثم أخذت تجرب مفتاحا تلو الآخر وعلامات السكر بادية عليك، بالإضافة إلى أننا استجوبنا ساقي الحانة التي ترتادها وقد أكد أنك قد ذهبت للحانة قبل ذهابك الى شقتك وشربت بضعة كؤوس ليسمعك الجيران بعدها تحاول فتح باب شقتك...**

اتسعت عينا ادوارد وانبسطت أسارير وجهه وعادت في جسده الحياة إثر سماعه تلك الكلمات ثم سمع المحقق يضيف:

- **ذلك يبعدك من دائرة الاتهام لكنه لا يقصيك منها، ماذا لو كانت زوجتك هي القاتلة ربما علمت بأمر عشيقتك وخططت لانتقام يوقعك في مكيدة لا خروج**

منها، لذا سأذهب بدوري برفقتك للقصر لاستجواب زوجتك والعاملين هناك، ربما أمسك طرف الخيط، ولغاية أن أجد دليلا قاطعا فأنت لا تزال المشتبه به الرئيسي.

كان هنا منذ البداية

6

لم يتوقع المحقق جيمس سبنسر أن يخوض مغامرة بوليسية شبيهة بالتي يقرأ عنها في الروايات فهو محقق شاب في أواسط عقده الثالث متزوج ويعيش في شقة في دبلن جذاب بعض الشيء له عينين زرقاوين وشارب كثيف أسود، يلبس معطف كاشمير ترابي اللون ذي ياقة من الفرو طيلة الفصول الأربعة وقبعة فيدورا سوداء وبالطبع كيف له أن ينسى ذلك السيجار الذي لا يفارق شفتيه والذي يجعله يبدو محققا محنكا برع وخبر في كل الجرائم. وليصنع لنفسه تلك الصورة النمطية للمحقق الذي أدمن القراءة عنه وعشقه منذ الصغر في روايات أغاثا كريستي وآرثر كونان دويل، فقد كان مزيجا من هركيول بوارو وشارلوك هولمز في آن واحد، متعطش لحل الألغاز وفك شيفرات أصعب الجرائم متقد الذكاء لم يسبق له ان خسر قضية ما، الجميع يقر بأنه كفئ وله سمعة مرموقة بين الجميع. سريع الانتباه للتفاصيل الدقيقة خاصة لغة الجسد، يحب الألغاز ويطمح لتحقيق العدالة والارتقاء لمناصب أعلى.

فقد كان المحقق جيمس سبنسر يطمح للترقية، فمديره على أعتاب التقاعد وقد أعلمه أنه إن تمكن من حل هذه الجريمة فهو من سينال الترقية. فتحمس جيمس للأمر فقد عمل بجد من أجل هذا المنصب وعن قريب سيحصد ثمار أتعابه حتى وإن كلفه الأمر الذهاب لقصر نائ في غرب أيرلندا، قصر اللورد فيليب غاردنر الذي سمع عنه الكثير.

ستكون هذه مهمته الأخيرة كمحقق قبل أن يصبح مدير قسم التحقيق.

ذكر له بعض زملائه الذين رفضوا مرافقته في مهمته تلك أن لعنة ما قد حلت بذلك القصر فقد مات اثنين من ساكنيه ميتة محيرة رجحت الأولى على أنها حادث أثناء الصيد قصد اغلاق القضية، والثانية ظلت لغزا الى الآن فهم لم يعثروا على جثة مالك القصر الذي اختفى فجأة يوم ولادة حفيدته ثم زعم البعض على أنه مات

وأكلته حيوانات الغابة الضارية قد قبلت الأسرة تلك الفرضية السخيفة دون اعتراض...

وكغيره من القصور الملعونة فقد كثرت الشائعات حول ذلك القصر، أكد البعض أنه بالطبع مسكون وأن سكان القصر أيضا حلت عليهم لعنة ما منذ ان مات اللورد فيليب غاردنر، رفضت الليدي لينور سيدة القصر كل دعوات الحفلات الخاصة ثم بكل بساطة اختفت عن أنظار الجميع وانعزلت، ولم يراها أصدقاؤها وأقربائها منذ رحيل والدها، فقد توقفت عن الظهور فجأة كأنها لم تكن.

توقفت عن التبضع من المتاجر والمحلات، توقفت عن ارتياد الجمعيات الخيرية والسفر، ودون سابق إنذار عزفت عن الحياة وابتعدت عن الجميع حتى نسوها تدريجيا.

قيل أنها جنت، وقيل أيضا أن مرضا عضالا ألم وجعلها طريحة الفراش.

أما الابن ألكسندر أوكونور، فيقول عنه البعض أنه مدمن مخدرات مختل لا يظهر سوى في الليل، كان في البداية يرتاد الحانات ثم اختفى فجأة دون أن يعلم عنه أحد شيئا لينعزل تماما مثل ما فعلت أمه، وليحكم ادوارد قبضته على كل شيء.

كل هذا الذي سمعه زاد من حماسه، أخيرا سيعيش تجربة بوليسية كالتي يقرأ عنها.

تجربة فريدة من نوعها جديرة بأن تذكر وتحكى لأطفاله الذين سينجبهم يوما ما فقد تزوج منذ سنتين ولم يرزق بأطفال الى الآن.

عض المحقق جيمس سبنسر شفته من فرط النشوة التي تتدفق في جسده وهو يفكر في كل المجد الذي ينتظره وأشار على ادوارد:

- **سنطلق سراحك وستركب معي في السيارة ونتجه الى القصر لاجراء بعض التحقيقات، في الأثناء لا يسمح لك وأفراد عائلتك بمغادرة القصر أو السفر لغاية انتهاء التحقيقات والعثور على خيط يقودنا الى المجرم، أو على الأقل على دليل يبعدك من دائرة الاتهمام.**

أعلمه إدوارد أن المنزل يخلو من الهاتف والتلفاز وأن الملل سيقتله فور وصوله للقصر، فرد عليه المحقق جيمس سبنسر بنرة يتكللها الجد والحزم:

أنا ذاهب الى هناك في مهمة ولن أهتم لوجود تلفاز لعين لا يبث شيئا سوى مظاهرات البانكرز.

سرعان ما بسط الليل أجنحته في السماء، وقد تيقن سبنسر أن الليلة ستكون حافلة بالمفاجآت بعد كل ما حكاه له ادوارد عن القصر، دامت الرحلة من دبلن الى قصر اللورد فيليب غاردنر أكثر من ثلاث ساعات.
و لأكثر من ثلاث ساعات كاملة وادوارد لم يسكت ولو للحظة واحدة، ثرثر أكثر من اللازم تحدث عن علاقته بعشيقته دايزي ديفاين وأنه لم يرغب أبدا بالارتباط بها وتوريط نفسه في مشاكل الطلاق وكان في كل مرة يرغب فيها في الابتعاد عن

كان هنا منذ البداية

دايزي كانت تترجاه ألا يرحل وبالطبع هو لم يشأ أن تصل الأمور لهذا الوضع معها.

- لقد كانت مجرد نزوة يا رجل فكل الرجال يتورطون في علاقات مشبوهة حتى يكسروا قسد الملل الذي يكبل حياتهم الزوجية، ستعي ذلك عندما تقارب سني عندها ستوقن أن الحياة الزوجية مملة بشكل لا يطاق.

لكن جيمس كان يعلم أنه لن يخون زوجته أبدا فهو رجل شهم صاحب مبادئ ومع ذلك قرر أن يلتزم الصمت على أن يحتك مع ادوارد في نقاش هكذا، فالرجل يرى أنه على حق ويجد لنفسه أعذارا تشرع خيانته لليديي لينور.

قال ادوارد بأنه يشك أن لينور علمت بأمر علاقته تلك وكادت مكيدة قتل دايزي، ثم استنكر هذه الفرضية بسرعة وأطلع المحقق جيمس سبنسر بأمر مرض زوجته التي تقضي كامل يومها طريحة الفراش، سكت قليلا ثم وجه التهمة إلى ابن زوجته ألكسندر مشيرا إلى أنه يكرهه ويمقته ويصر على أنه سبب هلاك الأسرة ربما كان قد علم بأمر علاقته بدايزي وقرر أن يقتلها حتى تلصق التهمة بادوارد ويبعده عن طريقه نهائيا...

ثم واصل التحدث عن ألكسندر وعن استهتاره وعن خروجه في الليل وارتياده لأماكن يجهل كنهها.

أخبره أيضا أن ألكسندر ولينور ينامان طيلة النهار، ولن يتمكن من رؤيتهم والتحقيق معهم إلا بعد مغيب الشمس.

توجس المحقق سبنسر لهذه الفكرة فهو يقرأ كثيرا ويعلم أن هذه الصفات ليست بآدمية، بالطبع لقد قرأ رائعة الايرلندي برام ستوكر دراكولا، وبالطبع قد قرأ قصة مغامرة مصاصة دماء ساسكس للسير آرثر كونان دويل، ومؤخرا قد قرأ رواية مقابلة مع مصاص دماء لآن رايس... لكن في النهاية عاد إلى رشده فمصاصوا الدماء هم فقط يسكنون بين صفحات عالم القصص والروايات وفولكلور ايرلندا وبالطبع لن يكون لهم وجود في قصر اللورد فيليب غاردنر.

وقال في نفسه:

- أنا أقرأ كثيرا وهذا سيذهب عقلي.

ثم ابتسم بسخرية، شغل المذياع وواصل السياقة.

فالطريق لم يعد طويلا.

أحس جيمس سبنسر بتحمس فور وقوفه أمام بوابة القصر فهي المرة الأولى التي سيحقق فيها في قصر كهذا، واثر عبوره البوابة ونزوله من السيارة التي أوقفها قبالة كوخ الحارس دون أن يكلف نفسه عناء ركنها في المأوى.

كان أول من قابله هو آرثر حارس القصر الذي فوجئ بقدوم سيده اللورد إدوارد في سيارة أمن مع مخبر شرطة وكان يتساءل في ذهنه عن نوع الحماقة التي ارتكبها اللورد ادوارد في العاصمة ربما كان قد خسر المقامرة فآرثر يعلم أن اللورد اصبح مدمن قمار، ربما تشاجر مع أحدهم، لكن لم يتمطط ذهن آرثر ليصل لما اقترفه إدوارد.

حيا آرثر المحقق وقد بدت عليه ألوان من الاستغراب والدهشة، فسأله المحقق جيمس سبنسر بنبرة مفتعلة خشنة تعكس جدية ما سيقوله:

- **آرثر، أنا هنا من أجل التحقيق في جريمة قتل.**

كان هنا منذ البداية

وهنا امتقع وجه آرثر ليحمر وجهه كالخنازير وسأل ببلاهته المعتادة:

- **عفوا حضرة المحقق هل قلت جريمة قتل؟**
- **أجل... سيدك ادوارد متهم في جريمة قتل...**

فقاطعه آرثر:

- **اللورد متهم في جريمة قتل...**

ثم رسم الصليب على صدره.

- **لا تقاطعني... سأطرح عليك بعض الأسئلة.**

أخرج المحقق صورة لدايزي ديفاين ورفعها في وجه آرثر مواصلا حديثه:

- **هل رأيت هذه الفتاة في القصر من قبل؟ هل كانت تزوركم؟ هل تعرف عنها اي شيء؟ هل سمعت بأمر علاقتها بالسيد ادوارد؟**
- **لا يا حضرة المحقق انا لم يسبق لي أن رأيتها في القصر ولا أعرف عنها شيئا أبدا ناهيك من أننا لا نستقبل زوارا أبدا خاصة من هذا النوع من النساء...**
- **متى يذهب ادوارد الى دبلن وكم يدوم مكوثه هناك؟**
- **يتردد على دبلن باستمرار لأنه مشرف على مصالح العائلة واضف الى ذلك لديه شقة هناك.**
- **هل كان سلوكه غريبا في الآونة الأخيرة؟**
- **على الاطلاق... سلوكه كان عاديا جدا.**
- **هل بينه خلافات مع لينور؟**
- **لا فالليدي لينور تحبه ولم يسبق لهما أن تشاجرا منذ بداية عملي في اقصر.**
- **حسنا هذا يكفي، سأعود لألقي عليك أسئلة أخرى قبل رحيلي.**

ثم أشار على ادوارد للدخول إلى القصر.

كان يعلم أن الحارس متوتر أكثر من اللازم ولعله يعلم شيئا، أو ربما كان يداري على سيده حتى لا يخسر وظيفته.

دخل الاثنان الى القصر وقد كان ادوارد في حالة من الذل رأسه محني عاجز على النظر في أعين الجميع.

كان هنا منذ البداية

رحبت به إيفا التي كانت جالسة مع ألكسندر يتحدثان بينما كانت أناستازيا تغط في نوم عميق، ثم استقبلته زينا بابتسامتها المزيفة، فهي تمقت اللورد إدوارد لكنها مجبرة على الابتسام في وجهه.

ثم تساءل الجميع في آن واحد:

- **ماذا حدث ومن هذا الذي معك؟**

فعرف المحقق بنفسه مخرجا بطاقته الخاصة من جيب المعطف وأعلمهم بسبب قدومه الذي كان بمثابة صدمة لهم وخاصة للينور التي كانت أول من قام المحقق باستجوابهم داخل القصر.

قاده ادوارد الى غرفة النوم وأطلع لينور بسالفة الأمر قائلا:

- **صديقيني أنا بريء أنت تعرفين أن ادوارد لا يقتل... ادوارد لا يخون، لا تصدقي أي شيء فأنا بريء، لينور أنا أحبك، دعيني أشرح الأمر...**

فجره المحقق خارج الغرفة موضحا:

- **لو سمحت أريد أن ابقى مع السيدة على انفراد.**

كانت لينور جالسة على طرف السرير بملابسها القاتمة ووجهها الشاحب وعينيها المحمران من فرط البكاء:

- **لم أعلم أن ادوارد سيخونني في يوم ما... كيف لم أشعر بهذا... لقد منحته كل شيء، لماذا يفعل هذا بي...**

ثم عادت للبكاء.

- **آسف، لم أقصد ان أزف لك خبرا كهذا سيدة لينور لكن زوجك متهم في قضية قتل وأنا مضطر لطرح بعض الأسئلة، لو سمحتي تمالك نفسك وأخبريني كل شيء عن ادوارد.**

وبغصة بدأت الليدي لينور تتحدث عن ادوارد منذ أن أحضره والدها للعمل في القصر كخادم وهو في منتصف عشريناته، شاب ريفيا رثا من اسكتلندا ثم صار كبير الخدم في مدة وجيزة ثم صار زوجها ومالكا لكل هذه الثروة.

تحدثت لساعات عن ذكرياتها السعيدة معه كيف أنقذها من الاكتئاب الذي لازمها منذ وفاة زوجها الأول، كيف أحبته، كيف عشقته:

- **يقولون أن الإنسان يعثر على الحب الحقيقي مرة في حياته، وقد عثرت عليه مع ادوارد، ادوارد ألصق كل شظية في قلبي، لقد اهتم بأصغر التفاصيل، لقد أحسست بشيء تجاهه منذ أن رأيته لأول مرة في القصر، لقد جعلني سعيدة.**

فقاطعها المحقق سائلا بعد أن أمعن النظر لوجهها الشاحب وملابسها التي تعبر على حالة حداد دائم:

- **لكنك لا تبدين سعيدة على الإطلاق، لو كنت حقا سعيدة معه لخرجت الى النور ... أنت لا ترين الأشياء على حقيقتها.**

فردت على كلامه بعد صمت وجيز:

- **وهم السعادة أفضل من أن أحزن الى الأبد، ووجود ادوارد في القصر وبجانبي أفضل من مواجهة العالم بمفردي لا أريد أن أموت وحيدة بين جدران هذه الغرفة أريد أن أشيخ رفقة شخص ما، شخص يحبني ويهتم لأمري أو على الأقل يتظاهر بأنه يهتم لأمري، أعرف جيدا أن ادوارد مهووس بالمال والثراء وقد أعطيته كل شيء حتى يظل الى جانبي ولا يرحل مثل الجميع.**
- **آسف سيدتي.**

ثم انزل رأسه حتى لا ينظر في عينيها الباكيتين، حتى أشد وأعتى الرجال يضعفون أمام دموع أنثى منسحقة.

ثم ابتسمت وقالت بعد أن جففت دموعها:

- **لم أتحدث بهذه الطريقة مع شخص منذ فترة يا الهي أظن أني بأمس الحاجة لرفيق يسمعني.**
- **لا بأس، هوني عليك، في بعض الأحيان نحتاج لمن يسمعنا دون أن يحكم أو يقول أي شيء، كلنا نحتاج لإلقاء أدران همومنا والترويح عن أنفسنا حتى نتمكن من مواصلة الطريق، سأتركك ترتاحين الآن سيدة لينور وسنواصل حديثنا في الصباح.**
- **عذرا سيدي المحقق، فمرضي يحتم علي النوم كامل اليوم أخشى أني لن أستطيع مقابلتك في الصباح.**

- **هل أنت مريضة؟**
- **أجل، إنه فقر الدم الذي لازمني منذ أن أنجبت أناستازيا.**
- **لكن فقر الدم لا يجعل الإنسان ينام طيلة النهار.**

غمغمت قليلا ثم قالت في تمويه:

- **إن ذلك بسبب الدواء.**
- **لكن من المفترض أن هذا النوع من الأدوية لا يسبب الفشل.**

فزاد توترها في تملص:

- **انا اتعاطى أقراصا مهدئة منذ وفاة والدي.**
- **لكن هذه الأقراص تأخذ في الليل، لو كنت تتعاطينها مثل ما ذكرت لنعمت بنوم هادئ طيلة الليل واستيقظت في النهار.**
- **أرجوك أنا متعبة الآن وأريد أن أرتاح أعصابي منهارة لدرجة لا تحتمل.**

ثم فتحت الدرج وأخرجت علبة الأقراص المهدئة وتناولت قرصا حتى تجعله يصدق ما كانت تقوله.

- **حسنا تصبحين على خير سيدة.**

ثم انصرف حتى يستجوب الباقين.

نزل الدرج وكبح زناد أفكاره وهو يقول كانت تتفادى النظر لي كأنها تكبح رغبة حبيسة في داخلها، فأنا أعرف تلك النظرة المتعطشة للدماء البشرية. لأقطع يدي إن كانت تلك المرأة تعاني من فقر الدم، هناك شيء غامض في عينيها، شحوبها، لون بشرتها، نظراتها، حركاتها.

ثم تذكر شخصية لوسي في رواية دراكولا، تذكر شحوبها ومرضها الذي ظل مجهولا حتى اتضح أنها تحولت لمصاصة دماء.

ثم قال بصوت مسموع:

- **تبا لهذه الخرافات انها تتلف كل خلية في دماغي.**

توجه جيمس لغرفة الجلوس وظل يقلب الأثاث المترف بعينيه، ينظر للوحات المعلقة ثم التفت للجمع الذي كان ينتظر في ترقب أن يقول كلمة ما.
أحضرت له زينا بعض البسكويت والشاي وجلس قبالتهم على الأريكة، أشعل سيجاره الغليظ حتى يبدو كمحققي الأفلام السينمائية وبدأ بالاستجواب بينما تصاعدت خيوط دخان سيجاره الذي يلوكه تارة ويلوح به في الفضاء تارة أخرى.
في البداية سأل ايفا بضع أسئلة لكن لم يجد أي نفع من هذا فهي هنا منذ أسبوع.
ثم انتقل للحديث مع ألكسندر أوكونور الذي لم يبخل عليه بأي معلومة وأطلعه عن شكوكه في ميتة والده واختفاء جده وحلم ادوارد بالاستلاء على كل شيء.

- **لا تصدق أي كلمة يقولها ادوارد فذلك الرجل مخبول وقادر على القتل، أنا أعلم أنه هو من فعلها، أنا متأكد من أنه هو من قتل والدي وجدي ولن أصدم إن كان هو من قتل الفتاة المسكينة خوفا من الفضيحة أو شيئا آخر.**

كان المحقق يسمع تلك الفرضيات بامعان ولسان حاله يقول:

- **ان كان ما يقوله الفتى صحيحا وإن ادوارد هو قاتل السير ريتشارد واللورد فيليب غاردنر فلا شك إذن أنه هو من قتل دايزي.**

فقط ان أمسك طرف الخيط سيحل هذا اللغز ولعله سيحله معه جرائم القتل الأخرى ويحظى بترقية العمر لكن عليه ألا يتعجل على الاطلاق:

- **سيد أوكونر، اعذرني فأنا متعب بعض الشيء وأرغب في أن أستكمل معك الحديث صبيحة الغد.**

ابتلع ألكسندر ريقه ثم قال:

- **آسف، أيها المحقق، أخشى أني لا أستطيع أن أقابلك صباح الغد.**
- **لماذا؟ هل أنت مشغول؟**

دنى منه ألكسندر وقال متظاهرا بالجدية:

- **أنا في الواقع مريض، فقر الدم اللعين فتك بكل أفراد العائلة إنه وراثي، والدتي تعاني من فقر الدم وهي تنام كامل اليوم مثلي.**

تنهد المحقق جيمس سبنسر وقال في تحسر:

- **لا عليك يا صاح، لقد أطلعتني لينور بأمر المرض هذا، فالشحوب باد على وجهك أيضا، آسف للازعاج، سنواصل الحديث في الليل اذا، أنا الآن فأنا أستأذن.**

ومن دون شك كان جيمس يعلم أن ألكسندر لا يقول الحقيقة تماما مثل أمه.

قادت زينا المحقق الى غرفة الضيوف وقالت بانجليزية رديئة:

- **يمكنك أن تنادي علي إن احتجت لأي شيء.**
- **سأطرح عليك بعض الأسئلة في الصباح، طابت ليلتك.**

كانت زينا تعيش حياة البؤس والشقاء منذ ولادتها، لكنها لم ترغب في يوم ما أن تفارق وطنها الحار وصحراءه المميزة ذو الأهرامات وتمثال أبو الهول ورمالها الدافئة ونيلها العذب والحضارة العريقة التي تفتخر بها وتأتي للعمل في ايرلندا، فالمسكينة اجبرت على كل شيء باعها والدها مقابل مبلغ مالي يضمن له فتح دكان صغير أو شراء قطعة أرض صغيرة أو بضع بقرات...

يومها سمعت والدها يشاجر أمها بصوت عالي سمعه كل سكان الحي:

- لا تفقديني صوابي فأنا أعطيت كلمتي لهذا الرجل وقررت أن أبيعه زينا.

وأخذ يبرم شاربه وقد اتقدت عيناه شرا، لكن الأم احتضنت صغيرتها ذو الستة عشر ربيعا وقالت:

- على جثتي... الخواجة لن يأخذ زينا ولن يأخذ أيا من أولادي.

فصفعها زوجها وجر الفتاة من ملابسها ورماها أمام أقدام ادوارد ثم أشار بحركة بيديه ذات معنى كأنه يقول أعطني النقود وخذ الفتاة وارحل.

فأخرج ادوارد من جيبه رزمة من النقود ناولها للرجل وأخذ الفتاة ورحل.

نظر اليها ادوارد مليا كانت صغيرة ضعيفة وبائسة لم تكف عن البكاء لم يكن يعرف شيئا من العربية حتى يقول لها كلمات مطمئنة ولم تكن هي تفهم الانقليزية بشكل جيد.

نظرت زينا الى وجهه الذي احمر كالطماطم بفعل الحر، كان أنيقا مهذبا وعاملها بلطف، أخرج منديلا وجفف دموعها ثم ناولها لوح شوكولاتة كامل.

لوح شوكولاتة كاملا لها وحدها وللمرة الأولى لن تتشاجر مع ستة من اخوتها من أجله، ولن يقضم كل منهم قضمة، ولن يحظى أخوها بالنصيب الأكبر لأنه ذكر فلم

تقاوم الفكرة وانقضت على اللوح في نهم تنهش الغلاف وتقضم الشكلاطة البيضاء بشراهة لأول مرة...
لقد مضت سنتان...
وقد عرفت أن ادوارد ليس بتلك الطيبة التي ظنتها.
سرعان ما أزاح ذلك القناع من على وجهه فور وصوله الى ايرلندا
وتحولت زينا ببساطة من فتاة فقيرة بسيطة تبيع المشلتت وتحلم بالزواج من ابن عمها الى مغتربة في قصر مشؤوم في غرب ايرلندا.
كان اللورد ادوارد يتحدث كثيرا عن ايرلندا وعن دبلن وعن لندن وعن غلاسكو وقد كانت تبدي انبهارا عن كل ما تسمعه كل مرة، فقد كانت تتمنى بأحلامها الطفولية البريئة أن تسافر وأن ترى العالم أيضا وتهجر هذا القصر الشبيه بالسجن لكنها تعلم أن اللورد أن لن يسمح بهذا أبدا.
ربما ستتزوج الحارس آرثر وتعيش معه حياة رثة في ذلك الكوخ العطن الصغير وينجبان طفلين أو ثلاثة ويقضي أطفالهما بقية حياتهم في خدمة اللورد وعائلته... يا له من مستقبل باهر.
تمردت عديد المرات وأصرت على الهرب فمنعها آرثر وصفعها اللورد صارخا:
- **أنا من أحضرتك الى هنا من أجل خدمتي، ولن تخرجي أبدا حتى لو مت وتعفنت فأنت ستدفنين في الحديقة كجرو سقيم.**

ثم يجرها من شعرها الأكرت إلى المطبخ.
تذكر أول مرة ضاجعها فيها اللورد ادوارد.
ليلتها كان ثملا، وقد تشاجر مع لينور لسبب لم تفهمه قد كانت زينا في المطبخ تنتهي من غسل الصحون حتى فوجأت بادوارد يقف خلفها ويقول كلمات انڤليزية لم تفهمها، ثم بدأ بالإقتراب، وقد فاحت من فمه رائحة ويسكي جيمسون والتبغ.
قد حاولت الصد لكنه كان يغمغم بلكنته الاسكتلندية التي لم تفهم منها حرفا، ترجته باكية.
"أرجوك... لا تفعل"
كانت صريحة في مقاومتها كأنها كانت تقول لقد أخذت مني كل شيء عالمي الخاص، وطني عائلتي، أحلامي، بقي لي شيء واحد ولن تناله.

كان هنا منذ البداية

لكنها استسلمت في النهاية.

- **إدوارد يحصل على أي شيء يريده.**

ثم بصق على الأرض، أخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية ولوحا من الشوكولاتة، دس الأوراق في صدرها ووضع لوح الشوكولاتة على الطاولة وانصرف دون أن ينبس بكلمة.

ثم تكررت الواقعة عدة مرات حتى صارت حقا مكتسبا.

فمضاجعة خادمة أفريقية يبرز قوته وغلاظته، فلينور لم يعد فيها ما يدغدغ رجولته وقد جاءت زينا لتفي بالغرض.

كان يحس بعد ذلك بأنه فحل لايقهر، بأنه انتصر على لينور وثروتها، بأنه هزمها وسحقها وهو الآن قد صار كل شيء.

يفعل ما يشاء مع من يشاء.

بل كان يحس أنه انتصر على طبقة اجتماعية كاملة وخاصة على اللورد فيليب ظانا بذلك أنه قد هزم الأرستقراطية النهمة.

هذا ما كانت تفكر فيه زينا عندما طرح عليها المحقق الأسئلة في الصباح الموالي لكنها آثرت الصمت على نبش جراح الماضي الذي لا جدوى من ذكره.

كان هنا منذ البداية

لم تحدث زينا المحقق بكل هذا خوفا مما سيفعله بها اللورد لو سمع.
فقد هددته ذات مرة بأنها ستخبر الليدي لينور بأنه يتحرش بها، فالتقط سكينا من الدرج ووضعه على رقبتها وقال مهددا:

- **ان فعلت ذلك سأقطع حنجرتك وأرميك للذئاب.**

لذا قررت أن تصمت.
قالت للمحقق أنها من اختارت المجيء لايرلندا بكامل ارادتها.
قالت أن اللورد يحسن إليها.
قالت أنه يعاملها معاملة الأبناء.
لكنها كانت تقول تلك الكلمات ويداها ترتعشان، ثم تحك أرنبة أنفها، ثم تلعب بخصلات شعرها، ثم تضيق عينيها وهي تقول:

- **سيدي اللورد إدوارد رجل جيد.**

ثم تصمت.
وبالطبع كان جيمس يعلم أن هذه ليست الحقيقة، فحركاتها توحي بأنها لا تقول شيئا من الصدق، فقد قضى جيمس حياته يقرأ قصص شيرلوك هولمز وقد تعلم منه شيئان في غاية الأهمية الأول هو أن تنتبه للتفاصيل الدقيقة التي لا ينتبه لها الآخرون، والثاني هو أن يربط الأحداث ببعضها، ثم واصل في السؤال:

- **هل هناك أشياء غريبة تحدث في القصر؟**
- **الليدي لينور وألكسندر ينامان كامل اليوم، أناستازيا لا تتحدث ولا تبكي أو تثير ضجة كالأطفال، لكني اعتدت على كل هذا.**
- **هل لاحظت شيئا غريبا آخر؟**
- **عادة أسمع أصواتا في الليل.**
- **آه... هل قلت أصوات؟**
- **أجل سيدي... أصوات قادمة من كنيسة القصر، انها مكان صغير يقيمون فيه صلواتهم لكني لم أدخلها لأن ذلك مناف لديانتي.**
- **هل تسمعينها كل ليلة؟**
- **لا، لكني اطلعت آرثر بذلك الأمر وقال في سخرية أني أتوهم فهو يتجول في القصر ليلا ولم يلحظ أي أصوات أو أي ضجيج، آرثر شخص متدين دائما ما**

يذهب للكنيسة في الليل بعد أن أحضر له العشاء وقد أكد لي أن لا شيء يدعو للخوف.

سكت المحقق قليلا ثم قال بنبرة جادة ومطمئنة:

- **ربما أنت على حق في ما تقولين، وربما أنت تتوهمين، في هذه الحياة يجب أن نواجه مخاوفنا وصديقي لو دخلت تلك الكنيسة ليلا لما حصل لك أي مكروه، حتى لو كان ذلك مناف لدينك فهي تبقى بيتا للرب ولن يصدر منه أي أذى، فالرب دائما هنا لسماع صلواتنا وإنقاذ أرواحنا، فقط كوني شجاعة.**

فطأطأت رأسها ضاغطة على مئزرها بيدها الصغيرة، تأملها المحقق ملياً وقال مبتسما:

- **زينا، صدقيني لن أدعك هنا، أعلم أنك تعانين، أعلم أن ادوارد ليس شخصا جيدا، غدا سأعود إلى العاصمة وسآخذك معي وسيدفع ادوارد ثمن كل ما اقترفه في حقك... فقط كوني قوية وواجهي مخاوفك.**

فابتسمت دون أن تقول أي شيء ثم توجهت للمطبخ حتى تباشر شغلها المعتاد.

لم يعلم أحد أنها كانت كئيبة لدرجة لا تصدق، كانت تغرق في الكآبة يوم تلو الآخر. كانت تغرق في انتظار شخص يسمع صرخاتها واحتضارها، لم يهتم أحد لأمرها على الإطلاق فالكل يراها على أنها خادمة افريقية لا غير، تنهض في ساعة مبكرة لتعد إفطار اللورد، تقلي البيض واللحم المقدد والسجق وتحمص الخبز، تطبخ الفاصولياء، ثم تعد الطاولة واقف في الركن كعادتها، بعدها تنشغل بجلي الصحون، غسل الملابس، اعداد الفطور، المزيد من الصحون والأطباق، تكوي الملابس، تمسح الأرضية، تنفض الغبار، تعد الشاي، تعد العشاء تنظف المطبخ تحضر عشاء آرثر.

في النهاية تنام خائرة القوى.

لم ترى زينا في حياتها ذلك الاختراع العظيم المسمى بالتلفاز ولا الهاتف أيضا.

لم تزر زينا معلم دوق ويلينغتون في حديقة دبلن أضف الى ذلك أنها لا تعلم شيئا عن وجوده أصلا.

دعك من أنها لم تسمع شيئا عن حرب ايرلندا ولا عن آفة البطاطا ولا المجاعة الكبرى.
وبالطبع هي لا تعلم أن هذا البلد غني بالتاريخ والحروب الوثنية والمسيحية وفولكلور القلاع المسكونة والجنيات، ولم يخبرها أحد أن أعظم الأدباء أمثال العظيم جورج برنارد شو، وأوسكار وايلد وبرام ستوكر وجيمس جويس هم من ايرلندا.
فقط كانت غريبة في مكان غريب لا تعرف عنه شيئا ولا تعرف فيه أحدا.
كل شيء كان مختلفا، العقائد والتقاليد، البشر، والوجوه.
هنا لن تجد تلك البشرة السمراء اللامعة كالابنوز، ولن ترى ابن عمها الفلاح ذو البشرة الحنطية والملامح الفرعونية يعمل في الحقل تحت أشعة الشمس والعرق يتقاطر من جبينه ليبلل لحيته.
ستقضي بقية حياتها تقتات على حساء الفطر و حساء الخضار والبيض المقلي بدل الكشري بالشطة والطعمية المقلية.
برد قاتل وثلج في كل مكان، الوجوه بيضاء باردة، والقلوب قاسية لقد تلاشى عالمها الصغير الدافئ المحبب وصار القصر ملاذها الأخير.

في تلك الليلة على العشاء سمعت اللورد إدوارد يتناقش مع المحقق ويقول:
- اذا أنت راحل غدا، أتمنى أن تكون الضيافة قد راقت لك.
لكن المحقق لم يعلق، فرمقه ادوارد بابتسامة خبيثة كأنه أراد القول "أنت لن تجد أي خيط في القصر أيها الابله" وعاد لشرب الحساء.
كالعادة دست زينا جسدها الضعيف المنهك في السرير وهي تفكر في ما قاله المحقق، لقد وعدها بأن ياخذها معه غدا، ستصير حرة بعد ساعات، هذه الليلة الأخيرة التي ستقضيها في هذا القصر الملعون غدا ستشرق شمس جديدة وستبدأ معها حياة مشرقة من المؤكد أنها ستبحث عن عمل ومسكن، ستعمل ولما لا

تتزوج وتبدأ حياة جديدة في مكان ما في ايرلندا، رغم كل الألم الذي تحس به فهي لن تعود الى مصر أبدا، لقد تخلت عنها عائلتها، باعها والدها، وقد لعبت دور القربان الذي سيخلص العائلة من البؤس والفقر، لذلك هي لن تعود إلى هناك.
تذكرت ما قاله المحقق جيمس سبنسر عن مخاوفها من تلك الكنيسة والأصوات التي تسمعها، وكانت تعلم أن عليها ان تواجه مخاوفها تلك وقالت في نفسها:
"لا بأس بمغامرة صغيرة قبل مغادرة القصر".
أخذت المصباح المعلق في ركن الغرفة وأشعلته بفتيلة من الزيت وعزمت على الذهاب الى الكنيسة.
بخطى بطيئة وحذرة عبرت الممر وقد انتبهت بأن اللورد إدوارد نائم في مكتبه بعد أن تشاجر مع الليدي لينور حيث كانت لينور تصرخ بأعلى صوتها:

- **خائن، سأطلقك، ستندم على كل شيء يا ادوارد.**

وكان الأخير يقول:

- **صديقيني أنا بريء، أنا أعرف الفتاة معرفة سطحية، أنا لا أخونك، ولن أخونك ما دمت حيا.**

وانتهى الشجار بتدخل الكسندر الذي زاد الأمر حدة فانصرف ادوارد ليعتكف في مكتبه حتى يرحل المحقق صباح الغد.

ايفا كانت نائمة في غرفتها كالعادة رفقة الصغيرة أناستازيا.
وعلى الأرجح أن الكسندر في غرفته هو الآخر، الجو مناسب وهادئ ولا بأس في أن تتحدى مخاوفها وتذهب لتلقي نظرة أخيرة.
خرجت من القصر وألقت نظرة على كوخ آرثر فلم تسمع شيئا، على الأرجح أنه نائم أيضا.
وقفت أمام باب الكنيسة وقالت:

- **هل علي الدخول... لا يجب أن اتراجع...**

ثم استدارت لتعود أدراجها وفي الأثناء تذكرت كلام المحقق "واجهي مخاوفك... واجهي مخاوفك".
فقالت بكل ثقة في النفس:

- سأفعلها.
أدارت مقبض الباب فوجدت باب الكنيسة مفتوحا.
فتحته من دون أن تثير أي ضجة ودخلت.
رفعت المصباح باحثة عن مقبس الكهرباء لكنه كان لا يعمل.
تسارعت دقات قلبها وهي تدخل هذا المكان لأول مرة، فلا أحد يزور الكنيسة عدا آرثر وادوارد.
كفت لينور عن مناجاة الرب منذ دهور، أما الكسندر فلا تظن أنه متدين أو يؤمن بشيء على الإطلاق.
رفعت المصباح وأخذت تتأمل المكان: كانت الجدران حجرية كستها بعض الصور التي تروي أحداثا دينية كالبعث والصلب، لو كانت زينة ذو خبرة في الفن لعرفت أن تلك صورة بعث المسيح لرفاييل وهي بالطبع قد قلدت بامتياز لتشابه الأصلية، أما الصورة الأخرى فهي للمسيح وهو مصلوب، لوحة كبيرة لمريم العذراء رافعة رأسها الى السماء مخاطبة الرب تتوسط الجدار، جمل باللاتينية كتبت على الجدران، شموع يبدو أنها لم تشتعل منذ سنين وجدت على مذبح الكنيسة بجانب مسبحة والكتاب المقدس.
و في الركن الأيمن وجدت مكتبة صغيرة ضمت بعض الكتب والمخطوطات.
وفي الركن الآخر كان يقبع أورغن عتيق ترك منذ سنين حتى كسته خيوط العناكب كأي شيء في هذا المكان.
رائحة الرطوبة كانت لا تطاق، وعكس بقية القصر فهذا المكان شبه مهجور، كأن أحدا لم يدخله منذ الأزل، وذلك عجيب فادوارد وآرثر يترددان على كنيسة القصر باستمرار خاصة آرثر فهو يزور الكنيسة كل ليلة، دعك من أنها تعرف اللورد ادوارد جيدا، فهو لن يسمح بتواجد أي ذرة غبار في أي ركن من أركان القصر حتى ولو كان الكنيسة، كان باستطاعته أن يرغمها على تنظيف المكان مرة كل أسبوع لكنه لم يفعل وذلك غريب.
كان بامكانه أن يجبر آرثر على فعل ذلك، لكنه لم يفعل.
كيف يستطيع اللورد ادوارد قضاء ساعات من وقته في مكان كريه الرائحة كهذا؟
إن هنالك شيئا ما.

كان هنا منذ البداية

أنزلت المصباح لترمق الأرضية التي كانت حجرية قديمة نقشت عليها بعض الكلمات أو لعلها كانت بعض الأسماء وكادت أن تصرخ عندما رأت صرصورا صغيراً يعبر في عجلة غير مبال بوجودها.
صفوف من الكراسي الخشبية الطويلة على اليمين والشمال، كتاب مقدس ملقى على احدى الكراسي باهمال وقد كساه الغبار،
اقتربت من الكراسي ولمستها فأزاحت طنا من الغبار، هذا عجيب فهذه الكراسي لم يجلس عليها أحد منذ مدة وقد زاد ذلك من حيرتها.
وببطئ واصلت السير متجهة نحو مذبح الكنيسة الذي غلفه الغبار هو الآخر،
وضعت عليه المصباح وأخذت تتأمل المكان من حولها.
دقات قلبها تتسارع...
تتسارع أكثر...
هناك خطب ما بهذا المكان...
ربما كان مسكونا، أو ملعونا كبقية القصر.
ربما الطابع الجنائزي هو السبب.
لا ربما الطابع الديني هو السبب
ربما الخوف هو السبب.
ربما الليل والظلام هو السبب.
لكن الليلة عليها أن تواجه مخاوفها قبل أن ينتهي كل شيء.
وقفت أمام المذبح تتأمل اللوحات الجدارية وقالت بصوت مرتعش:

- **مرحبا هل من أحد هنا؟**

لكن لم تسمع اي اجابة، فتنفست الصعداء وابتسمت قائلة:

- **يال حماقتي، لا يوجد شيء يثير الخوف هنا.**

وفور انهائها تلك الجملة سمعت صوت حشرجات وأنات مبهمة.

آاااااه

آاااااه

صوت قادم من بعيد، من جوف الأرض فتسمرت في مكانها من فرط الهلع والذعر وسألت مجددا بصوت قوي:

كان هنا منذ البداية

- هل من أحد هنا؟

ليجيبها صوت شبيه بغوغاء قادمة من قاع الجحيم:

- آه...المساعدة... المساعدة...

هنا أيقنت أنها لا تحلم ولا تتوهم، هناك شخص ما حبيس تحت الأرض يطلب المساعدة.

هل هو شبح أم وحش؟

واستجمعت كل قوتها وقالت وقد سرت القشعريرة بجسدها كأن أحدا يراقبها، كأن هناك أعين في كل مكان، كأن الأصوات ترتفع من تحت الأرض التي تقف عليها :

- سأحظر المساعدة... سأخبر اللورد ادوارد.

فتعالى الصراخ:

- لا... لا... ادوارد لا...

وتواصل الصراخ وهو يردد:

- لا... لا... لا...

أخذت نفسا عميقا وقررت أن ترحل، سوف تجري، وسوف تخبر اللورد...

لا ربما ستخبر ألكسندر لكن أين عساه يكون؟

ثم قررت أن تخبر المحقق بما سمعته.

ماذا لو قال في سخرية أنها تتوهم فهي مجرد طفلة مذعورة.

لا يهم ستجد حلا لكن عليها الآن أن تستدير وتهرع في المغادرة.

مدت يدها المرتجفة لامساك المصباح والانصراف لكنها أحست بشخص وراءها.

يتقدم...

يتقدم أكثر...

صارت تسمع أنفاسه .

صارت تشم أنفاسه الكريهة الممتزجة بالبصل واللحم المقدد.

هي تعرف تلك الرائحة جيدا انه...

قررت أن تستدير وتواجه مصيرها المجهول.

لكن ضربة قوية تلقتها من الخلف أفقدتها وعيها وأسقطها أرضا.

- آه يا زينا ما كان عليك المجيء الى هنا، لم أرغب في أن يحصل هذا.

هذا ما قاله آرثر بينما كان يحمل زينا ليخرجها من الكنيسة.

أشرقت شمس يوم جديد على قصر اللورد فيليب غاردنر ، استيقظت ايفا من نومها واتجهت نحو سرير الصغيرة أناستازيا.
تقدمت نحوها بابتسامة حنون وقالت:
- **يا عزيزتي الصغيرة، ها أنت مستيقظة.**

رفعتها وقبلتها وقالت:
- **ساذهب للمطبخ وأعد لك الحليب.**

لكن الصغيرة بدأت في البكاء.
- **لا تقلقي سأحضر لك الحليب.**

انها المرة الأولى التي تبكي فيها أناستازيا منذ أن بدأت ايفا في مجالستها لكنها لم تعر ذلك أي اهتمام وأخذت تحاول أن تسكت الفتاة الرضيعة التي أبت أن تكف عن البكاء.
- **عزيزتي ايكتي سأعد لك الحليب.**
- **الشرفة... البركة...**

فتسمرت ايفا في مكانها لأنها كانت تعلم أن الفتاة لم تنطق بكلملتها الأولى بعد، وقد شاءت الأقدار أن تنطق بأولى كلماتها في هذا الصباح بالذات وما أثار حيرتها أن الفتاة لم تنطق بكلمة واحدة بل بكلمتين ثم أخذت تردد:
- **الشرفة... البركة... الشرفة البركة.**

تعرف إيفا أن كلمات الأطفال الأولى غالبا ما تكون بابا أو ماما، أو مرحبا، أو الى اللقاء، حليب أو قط، أو كلمات أخرى غير مفهومة... أي شيء غير الشرفة والبركة، فهي لم تسمع قط عن رضيع كانت أولى كلماته الشرفة.

كان هنا منذ البداية

فأنزلت الرضيعة الباكية ووضعتها على السرير واتجهت مسرعة نحو الشرفة.
أزاحت الستار وفتحت النافذة لتعانقها نسمات الصباح الندية وتتسابق أشعة الشمس على تقبيل وجهها وقفت في الشرفة وتأملت كل شيء حولها الى أن سقط نظرها على البركة.
هل ما تراه حقيقي؟
فركت عيناها ثم أعادت التدقيق شيء يطفو في البركة كأنه كيس..
بالطبع ليس كيسا، بل كان أقرب لجثة آدمية عائمة فوق سطح الماء.
ومن هناك أصدرت صرخة مدوية جعلت المحقق جيمس سبنسر يهرع الى غرفتها ومن حسن حظها أنه كان قد استيقظ مبكرا غير ملابسه واستعد لمغادرة القصر رفقة زينا.
اقتحم الغرفة وتوجه نحو ايفا صارخا:
- **ماذا هناك هل انت على ما يرام؟**
- **هناك...**

وأشارت باصبعها نحو البركة:
- **أنظر هناك.**

اقترب أكثر ودقق النظر وصاح:
- **يا الهي هذا لا يصدق.**

واتجه في عجلة من أمره نحو البركة.
في الأثناء قابله ادوارد في الدرج متسائلا:
- **ما كل هذه الجلبة، أظن أني سمعت صراخا؟**

نظر إليه وقال:
- **البركة...**

وواصل الجري وقد تبعه ادوارد بخطوات مهرولة.
انتشل المحقق الجثة من البركة على مرأى من إيفا وادوارد وآرثر.
وقال بصوت حزين:
- **لقد ماتت زينا... نحن الآن أمام جريمة أخرى.**

فصاح ادوارد معارضا:

- **وما أدراك انها جريمة، ربما تكون قد انزلقت قدمها وتعثرت في المياه، أو ربما تكون قد قررت الانتحار؟**
- **أنا أوكد لك أنها جريمة قتل، ولا مجال للشك أنك أنت الفاعل.**
- **حذاري فأنا لا أسمح لك بأن تتهمني بجريمة اخرى وانت في ضيافتي حضرة المحقق.**
- **أنا لست في ضيافة أحد أنا هنا لتأدية عملي وحسب... لعلك تتساءل كيف عرفت انها جريمة قتل، لا بأس دعني أوضح لك.**

قطب حاجبه واستطرد بلهجة الخبير:

- **البارحة تحدثت الى زينا وأدركت أنها لم تكن راضية عن عملها في القصر فتاة غريبة في الثامنة عشر تقضي كل أيامها ببن جدران قصر منفي، وأعلمتها أني سآخذها برفقتي لدبلن حتى أستكمل التحريات معها وعن طبيعة عملها هنا، وقد سرت بخبر أنها ستغادر القصر ولن تعود له مجددا، ويال المصادفة نستيقظ في الصباح فنجد الفتاة غريقة في بركة القصر... بماذا تفسر كل هذا يا سيد ادوارد.**

تلعثم ادوارد قليلا ثم قال:

- **صدفة...**
- **صدفة حقا... هل تفسر كل هذا بالصدفة؟ ماذا عن وفاة ريتشارد أوكونور ، وفيليب غاردنر ، ودايزي عشيقتك، والآن خادمتك زينا، كل من حولك يموتون وتقول لي أنها صدفة...**
- **لا صحة لكلامك، لا يوجد اي دليل ستندم حضرة المحقق سأقاضيك على كل كلمة قلتها في حقي، فلا شيء ثابت...**

انتفض المحقق في مكانه وقال:

- **سنعلم بعد قليل ان كانت جريمة أم انتحار.**

ورفع الجثة حاملا إياها نحو المطبخ.

بكت إيفا على فراق زينا و توجهت نحو آرثر الذي جلس قرب البركة على الأرض وقد احمر وجهه الشحيم من فرط البكاء ليصير شبيها بقطعة هلام حمراء تتراخى، وضعت يدها على كتفه وقالت:

- **ارجوك كف عن البكاء...**
- **لقد كانت عزيزة على قلبي، لقد كنت أحبها بصدق لأنها تعدي أشهى شطائر اللحم المقدد والبصل، كانت الوحيدة التي تهتم لأمري في القصر.**

ثم سال خيط من المخاط من أنفه، مسحه بيده وقال:

- **أرجوك ايفا، اتركيني بمفردي، أريد أن أحزن على رحيل العزيزة زينا، لقد كنت أحبها بصدق.**

فتركته وعادت الى القصر.

مسح آرثر دموعه المزيفة ابتلع ريقه وحاول السيطرة على مشاعره قدر الإمكان. توجه إلى كوخه وتمدد على السرير وأخذ يفكر هو لم يتعمد قتل زينا بل هي من دفعته لذلك، ما كان عليها أن تدخل الكنيسة في ذلك الوقت، ما كان عليها أن ترتكب كل تلك الحماقات في تلك الليلة بالذات.

لكنها لم تترك له أي خيار لو لم يقتلها لانكشف السر وافتضح أمره وأمر اللورد إدوارد.

كان عليه أن يتخلص منها بأي طريقة بعد الذي سمعته، ضربها على رأسها فسقطت فاقدة الوعي، كانت ضربة واحدة ولم يكن هناك أي دماء، فأخذها لكوخه وتوجه مسرعا ليعلم اللورد إدوارد بما حدث، كان اللورد في مكتبه نائما على الأريكة فدخل عليه دون استئذان صائحا في هرع:

- **سيدي استيقظ لقد ألمت بنا مصيبة كبرى.**

فتح اللورد عينيه في تعجب سائلا:

- **ماذا تفعل أنت هنا، ما الذي جاء بك إلى مكتبي في هذه الساعة؟**
- **قلت لك انها مصيبة يا سيدي ، لقد افتضح أمرنا، لقد انتهى كل شيء، زينا دخلت للكنيسة وعلمت أمر ما نخفيه هناك...**

- **أتقصد؟**
- **أجل.**

نهض اللورد إدوارد وأمسكه من ياقة قميصه الصوفي صارخا في هلع:

- **لكن كيف، هي لم تدخل الكنيسة من قبل؟**
- **لا أعلم كيف لكني سمعت صوتا وتوجهت الى الكنيسة لأرى الأمر فوجدتها هناك، سمعتها تقول له أنها ستحضر المساعدة ففقدت السيطرة عن نفسي.**
- **يال المصيبة*!***

ووضع يديه فوق رأسه وعض شفتيه.

- **لا تقلق سيدي، فور أن رأيتها انهلت عليها وضربتها الى أن فقدت الوعي.**
- **أيها الأحمق... لا تقل أنك قتلتها؟**
- **لا لم أقتلها، لقد سقطت مغميا عليها لم يكن هناك دم...**
- **أيها الأحمق لا تقل أنك قتلتها؟**
- **لا سيدي، لم أفعل.**

انتفض اللورد ادوارد من على الأريكة واتجه مسرعا نحو الكوخ ليجد زينا مرمية على السرير كجثة هامدة، تحسس اللورد إدوارد نبض معصمها لكنه لم يجد شيئا، وضع يده على شريانها السباتي فعلم أنها قد فارقت الحياة.

- **حقير لقد فعلتها...**
- **لكني لم أقصد.**
- **مصيبة كبرى، ما الذي كانت تفعله اللعينة في الكنيسة؟**
- **صدقني لا اعرف.**
- **ما الذي سنفعله الآن، نحن أمام مصيبة كبرى، لن نستطيع دفنها أو التخلص منها فذلك المحقق الحقير يبحث لي عن أي زلة ما، يريد أن يزجني في السجن من أجل جريمة لم أقترفها، والآن سأقبع في السجن حقا... ماذا سأفعل؟**
- **هدأ نفسك سيدي فأنت لم تفعل أي شيء.**
- **يجب أن نتخلص من الجثة بأي طريقة.**
- **لما لا نرميها في البركة؟**

نظر اللورد إدوارد الى آرثر وقال:

- **وماذا عن المحقق؟**
- **سيقول إنه حادث أو انتحار.**

وضع اللورد إدوارد راسه بين يديه، فكر قليلا ثم قال:

- **في هذه الأثناء لا يوجد لدينا حل غير هذا، وآمل أن يظن أنها قد انتحرت.**
- **وإن لم يفعل..**
- **ان لم يفعل فهو لن يخرج من القصر أبدا.**

دخلت ايفا القصر واتجهت نحو اللورد إدوارد الجالس في ركن منزو على الأريكة وقالت:

- **آسفة على الذي حصل...**

فهز رأيه دون أن يقول شيئا، فسألته:

- **أين المحقق، ماذا سيفعل بالجثة؟**
- **وضعها في المطبخ وأغلق الباب وحذرني من الاقتراب.**

كان هنا منذ البداية

- حسنا.

ثم صعدت الدرج فاستوقفها اللورد قائلا:

- الى أين؟

- سأوقظ ألكسندر يجب أن يعلم بما حدث.

- لا تفعلي، هو لن يستيقظ.

- اذا سأعلم الليدي لينور.

- هي أيضا لن تستيقظ.

- سأحاول...

فصرخ في وجهها:

- آمرك ان لا تفعلي، ستندمين ان اقتربت من أي من تلك الغرف، مفهوم!

فتقهقرت الى الوراء.

- آسفة حضرة اللورد، سأصعد الى غرفتي.

ألقى المحقق جيمس سبنسر بجثة زينا على طاولة المطبخ، نزع ثيابها بالكامل وأخذ يتأملها في دهشة، من كان يظن أن تلك الفتاة ستلقى حتفها بهذه الطريقة المريبة، يال المسكينة. كانت زينا هنا البارحة تعد الطعام وتقطع اللحم والخضار على هذه الطاولة.

لم يكن هناك توتر رمي في أصابع الضحية أو جسمها وذلك خير دليل على أنها قد لاقت حتفها ثم ألقيت في البركة ثم استجمع قواه وقال:

- الآن سنعرف يا ادوارد ان كانت عملية قتل أو انتحار.

كان هنا منذ البداية

لم يخطر في بال المحقق جيمس سبنسر يوما أنه سيقوم بعملية تشريح غاية في البدائية وفي مطبخ قصر قوطي قديم دون استعمال ادوات طبية.
تبا كم ذلك مثير فهو لم يقرأ عن ذلك حتى في أشهر الروايات، ثم حمد الله أنه يعرف الكثير عن أمور التشريح تلك وكل ما يحتاجه هو بعض معدات المطبخ البسيطة.
في البداية لبس مئزر المطبخ المعلق الخاص بزينا حتى لا يلوث ملابسه بالدماء.
شمر عن ساعديه وجهز وعاء متوسط الحجم، وقدرا كبيرا مليئا بالماء، ثم أحضر عديد الشراشف وملاءة وسكينا كبيرة حادة، ثم بحث عن ابرة وبكرة خيط في كل الرفوف والأدراج لكنه لم يجد شيئا، فقال:
- لا بأس لن أعيد خياطة الجثة بعد التشريح.
أخيرا سيطبق ذلك العلم الذي درسه وظن أنه لن ينفعه في شيء، لقد حانت اللحظة التي سيثبت فيها للجميع أن ادوارد هو الفاعل.
يذكر المرات القليلة التي دخل فيها المشرحة في فترة التدريب أو في حالة معاينة لبعض الجثث، ويستطيع القول أنه قد اكتسب خبرة لا بأس بها في تلك الأمور، خبرة تفي في أن تجعله يدرك إن ماتت الفتاة منتحرة أو مقتولة.
شق الرأس بطريقة عرضية حتى يتفحص الدماغ وقد كانت الحقيقة واضحة أمام عينيه وضوح الشمس هناك تهشم في النصف الأيمن من الجمجمة أي أنها قد تلقت ضربة على رأسها وقد أحدثت تلك الضربة نزيفا داخليا كان سببا للوفاة.
ثم وضع قطعة عظم الجمجمة المهشمة في الوعاء وأخذ يتحسس كتلة الدم المتجلطة ويمسح بالشراشف الدم السائل على الطاولة.
تنهد ثم قال:
- الآن سنعلم إن كانت قد ألقيت في البركة حية أو نافقة.
أخذ السكين الملطخة بالدماء ثم شق شقا طوليا يتوسط صدر الضحية وأخذ يزيح الجلد من على الجانبين حتى يتراءى له القفص الصدري.
وبصعوبة وبعد جهد كبير تمكن من قطع القفص الصدري، ووضعه جانبا ثم انتزع الرئتين.
أمسكهما بعد عناء طويل ووضعهما في القدر المملوء بالماء.

فهو يذكر جيدا درس التشريح الخاص بالرئتين والغرق.
ان غرقت الرئتين في قاع القدر فهما مليئتان بالماء وذلك يؤكد أن الفتاة قد لقيت مصرعها في البركة ودخلت كمية الماء الى رئتيها حتى فارقت الحياة.
أما ان طفت الرئتين فوق سطح الماء فذلك يؤكد أن الرئتين مملوئتان بالهواء وأن الفتاة قد ألقيت في البركة بعد أن فارقت الحياة.
وبالطبع لقد كان شكه في محله وإذ بالرئتين تطفوان فوق سطح الماء.

- **لقد فعلتها يا ادوارد وقتلت الفتاة المسكينة.**

غسل يديه في الحوض جمع أشلاء الفتاة والمئزر الذي تحول لونه من أبيض الى قرمزي ووضعهم في كيس بلاستيكي، ثم غطى الجثة بملاءة كان قد أوجدها مسبقا لهذا الغرض، نظف المكان ثم خرج بعد كل هذه الساعات التي بدت لإدوارد كأنها سرمدية.
فقال ادوارد مهللا:

- **نحمد الرب أنك خرجت من المطبخ، أتمنى أن تكون قد أعددت لنا الفطور فمعدتي تتضور جوعا.**

ابتسم المحقق ابتسامة تعكس اشمئزازه كأنه يقول " لم أتوقع أن تكون لعينا لهذا الحد" وانصرف مناد على آرثر.
فاسترق اللورد ادورد الفرصة ليرى ماذا كان المحقق فاعلا بالجثة في المطبخ، فرأى جثة زينة مغطاة بملاءة والى جانبها كيس بلاستيكي أسود ولن يخفاكم ان الرائحة كانت لا تطاق، وقد أحس ادوارد بالغثيان.
لكنه اقترب وازاح الملاءة من على الجثة ليشهد مشهدا لم يرى مثيلا له حتى في الأفلام.
زينا بقفص صدري مفتوح ومخلي .
فتقهقر ثم وقع ليتقيأ على الأرض ثم لاذ بالخروج وهو يدوي كالمجانين:

- **أيها المعتوه أيها المختل لقد نكلت بجثة المسكينة.**

فجاءه جيمس مبتسما:

- **طلبت من آرثر أن يحفر حفرة لأدفن فيها الجثة، ستصل الشرطة وأعلمهم بكل شيء وعن قريب ستتعفن في السجن وتعترف بكل جرائمك يا ادوارد.**

- معتوه، أنا لم أفعل شيئا، صدقني لم أقتل دايزي ولم أقتل زينا، صدقني أنا لا أكذب.

ثم ركع باكيا على الأرض طالبا الغفران.

- المحكمة ستنظر في هذا، حتى أفضل المحامين لن ينقذك من مأزق كهذا.

توجه جيمس سبنسر إلى سيارته مسرعا وقد كانت شكوكه صحيحة، بالطبع هي لا تعمل، كان يظن ان هذا يحدث فقط في الأفلام، لكن حظه عاثر،

- ادوارد سوف تندم على كل شيء.

أغلق غطاء السيارة بعنف بينما يسخط ويسب.

ذهب ليرى سيارة ألكسندر لكنها كانت أيضا لا تعمل، وقف في حيرة من أمره يفكر في حل للخروج من هنا، هو الآن حبيس في قصر بعيد عن كل متطلبات الحضارة، بالطبع لا يوجد هاتف ولا جيران ولا حتى عربة تقودها الأحصنة، والحل الوحيد هو عبور الغابة لغاية الوصول للطريق الرئيسية حتما سيجد هناك سيارة تقله إلى دبلن، لكن لو غادر وترك ادوارد بفرده فبالطبع سيهرب.

لم يفقد جيمس الأمل وحاول الاتصال بقسم الشرطة عن طريق جهاز الراديو:

- استغاثة... استغاثة... انا في مأزق...

لكن ذبذبات كانت مشوشة، لم يتمكن من سماع أي صوت عدا ذلك الأزيز المتقطع الذي يصم الآذان وهنا أدرك أن استغاثته لن تصل لقسم الشرطة، ريما سيفتقده الأعوان ويأتون بحثا عنه لكن متى وكم سيطول انتظاره فهو لا يعلم

ألقى بجهاز الراديو وجلس على الأرض يضرب رأسه على السيارة ويقول:

كان هنا منذ البداية

- **لن أدعك تربح أيها المعتوه، لن أموت في هذا القصر أبدا.**

على الساعة العاشرة ليلا توجه جيمس سبنسر إلى غرفة الليدي لينور حتى يتحدث معها عن ما يحدث في القصر، فتحت نافذة الغرفة ووقفت لتستمتع بضوء القمر المهيب ووقف جيمس بجانبها وأخذ يحدق في الحديقة والبركة والكنيسة وكوخ آرثر:

- **ليدي لينور، ساعيديني أنا عالق في القصر، يجب أن أعود الى دبلن، زوجك أتلف كل السيارات...**
- **كلنا عالقون في القصر.**

أجابته في برود بينما كانت تحدق في القمر.

- **انه مجرم، انه مختل سنموت جميعا.**
- **الكل سيموت يوما ما.**
- **لينور... لينور...**

لكنها لم تجبه.

كان هنا منذ البداية

7

ما كان على المحقق جيمس سبنسر يومها أن يتجاهل أوامر اللورد إدوارد ويذهب لغرفة ألكسندر في ضوء النهار.
تأكد من أن لا أحد يراقبه وهو يدخل أدار القبضة وفتح الباب كان يعلم أن ألكسندر لا يغلق باب غرفته بمفتاح فقد شاهد زينة تدخل للغرفة حتى توقظه للعشاء، عندها عرف أن الدخول سهل، هؤلاء القوم فقدوا الحاجة للخصوصية، فهم يهنؤون بحياة خالية من شخص متطفل يتسلل الى غرفهم من أجل استعارة شيء أو البحث عن شيء ما وهذا بالطبع من حسن حظ جيمس سبنسر.
أن تدخل غرفة شخص ما، يعني أن تدخل عقله، أن ترى عالمه الخفي الخاص، أن ترى تلك النسخة الهشة منه.
أن تعرف ماذا يحب وماذا يكره، هل عساه يكون من هواة جمع الألعاب أو المجلات المصورة، أو ذلك الصنف من المجلات البذيئة.
ربما كان ينام في تابوت، أو ربما كان يتمدد على الأرض بين عشرات الشموع ممارسا السحر الأسود.
على الأرجح ستكون لديه مزهرية ثمينة يزينها على الطاولة وسيوقعها جيمس سبنسر عندما يدخل متسللا كالسارق ثم يقع في مأزق مع الصبي.
أو ربما ذلك يحدث فقط في الأفلام.
أغلق جيمس باب الغرفة وها قد صار الآن في ملكوت ألكسندر أوكونور ذلك الشاب غريب الأطوار.
لن يخفاك أن رائحة كريهة قد استقبلته كأنها رائحة...جرذ ميت.
فتساءل في حيرة من نفسه:

- **كيف لإنسان عاقل أن يعيش في مكان قذر كهذا؟**

بالفعل لقد كان هناك جرذ ميت تحت السرير كأن كلبا مسعورا قد عضه وشرب كل ما فيه من دم.
كسيت الجدران بصور ممزقة لفرق الموسيقية، كأن ألكسندر قد مزق كل هذه البوسترات في حالة هيستيريا عارمة.

ثم انتبه جيمس لصورة بولارويد باهتة لفتاة ذو شعر أرجواني ألصقت فوق السرير.
كان هناك مكتبة فيها العديد من الكتب كلها عتيقة أو من أول إصدار، اله الخواتم، الرجل الخفي، ساحر أوز، صورة دوريان غراي ...
وغيرها من العناوين، دقق المحقق في هذه المكتبة الفريدة فهو لم يلمس كتبا عتيقة ذو قيمة حقيقية من قبل، بأغلفتها الجلدية يدوية الصنع ورائحة الورق المصفر التي تبعث الحنين إلى الماضي، حتى وقع نظره على قصة صغيرة للوفكرافت بعنوان " الوحش في الكهف" وقد ظن جيمس أنه قرأ هذه القصة من قبل لكنه وجد صعوبة في تذكر تفاصيلها رغم صغر حجمها، تأملها ثم أعادها لمكانها.
اقترب من المكتب الذي كومت فوقه بعض الرسوم المعمارية الغير مكتملة، وصورة لألكسندر وهو صغير صحبة والديه وجده كانت قد التقطت أمام كنيسة القصر.
ثم توجه جيمس نحو الخزانة وقرر أن يفتحها، بالطبع لن يكون هناك جماجم أو هياكل بشرية، ولن تكون أيضا مليئة بالوطاويط لكن لا بأس في إلقاء نظرة عنها.
اقترب من الخزانة فلاحظ على المقبض قطرات ناشفة من الدماء...
إذن فعليه أن يتحضر للأسوأ.
عد لثلاثة ثم فتح الخزانة.
لكن لم يكن هناك اي شيء عدا الرائحة العفنة.
بدلات سوداء معلقة، سترات جلدية سوداء ، قمصان سوداء، سراويل سوداء...
وخلف ذلك المعطف الطويل لاحظ كيسا بلاستيكيا أسودا فأخرجه وفتحه ليجد فيه مجموعة أكياس دم بلاستيكية فارغة فاحت منها رائحة العطن والتحلل، وتحمل الأكياس ملصقات كتبت عليها معطيات خاصة بزمرة الدم وشعار مستشفى القديس جيمس بدبلن .

- **تبا، حتى وإن كان ألكسندر يعاني من فقر الدم مثل ما يدعي، فشرب أكياس الدم هذه لن يصنع المعجزات.**

أغلق الخزانة، وقرر الخروج فلا شيء مثير للانتباه في هذه الغرفة المقززة.

وعندما استدار لمح ألكسندر ممدا على السرير وقد بدا له أن ملامحه قد تغيرت لتماثل ملامح أولئك الذين قضى حياته يقرأ عنهم...
مصاصوا الدماء.
شحب وجهه وازداد بهتانا وبياضا وزحفت عليه عروق زرقاء غليضة، فتح فمه فبرزت أنيابه الحادة،
وأصدر فحيحا ترتجف له الأجساد، ثم شهد يده المخشبة ترتفع بأظافرها الطويلة المدببة كالعاج ليشير على الباب وهو يقول بصوت جهوري تكرر صداه في أرجاء الغرفة:
- أهرب قبل فوات الأوان... قبل فوات فوان الأوان... الأوان.
وبسرعة هرع المحقق جيمس للخروج من الغرفة دون أن ينظر وراءه أو يحاول فهم ما حدث.
وفي تلك اللحظة بعد أن أخذ شهيقا وزفيرا واستعادت دقات قلبه انتظامها المعتاد، أشعل سيجارا وبدأ يربط الأحداث ببعضها.
لقد كان مخطئا عندما ظن أن تلك الروايات مجرد خيال أدبي لا غير، بل ما تريه العجائز للصغار هو الحقيقة، مصاصو الدماء حقيقيون، الأرواح المعذبة حقيقة، اللعنات تسكن القصور لتكدر سلام من يقطنها، الجدات لا يكذبن على الإطلاق والآن هو على يقين بأنه لا يهذي وما شهده في هذا القصر منذ قدومه هو خير دليل على هذا، الآن لقد صار يعرف السر الذي يخفيه ألكسندر ولينور، طبعا لو كان لادوارد دراية بالموضوع لثرثر عنه أو زل لسانه بكلمة فهو من ذلك الطراز من الرجال الذين يدعون المعرفة في كل شيء.
كلاهما مصاص دماء، ربما لا أحد يعلم عن هذا السر شيئا.
القصر ملعون.
الفتاة الصغيرة نذير شؤم.
وادوارد قاتل متسلسل.
أما هو فعليه أن يفر بجلده قبل فوات الأوان.
لو كانت سيارته تعمل لما مكث في القصر لدقيقة أخرى، تبا لادوارد وكل هذه المتاعب وحينها أدرك أنه قد بقيت معه ورقة أخيرة ليرميها، إما أن يحل القضية

أمام الجميع وينال الترقية وشرف حل هذه الجريمة المتشعبة أو يموت كأنه لم يكن، ربما سيقال أنه كان شهما بطلا ضحى بحياته من أجل اكتشاف الحقيقة وستنال زوجته مبلغا ماليا يضمن لها عيشا كريما.
نهاية تبدو مرضية في كلا الحالتين ولا مهرب له سوى في المجازفة بالورقة الأخيرة.
وعند غروب الشمس توجه لغرفة ألكسندر لعلمه بموت زينا ثم قال:
أنا أعرف من تكون، لكني لن أوذيك.
كان ألكسندر يروح ويجيء في الغرفة دون أن ينبس بكلمة ثم رفع رأسه الى السقف وقال:

- **كم كنت أرغب في أن أقول لك أن اسمي ألكسندر أوكونر، وأنا مصاص دماء، عمري مائتا عام أو ربما ثلاث مائة حتى تبدو القصة مثيرة لك ثم أبدأ في الحديث عن بوطولاتي ومغامراتي وعدد الأشخاص الذين شربت دماءهم، لكن للأسف أيها المحقق لن تسمع هذا، أنا فقط مجرد معتوه ثري شارف على الموت ثم تحول لمصاص دماء منذ بضع سنوات، كنت في مقتبل العشرينات من العمر ها أنا لا زلت عشرينيا ودائما سوف أظل... ولا تقلق فأنا لن أؤذيك، فليس كل مصاصي الدماء أشرار.**
- **أعلم، أنك شخص جيد، أنت ووالدتك لينور أعلم أن كل ما قلته عن ادوارد صحيح، وبعد وفاة زينا يجب أن نضع حدا لكل هذه الجرائم، سيارتي معطلة، وسيارتك أيضا، وإن لم نفعل شيئا فكلنا سنموت، يجب أن نتحد أنا وأنت حتى نوقف ذلك المجنون عند حده.**
- **اذا انت تصدق أن ادوارد هو من قتل والدي وجدي وزينا؟**
- **أصدق كل شيء، فقط يجب أن أعثر على دليل الليلة، خيط يعجل ادوارد يعترف بكل تلك الجرائم.**
- **وإن لم تعثر على هذا الدليل؟**
- **ان كان لمصاصي الدماء واللعنات وجود، اذا فهناك وجود للمعجزات أيضا فقط ثق بي ونفذ كل ما اطلبه....**
- **كلي آذان صاغية حضرة المحقق.**

- **أنت قادر على الذهاب للمدينة، اذهب لقسم الشرطة في دبلن وأخبرهم أني عالق في قصر اللورد فيليب غاردنر مع مجرم مجنون، ولا تعد إلا ومعك سيارة شرطة.**
- **ماذا عن لينور؟**
- **لا تقلق كل من المنزل تحت حمايتي، لن يمسهم أي مكروه، سأحرس الجميع الليلة، فقط اذهب بسرعة.**

فتح ألكسندر النافذة وتحول لوطواط سرعان ما اختفى في لمح البصر.

8

لينور...

لينور...

لينور...

لقد كانت تسمع ذلك الصوت كل ليلة وهو ينادي لينور...

لكنها كانت تعلم أنها تهذي، ربما لقد كان الذهان قد أصابها.

أو الخرف.

من قال أن الأثرياء حياتهم وردية.

توفيت والدة لينور عندما كانت في الرابعة من عمرها وهي الآن بالكاد تذكر عنها شيئا، كل ما تبقى من ذكرى والدتها هي المجوهرات والملابس وبعض الصور الباهتة والحكايات التي كان يرويها اللورد فيليب غاردنر.

لم يرغب اللورد فيليب في أن يتزوج ثانية وقرر أن يكرس حياته لإبنته الوحيدة لينور، أحبها حبا غير مشروط، حبا لن يتقاسمه معها أي شخص آخر، منحها كل شيء استحقته المال والثروة، التعليم والحب.

عمل جاهدا حتى يجعلها سعيدة ويعوض لها حنان الأم الذي لم تنعم به منذ صغرها وكان دائما يقول:

- **لقد كبرت يا عزيزتي وصرت جميلة مثل أمك.**

كانت لينور تعني له كل شيء في الحياة، لا يريد من العالم شيئا غير سعادتها، يفعل أي شيء من أجل ابتسامتها ويحارب كل شرور الكون ان سقطت دمعة من عينها.

كان يعلم مصلحتها أكثر من أي شخص آخر وقد وعدها بأن يظل الى جانبها ويحميها حتى الممات.

رتب لها زواجا تقليديا مع ريتشارد أوكونور وكان يؤمن أنه الرجل المثالي والمناسب لابنته، وعند بلوغها سن العشرين لم تعترض هي الأخرى على فكرة الزواج من ريتشارد، فقد أعجبت به عندما رأته في عشاء خاص كان وسيما ودودا من أسرة ثرية مرموقة صاحب جاه ومنصب ولن تجد زوجا أفضل منه، أحبها وكرس نفسه لإسعادها وقد كان ألكسندر ثمرة ذلك الزواج.

لكن تلك السعادة تلاشت عندما توفي ريتشارد.

صارت حزينة طيلة الوقت تحس بالفراغ من حولها كأن جدران القصر انكمشت على جسدها، تمنت لو كان هناك شخص ليسمعها لينسيها ألمها وحزنها ولينسيها حادثة الموت تلك.

وقد كان ذلك الشخص هو ادوارد ماكغريغور.

ظل يسمعها لساعات وهي تتحسر عن ذكرياتها مع ادوارد حتى نشأت بينهما صداقة، طأطأ على كتفها وقال أن كل هذا الحزن لن يدوم.

مسح دموعها عندما كانت تبكي.

احتضنها وركع على ركبيته طالبا الزواج بها قائلا:
- ان وافقت سأجعلك أسعد امرأة في العالم كله.
ومن دون أن تبدي أي اعتراض وافقت دون تردد.

لينور...
لينور...
أصبحت لينور ضائعة، تعيش في ظلام مقيت.
تحولت حياتها الى تعاسة لن تزول، وزادت بها حالة الاكتئاب منذ ذلك اليوم المشؤوم، ولادة أناستازيا واختفاء اللورد فيليب وتحولها الى مصاصة دماء، كل تلك الأحداث بالطبع هي ليست مجرد صدفة، فقد زرع فيها ادوارد بذرة الشر لتأتي ويعم الخراب على العائلة كلها.
زواج غير مبارك منذ بدايته قاد والدها الى حتفه وقادها هي نحو العدم.
لم ترغب لينور في ان تعيش حياة مصاصي الدماء تلك، فهي تعلم الكثير عنهم، حدثتها جدتها وهي صغيرة عن مصاصي الدماء قائلة أنهم أموات بعثوا للحياة

مرة أخرى بسبب عدم عمل طقوس الدفن بشكل صحيح، قالت لها أنهم يجوبون ايرلندا ليلا بأكفان باحثين عن فريسة آدمية جديدة.
وكانت لينور تؤمن بأن ذلك صحيح.
ما الفائدة في أن تواصل العيش وقد فقدت الرغبة في ذلك؟
كل شيء يقول أنها صارت من الأموات، جسدها صار واهنا، قلبها ينبض ببطئ وبد يفقد القدرة على الحب والاحساس ببهجة الحياة، عزفت عن الخروج واكتفت بالنوم كالاموات، غذائها صار كيس الدم الذي يحضره ألكسندر من وقت الى آخر ولا شيء غيره.
كانت تتظاهر بالأكل عندما يصر ادوارد على ذلك، لكن لا شيء كان يشبعها غير تلك القطرات الصدئة الدافئة.
لو لم تكن تحب ادوارد لانهالت على عنقه في أحد الليالي وشربت دمه حتى الانتشاء، طالما راودتها تلك الفكرة لكنها فعلت كل ما بوسعها حتى تقاومها، فعلت كل شيء حتى تحميه من نفسها.
صدته لأنها تحبه.
ادعت المرض حتى يهجر عش الزوجية ويبحث عن أخرى لتسليه، لكنها كانت تتألم، وتتعذب.
وتدريجيا تموت.
أصبح يقضي معظم أيامه في دبلن بينما تتخبط هي في وحدتها منتظرة كيس الدم المعهود.
لم ترغب في أن تتعامل مع البشر خوفا من أن تؤذيهم، فهي لم تتجرأ على قتل جرذ حتى فما بالك بكائن آدمي.
صدت زينا عندما حاولت التقرب منها لأنها لم ترغب في أن تلقى تلك المسكينة حتفها على يدها.
طلبت من ادوارد أن يعيدها من حيث جاءت لكنه أحجم وأصر أن تظل زينا في القصر.
أسفت لينور على موت المسكينة زينا.
أما هي فنهايتها ستحين عما قريب.

لينور...
لينور...
إن ذلك الصوت يناديها من جديد.
تسمعه كل ليلة منذ سنتين، شبح والدها يطاردها في اليقظة والحلم،
ثم قالت:

- **الليلة يجب أن أضع حدا لهذا الهذيان.**

تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، نهضت لينور من السرير، وضعت قدميها في الشبشب ذو الفرو وأخرجت كشافا من الدرج وخرجت من الغرفة دون أن تثير أي ضجيج.
تجولت في أرجاء القصر لعلها تجد مصدر ذلك الصوت، فبدى لها أن الجميع نيام ولم تسمع أي صوت أو جلبة.

كان هنا منذ البداية

ربما ادوارد نائم الآن، أو عساه يكيد لجريمة قتل جديدة.
وعلى الأرجح أن المحقق يغط في نوم عميق فقد تلفت أعصابه جراء ادوارد.
ايفا نائمة في غرفتها مع أناستازيا.
وألكسندر غير موجود مثل كل ليلة.
خطت لينور بخطى حذرة نحو الحديقة وقد بدأ الصوت يقترب.
- **آه... آه... المساعدة.**

بدى لها أن الصوت قادم من تلك الكنيسة الصغيرة.
ثم تذكرت أنها قد رأت آرثر كذا مرة يدخل الكنيسة مع بعض الطعام، كيف لذلك الأحمق أن يتناول العشاء في الكنيسة يقضم الشطيرة بينما يقلب صفحات الإنجيل بأصابع يتقاطر منها الدهن ويطلب الغفران من الرب.
اجتازت باب الكنيسة ومشت في الممر، فهي لم تدخلها منذ ثلاثة أعوام، من أن ارتدت ثوبها الأبيض وأمسكت يد ادوارد وقالت في فرح غامر:
- **أجل أقل الزواج بك.**

ثم قبلته قبلة حارة.
كان أهناك أكاليل من الورود البيضاء وكان المكان جميلا نظيفا يطمئن له القلب لكن الآن لقد صار مقفرا مهجورا، مظلما كحياة لينور.
لم تكن كثيرة التردد على الكنيسة في سنواتها السابقة، بل كانت ترتاد عليها رفقة والدها في الأعياد الدينية لتتلو الصلوات والتراتيل.
لكنها تذكر أن والدها كان رجل متدينا يزور الكنيسة بانتظام كل يوم أحد حتى يتلو صلواته يتضرع المغفرة عن ذنوبه.
وبعد زواج لينور صار اللورد فيليب غاردنر يقضي كامل وقته معتكفا في الكنيسة طالبا من الرب أن يصلح حال ابنته ويحميها من كل الضغائن.

آه.
لينور...
لينور...
الصوت يتصاعد.
اذا هي ليست بتخيلات، فسألت:
- **هل من أحد هنا؟**
- **آه... آه.**

رفعت الكشاف لعل تعثر على مصدر صاحب الصوت، لكن المكان بدا خاليا لم تطأه أي ساق بشرية منذ سنين.
اقتربت من المذبح لتدرك أن الصوت قادم من الأسفل، نظرت يمينا ويسارا يجب أن يكون هناك باب يقود إلى الأسفل.
انه من دون شك تحت مذبح الكنيسة.

استجمعت قوتها وأبعدت المذبح الخشبي المنقوش بالذهب وكان شكها في محله، كان هناك باب خشبي يؤدي الى سرداب.

- **من هناك...**
- **المساعدة... آه...لينور...**

ارتجفت لوهلة وتسمرت في مكانها، كأنها تعرف صاحب ذلك الصوت، لا بل هي تعرفه حق المعرفة، لكن ذلك محال، غير معقول.

افترضت أن يكون هناك قفل كبير يغلق الباب باحكام وستقضي الساعة الأخيرة قبل شروق الشمس وهي تبحث عن مفتاح أو وسيلة لفتح الباب وكسر القفل.

لكن لحسن حظها كان الباب الخشبي مغلقا بمزلاج صغير، فتحته واخذت الكشاف لتلقي نظرة في الأسفل.

- **من هناك؟**
- **لينور، عزيزتي، لينور أنا هنا...**

انه هو من دون شك، لكن كيف؟ الجميع يعلم أنه ميت، لقد مات منذ سنيتين... هذا غير منطقي.

هي تحلم، هي تهذي هي تتوهم، هي متعطشة للدماء، لقد عبرت الخط بين الحقيقة والجنون لتعانق البعد الرابع.

- **عزيزتي لينور...**

الطريقة الوحيدة لتعرف الحقيقة هي أن تنزل بدورها إلى القبو وتكتشف حقيقة صاحب الصوت.

تذكرت لينور أن ابنها ألكسندر قد حدثها ذات مرة عندما كان طالبا في كلية الهندسة عن الهندسة المعمارية للقصور القديمة قائلا أن الحاجة قد شاعت للسراديب الحجرية تحت الكنيسة منذ العصور الوسطى وذلك بغرض وضع التوابيت والأضرحة والذخائر أو حتى لتخزين الأموات، وكمثال عن ذلك أخبرها عن زيارته كنيسة القديس ميشان *St Michan* في دبلن أين وجدت أربع مومياوات محنطة في توابيت داخل سرداب الكنيسة ويعود عمرهم لما يقارب الألف سنة ويعود بعضهم لجنود الحروب الصليبية ومن بينهم مومياء كانت تلقب بالسارق لأن كان لها ساقا وذراعا مبتورتين كعقاب للسرقة، وكان هناك جماجم

مبعثرة في الغرف على الأرض، وأضاف أن الكاتب برام ستوكر قد زار تلك الكنيسة بحجة أن أفراد عائلة والدته قد دفنوا هناك، وأكد لأصدقائه في ذلك الوقت أنها مسكونة، كما أن بعض زوار الكنيسة يؤمنون بذلك وشوهدت فيها عديد الظواهر الخارقة للطبيعة، هناك من سمع أصواتا وهناك من سمع أحدا يناديه وهناك من أحس بشخص يلمسه، هناك من سمع شخصا يهمس بأن الأرواح التي في الكنيسة معذبة لن ترتاح.

لكن لينور ابتسمت ورجحت أن كل هذه مجرد خرافات، فسألها الكسندر ان كان هناك سرداب في كنيسة القصر أم لا، لكن في الواقع كانت لا تعلم شيئا عن ذلك الموضوع وطلبت منه أن يسأل جده.

ربما ما قاله ألكسندر عن السراديب صحيح فالصبي يعرف العديد من الأشياء، ربما هذه الأصوات التي تسمعها لينور هي مجرد أصوات لأرواح معذبة لن تجد سبيلا للراحة والخلاص.

- لينور... أنا هنا، أنقذيني.

فجمعت شجاعتها وقررت أن تنزل الدرج.

رائحة كريهة غاية في القذارة، الرطوبة والقذارة ومزيج من الفضلات البشرية والجرذان الميتة وبالذات خيوط العنكبوت التي غطت المكان، كان هناك تابوت مفتوح فارغ متروك منذ سنين، واصلت السير موجهة الكشاف لنهاية الممر حيث تمكنت أخيرا من سماع الصوت عن قرب.

- لينور، كنت أعلم أنك ستأتين لانقاذي، أنا أحتضر منذ مدة طويلة، أنا أتعذب منذ سنين.

فشهقت وأوقعت الكشاف على الأرض .

ثم جثت على الأرض وبحرقة بدأت بالبكاء.

- أبي، انت حي كل هذا الوقت.

رفعت الكشاف لتدقق في ملامحه التي ابلاها الوهن والمكوث في السرداب لحيته صارت كفة وشعره الأبيض استطال ليجعله أشبه بالوحش في الكهف كسته القذارة واتسخت وتمزقت ثيابه، صار هزيلا نحيلا كمساجين المعتقلات النازية.

- **لينور... أخيرا جئتي من أجلي... انه ادوارد من فعل بي كل هذا، لن يتركك تعيشين في سلام.**
- **الجميع ظن أنك قد مت، غير معقول... ادوارد مجرم، لم أكن أعلم حقيقته.**

وانفجرت بالبكاء.

فقال اللورد فيليب غاردنر بأنفاس متقطعة وهو يسعل:

- **زوجك من حبسني هنا في تلك الليلة عندما انشغلنا بأمر ولادتك، اعترف أنه من قتل ريتشارد وأنه لن يقتلني بل سيجعلني أتعذب متمنيا الموت، لقد هددني بذاك مرارا لكن لم أظن للحظة أنه قادر على ان يفعل هذا بي.**
- **ليتني أصغيت الى كلامك منذ البداية، ليتني رأيته على حقيقته.**
- **انت اول من خدعك لقد تعمد قتل ريتشارد حتى يدخل لحياتك ويستغل لحظة ضعفك.**

مسحت دموعها وقالت:

- **يجب اخراجك من هنا.**
- **صحتي تدهورت كثيرا، لم أعد قادرا على السير، أعاني صعوبة في التنفس، كادت حبالي الصوتية تتمزق من فرط الصراخ على أنل أن يسمعني شخص ويأتي لانقاذي**

فاحتضنته:

- **آسفة لأني تأخرت في المجيء.**

وأخذ يترنح من أجل الوقوف:

- **صحتي يا لينور، أنا غير قادر على الوقوف..**
- **اتكئ علي، لا تقلق كل شيء سيثير على ما يرام، هيا ببطء سنخرج من هنا ونطلب المساعدة.**
- **آرثر يعرف كل شيء، هو من يحضر لي الطعام كل ليلة، وعندما أتشاجر مع ادوارد أحرم من تلك اللقيمات لأيام، هو كلب وفي لادوارد.**

فشهقت بالبكاء.

- **آه، لقد كنت أعيش كذبة مع ذلك الوغد! آسفة لأني جعلتك تمر بكل هذا.**

صعدا الدرج وخرجا من السرداب لتكون المفاجأة في انتظارها.

كان إدوارد جالسا على أحد الكراسي الخشبية وبيده كشاف ويقف الى جانبه آرثر.
اتسعت عيناها وقالت:

- **اد...ادوارد.**
- **مفاجأة أليس كذلك.**
- **كيف تجرأ، يا لك من حقير، وأنت يا آرثر، لماذا فعلت كل هذا في حق والدي، لقد حولك ادوارد لمجرم مثله.**

فرد ادوارد على ذلك الكلام بقهقهات مثيرة للغيض:

- **حولته الى مجرم... أنت لا تعرفين حقيقة آرثر، فهو لم يكن أبدا بالرجل الأبله، لديه عديد السوابق في اسكتلندا في السرقة والتحيل، فآرثر يفعل أي شيء مقابل المال، حتى وان كان ذلك الشيء هو سجن عجوز في سرداب كنيسة، وإلا ما كان جديرا بأن يعمل في قصري، هو من قتل زينا عندما علمت بأمر الكنيسة، ألا ترين كم هو وفي لي، وآسف يا عزيزتي لينور لأنك الليلة ستلقين نفس مصير زينا وأنا سأرث كل شيء.**

ثم انفجر بالضحك.
رفع آرثر المسدس وصوبه نحو لينور.

- **حركة واحد، وسيقضي آرثر عليكما.**

فاحتضنت لينور والدها وتكومت على الأرض.
وفجأةجاء صوت قادم من باب الكنيسة:

- **الآن لم يعد بامكانك الهروب يا ادوارد، كنت أعلم أنني سأمسكك متلبسا.**

ثم رفع المحقق جيمس سبنسر المسدس نحوه وآرثر وواصل القول:

- **بعد وفاة زينا عزمت ألا أدعك ترتكب أي جريمة أخرى وقررت أن اراقب المكان، وقد كنت أدخن في الشرفة عندما رأيت لينور تخرج في تلك الساعة من الليل وقد بدا أنها تتقفى شيئا ما، فراقبتها وبعد دقائق رأيتك تخرج لتتبعها في حذر، وعندما رأيت أنها دخلت الكنيسة توجهت لكوخ آرثر ثم دخلت الكنيسة برفقته، فقررت أن اتتبعكم حتى أعلم ماهية الأمر، وها أنا قد سمعت كل ما أستحقه حتى أجرك إلى حبل المشنقة.**

- **أخشى أن ذلك صعب حضرة المحقق فأنت لن تخرج من القصر أبدا، حتى وإن هربت وذلك بالطبع احتمال ضئيل فاعلم أن الذئاب لن يدعوك تمر بسلام، كلكم ستموتون الليلة.**

مسك آرثر المسدس ووجهه نحو لينور قصد التصويب وكانت تصرخ:

- **آرثر لا تفعل... لا!**

ثم سمعت صوت الطلق الناري وخرجت رصاصة لتستقر في كتف آرثر وتسقطه أرضا واذ بالمحقق يقول:

- **هيا انبطح على الأرض وإلا أفرغت المسدس في دماغك.**

وأخذ مسدس آرثر ثم صرخ في ادوارد:

- **نفذ ما آمرك به، أخرج من الكنيسة دون أي جلبة ارفع يديك واركع على الأرض.**

ففعل ادوارد ما أمر به دون أي مقاومة، ثم ركل المحقق آرثر وجره الى الخارج وأخرج لينور ووالدها حيث جلس اللورد فيليب على الأرض منهارا بينما احتضنته ابنته.

أخرج جيمس سبنسر القيود وألبسها لآرثر الذي كان ينزف بشدة.

تلطخت ملابسه بالدماء، ثم سالت الدماء على الأرض بينما كان يترنح من فرط الألم وكان على لينور أن تقاوم تلك الرغبة في أن تنقض عليه وتشرب من بركة الدماء تلك حتى ترتوي لكن عليها أن تقاوم فالتوقيت غير مناسب.

- **ان لم تمت من فرط النزيف فاعلم انك لن تخرج من السجن أبدا.**

هذا ما قاله جيمس سبنسر بينما استدار نحو ادوارد ليقيده، لكن اذ بادوارد يخرج مسدسا من جيبه ويرفعه:

- **هل خلت أني لا أحمل مسدسا أيها الأحمق، من تظن نفسك حتى تهدد اللورد إدوارد، حقا كم أنت محقق ساذج ، يا ترى من منكم سأقتل أولا، ذلك العجوز القذر أم لينور.**

ثم وجه ادوارد مسدسه نحو المحقق وقال:

- **لكن قبل كل شيء دعني أتخلص منك فقد اصبتني بالصداع هذه الأيام... ماذا؟ هل أنت خائف، أ لن تطلق الرصاص علي، انظر لوجهك المصفر كالأموات كأنك ترى شبحا.**

ثم تعالت ضحكات ادوارد.

فابتسم جيمس في ثقة وقال:

- **لا بل مصاصة دماء.**

لقد دب الرعب في أحشاء المحقق جيمس سبنسر بسبب عظمة المشهد الذي رآه، لم يبالي بادوارد الذي يصوب مسدسه نحوه بل كان ينظر للينور الواقفة وراء ادوارد.

نعم لقد كانت تتحول الى مصاصة دماء.

صارت عيناها بلون الدم، نمت أظافرها وبرزت أنيابها وتطاير شعرها في الهواء، انعكس ضوء القمر على وجهها حتى يجعلها مخيفة أكثر ثم فتحت فمها لتبرز تلك الأنياب الناصعة وتنقض على ادوارد.

وقد كانت تلك أفضل نهاية يمكن أن يتخيلها المحقق جيمس سبنسر لوغد كادوارد، لكن المحقق جيمس سبنسر راود نفسه عن تلك الفكرة وقال:

- **لا تقتليه يا لينور... فالشرطة في طريقها الى هنا ستصل في غضون ساعات، دعيه يواجه مصيرا أسوأ من الموت، دعيه يتعفن في السجن ثم يواجه حكم الاعدام.**

ودون أن تقدر على المقاومة أكثر، وعوض أن تنقض على زوجها، انقضت على كتف آرثر الجريح تمتص دمه حتى آخر قطرة.

صرخ وتحشرج وتلوى ثم فارق الحياة.

لقد خارت قوى ادوارد فور رؤيته لزوجته كأنها القبح متجسد على الأرض، فقد القدرة على الحركة أو على الكلام فاغتنم جيمس الفرصة وقيده معلنا النصر:

- **لقد ذهب ألكسندر لإحضار الشرطة، لقد وقعت في شر ما اقترفته كالمغفل.**

9

بعد اخراج اللورد فيليب غاردنر من سرداب الكنيسة تذكر المحقق جيمس سبنسر أحداث قصة لوفكرافت الوحش في الكهف التي وجدها في مكتبة ألكسندر حيث يحكى أن بطل القصة كان يتجول في كهف الماموث مع المرشد ثم ظل الطريق ونفذت شعلته، وفي اثناء محاولته للخروج بدأ يسمع اصواتا قادمة من بعيد ظنا أن هناك وحش.
لقد كانت تلك نفس الأصوات التي كانت تسمعها زينا.
ونفس الأصوات التي تسمعها لينور.
وحش في كهف.
وروح معذبة في سرداب كنيسة.
لم تحمل قصة لوفكرافت نهاية سعيدة كالتي شهدها اللورد فيليب غاردنر حيث انتهت القصة بأن الرجل الضائع في الكهف ظن أن صاحب تلك الأصوات هو وحش فرماه بالحجارة حتى أرداه قتيلا، بعدها عثر الرجل الضائع على المرشد فاطلعه بأمر الوحش فرفع الشعلة نحوه ليكتشف أن ما قتله للتو هو مجرد رجل بريء كان ضائعا في الكهف منذ مدة.
ثم حمد المحقق الله لأن اللورد فيليب غاردنر لم يلقى نفس المصير، وبمعجزة ما تمكن هذا العجوز المسكين من الخروج من السرداب بعد سنتين .
وسيتلقى العلاج اللازم ثم يعود للحياة في قصره مع ابنته لينور وحفيده ألكسندر.

لقد رأت ايفا كل شيء من الشرفة فهي لم تتمكن من مجابهة مخاوفها والنزول لترقب تلك الملحمة الدرامية.
رأت آرثر وهو يموت على يد لينور ورأت ادوارد مقيدا على الأرض والمسدس موجه نحو صدغه وهو يصرخ:

- **انا ارتكبت كل تلك الجرائم لكني لم أقتل دايزي... لم أقتل دايزي.**

فكل تلك الدماء والصراخ وصوت صفارات سيارات الشرطة تذكرها بشيء واحد فقط .
تلك الليلة التي غيرت مسار حياتها الى الأبد.
اللحظة التي فقدت فيها كل شيء.
هنا أدركت أن محاولتها الأخيرة في أن تصلح حياتها قد باءت بالفشل.
لماذا هي دوما عاثرة حظ هكذا.
لماذا هي من تتواجد في أبشع الجرائم.
وفور قدوم سيارات الشرطة، نزلت رفقة الصغيرة اناستازيا.
ألا يكفيها ما حدث منذ سنوات، خسرت عائلتها، خسرت نفسها.
تخلى عنها الجميع حتى ألكسندر.
وقبل مغادرتها القصر تحدثا في تلك الدقائق الأخيرة قبل شروق الشمس عن طموحها وقالت له بصوت يملأه الحماس:

- **ألكسندر، أنت لا تنتمي لهذا المكان، يحب أن تتحرر، يجب أن ترحل عن هذا القصر وزوج أمك المجنون، تعال معي لنبدأ حياة جديدة هناك في دبلن أو في أي مكان من هذا العالم سنحضر عشرات الحفلات الصاخبة، أريد أن أسافر أريد أن أعيش مغامرات جديدة معك، معا سيبزغ علينا فجر يوم جديد.**

فأجابها بعد أن أخذ السيجارة من بين أصابعها ودسها في فمه:

- **أنا لن أرى النور، لن أستطيع العودة لدبلن ولتلك الحانة بالذات، هناك من يبحث عني في كل مكان.**
- **هل كل هذا بسبب وفاة جوليا؟**

لكنه سكت ولم يجب.

- **أنت، ايفا غراي، سيكون لديك مستقبل مشرق في يوم ما، فقط لا تيأسي، لا تستسلمي، غادري هذا القصر وابحثي عن عمل حقيقي في مكان آخر، أما أنا فسأعيش هنا مع لينور إلى الأبد يا آنسة ايفا غراي.**
- **لكن أنا ...**
- **لا تقولي أي شيء الآن.**
- **لكني لا أريد الذهاب بمفردي، دعني أبقى معكم بالقصر.**

نظرت اليها لينور وقالت:

- **لن تذهبي بمفردك، خذي أناستازيا معك، فأنا لن أقدر على القيام بها بعد الآن.**
- **لا استطيع فأنا لا أملك أي مكان أذهب إليه.**
- **فقط خذيها معك، هي بأمس الحاجة إليك، أما أنا وألكسندر فسنرقد حتى يعود اللورد فيليب الى قصره.**
- **لكني لا أستطيع.**

فقال ألكسندر :

- **ثقي بأننا سنلتقي يوما ما، أما الآن فعلينا أن ندخل القصر قبل شروق الشمس، إيفا، سيدي المحقق شكرا على كل شيء.**

فنظر له جيمس سبنسر رافعا قبعته كتحية وقال:

- **لن أغيب طويلا، سآخذ اللورد فيليب غاردنر إلى المستشفى من أجل القيام بالفحوصات اللازمة ثم سأعيده إلى القصر.**

فردت لينور:

- **سنكون في الانتظار.**

ثم احتضنت والدها وقبلته قبل أن يركب السيارة وقالت لوالدها قصد طمأنته:

- **سننتظر عودتك، يا أبي، ستتعافى ويعود كل شيء كالسابق.**

أخذ جيمس إيفا وأناستازيا برفقته نظر لألكسندر ولينور وقال:

- **وداعا يا رفقاء الليل.**

كان هنا منذ البداية

ثم ركب السيارة بينما ادوارد كان لا يزال يصرخ:

- **لم أقتل دايزي ديفاين... لم أقتل دايزي ديفاين.**

في قسم الشرطة توجه المحقق جيمس سبنسر الى مكتبه رئيسه وناوله ملفا فيه مجموعة من القضايا عن مقتل ريتشارد أوكونور واختفاء اللورد فيليب غاردنر وايما كارتر المشهورة باسم دايزي ديفاين، وزينا وآرثر وكتب على الملف.

كان هنا منذ البداية

"قصر اللورد فيليب غاردنر"

أغلقت القضية

تحدث عن سيدة القصر الكئيبة وابنها، تحدث عن مقتل زينا عن كل ما فعله ادوارد في حقها.

فقال له رئيسه في العمل:

- **جيمس لقد ابليت بلاءا حسنا في هذه القضية، كنت أعلم أنك الوحيد القادر على حلها ولا يوجد محقق غيرك جدير بأن يكون في مكاني، لكن قبل كل هذا هناك بعض الأمور التي يجب ان نناقشها، هل سمعت بما حل باللورد فيليب؟**
- **لقد اخذته للمستشفى من أجل العلاج ولم أزره ثانية.**
- **بعد أن عالجه الأطباء اتضح انه كان يعاني من نقص السكر، وصعوبة في التنفس، ربما يعاني ايضا من هشاشة في العظام أو متلازمة باركنسون فهو بالكاد يقدر على الوقوف، ذلك العجوز قد مر بالكثير، بعدها طلب الطبيب المعاين أخذه لمستشفى الأمراض العقلية، ففترة مكوثه في ذلك السرداب جعلته يهذي، المسكين يظن ان ادوارد سيجده ويقتله ويقول أن ابنته مصاصة دماء، كان يصرخ طيلة الوقت " لا تتركوني وحيدا أنا أخاف الظلام" لم يتمكن من النوم بمفرده فاضطرت أحد الممرضات للمكوث معه، كان في حالة ذعر ... المسكين ذلك العجوز السبعيني قد جن، ولا أظن أنه سيخرج من المستشفى أبدا.**
- **لا هو ليس مجنونا انها فقط مجرد وعكة صحية وستمر، لقد وعدت الليدي لينور بأن أعيد لها والدها في أقرب وقت.**
- **يا رجل هدأ من روعك لم نجد لليدي لينور في أي مكان، فقد عادت الشرطة من اجل انتشال جثة زينا وقد فتشوا كل شبر في القصر ولم يكن هناك أي أثر للينور وابنها ألكسندر، إما أن تكون هربت رفقة ابنها أو انها حقا مصاصة دماء، وأنت تعلم أنه لا وجود لتلك المخلوقات الخرافية في الواقع.**

كان هنا منذ البداية

لم يشأ المحقق جيمس أن يطلع رئيسه بأن لينور وابنها هما حقا مصاصا دماء وإلا سينعته بالخبل والجنون، ففضل الصمت لكنه أصر قائلا:

- **صدقني لقد كانت الليدي لينور هناك ووعدتها ان اعيد لها والدها في أقرب وقت، تستطيع ان تسأل الآنسة ايفا غراي لقد رأت كل شيء.**
- **آه انت تقصد تلك الفتاة ذات الشعر الصدأ، كان تأثير الصدمة النفسية باديا عليها، لم تكف عن البكاء والصراخ كانت تهذي وتتحدث عن مصاصي الدماء هي الأخرى، أظن ان الفتاة تتعاطى شيئا وقد أثر ذلك على عقلها، فقد تحدثت عن لعنة في القصر وتحدثت عن رجل ذو ملابس سوداء تراه في أحلامها ويرغب في قتلتها مثل ما قتل عائلتها ثم أبدت رغبة في محاولة الانتحار مجددا، فجاء طبيبها الدكتور ثيودور كراولي وأطلعنا بأنها تعاني من مشاكل نفسية منذ وفاة عائلتها وقال أنه سيأخذها لعلاجها في مدينة أخرى أظن ان اسمها كان فيريفيل، لا أعلم أين هي ولا أين تقع، لكني سمحت لها بالذهاب معه، فالمستشفيات تعج بالمجانين ولسنا بحاجة لمريضة هيستيرية أخرى تقضي أياما تتلقى العلاج بالصدمات الكهربية ثم تلقي بنفسها من سطح المستشفى.**

فصرخ جيمس في حيرة من امره:

- **ماذا عن الصغيرة أناستازيا ؟**
- **طبعا هي في دار الأيتام، لا يوجد أي شخص ليعتني بالرضيعة المسكينة فوالدها في السجن وأمها اختفت دون أي أثر، حتى جدها المسكين في مستشفى الأمراض العقلية...**
- **مستحيل... سأعود الى هناك وسأثبت أن الليدي لينور وألكسندر هناك وأنا لا أهذي.**

فضحك الرئيس قائلا:

- **أيها المحقق جيمس، لقد أغلقت السلطات المحلية القصر، سيصير ذلك القصر مهجورا كبقية قصور إيرلندا.**
- **ذلك لن يحدث... امنحني فرصة أخيرة.**

- **لقد كانت مهمة متعبة لك، أتمنى ان تأخذ اجازة حتى تريح عقلك وتتخلص من كل هذه الهلاوس لا وجود للينور ولا لألكسندر، ومن منصبي كرئيس عملك فأنا أعطيك اجازة مفتوحة لغاية ان تتحسن.**
- **لكني على ما يرام أنا لا اتوهم، فقط دعني أثبت ذلك لك ساعود للقصر...**
- **ذلك مرفوض، خذ زوجتك وسافر لمكان يريح الأعصاب كاسكتلندا أو ويلز وريثما تعود سنناقش أمر الترقية، فان واصلت الهذيان هكذا فأنت لن تنالها.**
- **لكني لا أريد إجازة... سيدي امنحني آخر فرصة لأثبت لك.**
- **ان لم تنفذ أوامري فسأطلب منهم أن يخضعوك للفحص النفسي وعندها سنرى ان كنت تعاني من صدمة نفسية أنت الآخر أم لا.**

فأخذ جيمس قبعته من على المكتب وانصرف دون ان يقول اي شيء.
منتكسا غادر قسم الشرطة بينما كان يسمع ادوارد الذي كان في غرفة الإيقاف يصرخ ويقول:

- **أنا لم أقتل دايزي... لم أقتل دايزي صدقني أيها المحقق.**

فنظر له المحقق جيمس دون أن ينبس ببنت شفة، وضع قبعته فوق رأسه ثم انصرف ليعود لشقته خائبا.

ان كنت تظن أن حصة المريضة ايفا غراي ستبدأ بصوت كاسيت التسجيل المعهود ثم تبدأ في التذمر والبكاء فأنت مخطئ.
لم يرغب الدكتور ثيودور كراولي هذه المرة في تسجيل آخر لقاء له مع تلك المريضة البائسة آنسة ايفا غراي، فكل التسجيلات مماثلة، إيفا تبكي، إيفا تتحدث عن اضطراب ما بعد الصدمة، ثم تخطط للانتحار. تلك الفتاة التي سئمت الحياة رغم سنواتها الثلاثة والعشرين، لقد رأت كل شيء وجربت كل شيء وما من شيء بقي لتعيش من أجله.

أخذها الدكتور ثيودور كراولي من قسم الشرطة الى منزله، أين قضت أياما بائسة تنام بالأقراص المهدئة وتصحو على كوابيس أو شلل النوم.
ولولا مساعدة الدكتور ثيودور كراولي لما بدأت حالتها بالتحسن، أخبرها أنه يعد مفاجأة لها فشعرت بغبطة وترجته أن يطلعها عليها، لكنه احجم وقال لها:

- **دعيني أرتب كل شيء ثم سأطلعك عن المفاجأة فور انتهائي.**

ذهب للعمل كعادته، ثم عاد للمنزل في المساء ومعه مأكولات كان قد اشتراها من محل الكنتاكي فهو يعلم أن إيفا تحب ذلك الدجاج الشهي المقرمش، حياها فور دخوله فوجدها متمددة على الأريكة في غرفة الجلوس كأنها قطة متشردة يتيمة.

- **دكتور كراولي أخيرا عدت، كم شعرت بالملل والخوف بمفردي.**

وضع يده على كتفها وقال:

- **لا تقلقي لا شيء يثير الخوف.**

ثم أشارت الى المكتبة التي أمامها قائلة:

- **لقد قلبت كل الكتب ولم أجد أي شيء يصلح للقراءة ألا تملك مجلات مصورة؟**
- **للأسف لا**
- **في المرة القادمة هل يمكنك أن تحضر لي آخر اصدار من الكتاب المصور "حروب النجم" فكتبك النفسية المعقدة المليئة بالمصطلحات النفسية التي تنتهي بفيليا أو فوبيا غاية في الملل دكتور كراولي.**

سأفعل في المرة القادمة آنسة غراي، هيا لقد أحضرت دجاج كنتاكي الذي تحبينه للعشاء.

وبعد العشاء ناولها قرصا مهدئا حتى لا تبدأ بالصراخ والنحيب كالعادة.

- **آنسة ايفا غراي انا آسف على كل ما مررت به في ذلك القصر... لقد ظننت ان الأمور ستتحسن عندما أرسلتك إلى هناك، لكن لا تقلقي لقد أتممت المفاجأة التي حدثتك عنها.**

فأجابته بصوت واهن استسلم لمفعول المهدئ:

- **كان هناك دماء... ذلك القصر غارق في اللعنات.**

- **آنسة ايفا غراي حاولي أن تنسي، يجب أن ترتاحي الآن سيساعدك هذا القرص على النوم غدا سنسافر أنا وأنت إلى فيريفيل، ولن تتألمي بعد ذلك الى الأبد يا صغيرتي...**

فهو مازال يراها فتاة صغيرة في الرابعة عشر.

- **هل هذه المفاجأة التي حدثتني عنها.**
- **أجل، أعلم أنك تحلمين بالسفر، وقد رتبت كل شيء انه الوقت الملائم لقضاء عطلة في فيريفيل.**
- **لا أستطيع، لا أظن أن الوقت مناسب دكتور كراولي... أنا لم اعد قادرة على التحمل، أنا أفقد السيطرة على عقلي، أنا أرى الهلاوس من جديد، اسمع صوت الطلق الناري، أرى الدماء، أرى والدتي ميتة، أرى زينا تطفو فوق الماء، أرى رأس والدي وقت تناثرت أجزاء من جمجمته على الأرض... أرى لينور تمص دم آرثر.**

تبين الدكتور ثيودور كراولي أن مريضته إيفا تعاني من حالة ذهان متقدمة صارت ترى أشياء وتسمع أشياء فهو بالطبع يعرف أن لا وجود لخرافات مصاصي الدماء أمه كانت تحكي له تلك الخرافات أمام المدفأة أما إيفا فحالتها تسوء، وخطر بباله لفترة أن يستسلم ويتركها تواجه المجهول، لكنه بالطبع لن يفعل.

- **إيفا، صديقيني أنت محتاجة لرحلة كهذه، بعدها ستنسين كل ما مررت به في ذلك القصر، أعلم أني من أرسلك الى القصر، وأقر أني مذنب نوعا، دعيني أصلح الأشياء على طريقتي، سافري معي الى فيريفيل... ماذا تقولين؟**
- **لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور، أنت ملاك حقيقي أنت الوحيد الذي لم يتخلى عني رغم كل شيء... أنت دائما هنا في الوقت المناسب، لقد حاولت انقاذي بشتى الطرق، أنت تفعل كل ما كان في وسعك،**

واجهشت بالبكاء لتبلل دموعها الوسادة.

- **إيفا! حاولي ان تنامي وتذكري ما سأقوله جيدا لاوجود لمصاصي الدماء عزيزتي، أنا هناك لاحميك مثل ما كنت أفعل دائما، سأخلصك من كل هذا العذاب، غدا سينتهي كل شيء، إيفا، لا أريد أن أراك منهارة هكذا، غدا سنسافر وسنضع حدا لكل هذه المأساة ثقي بي، ستقضين وقتا جميلا معي.**

نظرت له بعينين متعبتين ودون أن تقول كلمة غطت في نوم عميق.

تؤمن إيفا أن الله أرسل لها الدكتور ثيودور كراولي حتى يخرجها من مأساتها، لو لاه لما تمكن من القيام بأي شيء في حياتها ورغم كل الأحداث المؤلمة التي مرت بها الا انه الشخص الوحيد الذي تثق به، وكانت تؤمن ان الخلاص سيكون على يده في يوم ما.

سافرت معه إيفا الى مدينة فيريفيل وقد جعلها ذلك في قمة النشوة والسعادة، رحلة جديدة في مكان هادئ لطيف مع الدكتور كراولي هذا ما كانت محتاجة له حقا

كانت مدينة في الجانب الآخر من العالم، في قارة أخرى، وفي بلاد أخرى، ثقافة أخرى، كل شيء كان مختلفا بطراز معماري فرنسي قديم.

السماء رمادية والهواء البارد يتسابق ليلطم خدها ويطير خصلات شعرها البرتقالي في الهواء، لكن في كل الأحوال ففيريفيل أفضل من أزقة دبلن.

لم يكن هناك بانكرز، ولم يكن هناك مخابيل بشعور ملونة وبناطيل ممزقة، الكل يلبس ملابس أنيقة، البدلات، الأحذية ملمعة، النسوة يلبسن أجمل الفساتين والتنورات وآخر صيحات الكعب العالي.

كان هنا منذ البداية

هكذا كانت تبدو فيريفيل سنة *1978*.
تجولت معه لتتعرف على معالم المدينة، البحر كان لطيفا ونسماته منعشة، جلسا في مقهى باريس وتحدثا عن جمال المدينة لساعات، ثم
وقفا في انتظار قدوم سيارة أجرة في مركز المدينة " مفترق الشوارع الثمانية" أين نصب تمثال لزعيم لا تعرف عنه شيئا، ثم رأت شارعا ذو عمارات بها أقواس على الجانبين وأشجارا مزروعة على الأرصفة لغاية نهاية الشارع الذي شيدت فيه كنيسة شامخة تحرس المدينة من كل شر.
ربما هذه هي البداية الجديدة التي تتوقت لها إيفا غراي ربما هذه المدينة ستكون نقطة الضوء التي طالما بحثت عنها، وبهذه السفرة لقد أعطاها الدكتور كراولي فرصة العمر لكي تبدأ من جديد ثم أطلعها الدكتور كراولي عن مفاجأة أخرى:

- **سنحل ضيوفا في منزل الدكتور هاوورد، سيروق لك المكان، فهو بيت مزرعة على الطراز الفرنسي القديم يقع في الضواحي، لن تستغرق منا الرحلة الكثير من الوقت بعدها سنكون في منزل أعظم جراح في البلاد.**
- **أنا متشوقة لرؤية هذا الدكتور الذي طالما حدثتني عنه.**
- **انه رجل عظيم غاية في العبقرية، انه جراح مجنون يقدس عمله، ستقضين أياما جميلة بصحبته.**

فاتسعت عيناها وراقت لها هذه الفكرة.
ثم أشار بيده لسيارة أجرة وصعدا.

في بيت المزرعة رحب بهما الدكتور هاوورد أفضل ترحاب، استقبلهما في المنزل بكل حفاء وقال:

- **هذه اذا آنسة ايفا غراي التي حدثتني عنها يا سيد كراولي.**
- **أجل، هي تعرف عنك الكثير كنت أحدثها عن عظمتك طيلة الوقت.**

قبل يدها ونظر لها بعينين مذبلتين قائلا:

- **تشرفنا آنستي، لكنك لم تخبرني يا سيد كراولي انها فائقة الجمال.**

أما هي فقد كانت تبتسم لتؤكد كل كلمة يقولها الدكتور.

كان الدكتور هاورد طبيبا جراحا بارعا، وسيم أشقر ذو شارب يجعلك تعلم أنه ارستقراطي، وتسريحة شعر جانبية منمقة.

يلبس بدلة رمادية وعطر فاخر يشتم على بعد أمتار، يضع عوينات تارة وينزعها تارة أخرى، يدخن غليونا يملأه بالتبغ الأسود ويتحدث عن الطب بمصطلحات لاتينية غريبة.

قال الدكتور هاوورد أنه من عائلة رائدة في مجال الطب وهو يطمح أن يكون أفضل جراح في العائلة كلها، فقد كان دوما الأفضل ويوما ما سيصير جراحا يتحدث عنه الجميع.

وقد كان صديقه الدكتور كراولي يثني في مديحه أمام إيفا بينما كان هاوورد يتحدث عن طموحه:

- **أنا سأكون الجراح الذي سينال جائزة نوبل القادمة، سأغير مسار الطب باكتشافاتي، سيتحدث عني كل الأجيال.**

ذكر الدكتور هاوورد أيضا انه يستعد للزواج عن قريب، وزوجته من عائلة ثرية معروفة وسيعيشان معا في بيت المزرعة، فهنئه الدكتور كراولي وقال مسرورا:

- **سأكون أول الحاضرين.**

كان هنا منذ البداية

كان هنا منذ البداية

كان الدكتور هاوورد من هواة الطبخ وقد كان يعتبره فنا يشغف بممارسته في أوقات فراغه وقد أعد العشاء بنفسه، سلطة البازلاء مع شرائح اللحمو المكرونة مع البارميجانو والبطاطا المهروسة، فقد كان بعلم أن البطاطا المهروسة هي طبق الايرلنديين المفضل، أشعل الشموع ووضع مزهرية على الطاولة ثم شغل اسطوانة آرتي شو في الفونوغراف وبدأ يتحدث عن عظمة ملك الكلارينيت آرتي شو قائلا:

- **هل تعلم يا سيد كراولي أن هذه الأسطوانة التي تسمعها الآن هي آخر اصدار لآرتي شو، نزلت في المحلات منذ أشهر، اسمها سحر الكلارينيت، ليتك سافرت معي للولايات المتحدة العام الماضي وشهدت أعظم عرض موسيقي في حياتك.**
- **جدول أعمالي كان ضيقا لم اتمكن من السفر لكن ربما سنسافر معا مرة أخرى، وذوقك يا ميستر هاوورد مازال راقيا كالعادة، على الأقل أنت لم تلوث سمعك بتلك الموسيقى الصاخبة التي تغزو المملكة المتحدة كالوباء.**

وهكذا قضت إيفا سهرة تستمع فيها لتاريخ عائلة هاوورد وانجازاتهم الطبية ووالده الطبيب الذي خدم في الحرب العالمية، وأخت الدكتور هاوورد التي تعمل كمبنجة في مستشفى خاص، وأخاه الذي فتح عيادة للاطفال، وأخاه الآخر الذي سافر من أجل القيام بتربص في مستشفى فرنسي.

ثم راح يسترجع ذكرياته مع الدكتور كراولي عندما كان طبيبا مقيما في لندن.

- **دكتور كراولي هل تذكر ذلك المريض الذي أجريت له عملية جراحية تاركة له ندبة في وجهه مما سبب له حالة اكتئاب؟**
- **أجل لم تكن حالته مستعصية.**

هل تذكر الدكتور فلان والزميل فلان، هل تذكر الممرضة الحسناء، وتلك الطبيبة الألمانية، هل تذكر المدير العصبي البدين.

ثم ينفجران ضاحكين.

سهرة فاحت منها رائحة الكلوروفورم والفورمالين، طبيبان لم يتقابلا منذ مدة فعن ماذا عساهما يتحدثان، ليس عن حفلات الأندرغراوند بالطبع.

ثم ناولها الدكتور كراولي ذلك القرص المنوم كالعادة حتى تنام بدون كوابيس.

حاولت أن تتذكر كيف انتهى بها المطاف في هذا القبو اللعين.
ذلك القبو الذي مات فيه العشرات قبلها، مثلما سيموت العشرات بعدها. مرحبا بكم في عالم الدكتور هاوورد الخاص، في هذا القبو يقوم بكل تجاربه الطبية الغير انسانية قصد "خدمة العلم".

كان هنا منذ البداية

بدأ هوسه بالجراحة منذ الطفولة حيث شرح قطة المنزل المدللة بحجة أنه أراد ان يلعب.
في هذا القبو قام ذات مرة بتشريح رجل وهو على قيد الحياة دون أي مخدر، استمتع بصرخاته، أدخل يده في أحشائه، انتزعها الواحدة تلو الأخرى، أخذ جرعة من المورفين الذي أدمنه حتى تمكن من مواصلة ما يفعله ثم ترك الرجل يحتضر حتى الموت بعدها رمى الجنة للخنازير في الاسطبل وبعثر بقايا العظام في الغابة.
رفعت إيفا عيناها لترى المصباح الصدأ يتدلى باضاءة غير ثابتة وصوت أزيز المصباح قد زاد حالة صداعها سوءا، تطلب منها الأمر دقائق حتى تستفيق. كل شيء من حولها غير ثابت ويدور...
يدور...
بمفعول الصداع.
ثم بسرعة أدركت أنها مقيدة على الكرسي الذي يجري عليه الدكتور هاوورد عمليات الاجهاض.
في الواقع لقد تجاوز الأمر عمليات الإجهاض، فعلى ذاك الكرسي أجرى الدكتور هاوورد في أحد المرات عملية قيصرية على امرأة دون أي تخدير، ترك المسكينة تواجه مصيرا كابوسيا، امتزجت صرخاتها مع صوت كلارينيت آرتي شو، لكن جهازها العصبي لم يحتمل وفارقت الحياة. وكم كان يتلذذ عندما يموت أحد مرضاه فهو يراهم ضعاف الحال، وهو فقط لديه القدرة في أن يقرر ان كان ذلك الشخص جديرا بالموت أو الحياة
حاولت إيفا التحرك لكنها كانت مقيدة، فباشرت بالصراخ:
- **دكتور كراولي اين أنت؟**

وتصاعد صراخها:
- **دكتور كراولي... دكتور كراولي.**

ثم سمعت صرير الباب وهو ينفتح واذ بالدكتور كراولي يتقدم نحوها رفقة صديقه الدكتور هاوورد وهو يقول:
- **لقد استفقتي يا عزيزتي...**

- **دكتور كراولي أنا في ورطة... أنقذني أرجوك، لا أفهم ما الذي يحدث من حولي؟ كيف انتهى بي الأمر على هذا الكرسي.**
- **لا تقلقي الدكتور هاوورد سيحسن التصرف معك، أخبرتك أنه جراح مجنون، لكن الأمر لن يدوم طويلا...**
- **أنت... دكتور كراولي فعلت بي كل هذا، جعلتني أتبعك الى هنا، قدتني لحتفي... لكن لماذا؟**
- **أ حقا ترغبين في أن تعرفي لماذا، لا بأس سأخبرك بكل التفاصيل لك الحق في معرفة كل شيء قبل تفارقي الحياة.**

جذب كرسيا خشبيا وجلس قبالتها، أشعل سيجارة وبدأ يتحدث:

- **في الماضي كان والدك يعمل معي في شبكة تصنيع الأدوية، الحبوب المهلوسة، المخدرات، المهدئات، كلها كنا نبيعها للشباب الطائش البائس أمثالك... أخبرتك أن والدك لم يكن ملاكا، هو سبب ما أنت فيه.**
- **لا....**
- **لا تقاطعيني، والدك أراد أن يكون له البزنس الخاص به، أراد تجارة أكبر دون أي شراكة أو وجع رأس فهو من يصنع الأدوية ولن يجد أي صعوبة في بيعها في الحانات وبين الأزقة وقد كان أحمقا لأنه ظن أن بإمكانه أن يخرج من اللعبة دون أي ضرر، وبعد مناقشات عدة لم يترك لي الحقير أي خيار غير أن أحضر رجالي وأفعل ما فعلته في تلك الليلة، هل تذكرين؟**
- **أنت... أنت هو صاحب!**

وتراءت لها صور من الماضي ومن تلك الجريمة والرجل صاحب الملابس السوداء، نبرة صوته، مشيته، كلامه، قسوته...

- **أجل أنا صاحب الملابس السوداء، أنا من قتل عائلتك أنا من تركتهم يختصبوك، أنا من ارتكب كل شيء... عزيزتي إيفا يا لها من ذكريات جميلة أليس كذلك؟**
- **حقير، حقير، كيف لم أنتبه أنك كنت أمامي طيلة هذه السنين؟**
- **لأنك كنت مغفلة مثل والدك.**
- **ليتك قتلتني معهم، ليتك أرحتني من كل هذا العذاب.**

- **لا تقلقي اليوم سينتهي كل هذا العذاب.**

بدأت تتعالى صرخاتها محاولة التملص من الكرسي.

- **لا تتعبي نفسك، لن تستطيعي الهروب فقد حاول العشرات قبلك لكن جميعهم فشل، فقد صمم هذا الكرسي يعناية حتى لا يفلت منه أحد.**
- **لماذا ظهرت في حياتي بعد فعلتك الشنيعة تلك؟ لماذا ساعدتني؟**
- **عزيزتي إيفا أنا لم أساعدك البتة، أنت لا ترين الأشياء على حقيقتها، أنا من قادك للجنون أردت الأقراص المنومة والمهدئة فأعطيتك إياها، جعلتك مدمنة لا تدرين أي شيء عن ما يدور حولك، أنا من أعطاك كل الأسباب للانتحار لكنك كنت غبية تفشلين في كل مرة... فاشلة حتى في الانتحار، كم أنت مثيرة للشفقة.**
- **لماذا كل هذا، أنا لم أفعل لك أي شيء، لقد وثقت بك أكثر من أي شخص آخر.**
- **أعرف، أعرف يا عزيزتي، نحن غالبا ما نثق في الأشخاص الخطأ، وانت خير دليل على ما أقول، أضيفي الى أني وجدتك محور اهتمام جيد ، وقد ساعدتني في بلورة دراستي السيكولوجية الجديدة، ربما أسميها اعترفات مريضة تعاني من رهاب الشنق مثل ما قلت في احدى جلساتك، رباه حتى فرويد لم يتمكن من معاينة حالة نفسية بهذا البؤس، دراستي ستحدث ثورة في علم النفس السريري.**

وانفجر ضاحكا غير مبال ببكاءها.

أشعل سيجارا ثانيا ثم واصل الحديث:

- **عزيزتي إيفا، أما الآن، هل تعرفين السبب الحقيقي وراء ارسالك لقصر اللورد فيليب غاردنر؟**

فهزت رأسها أن لا.

- **عزيزتي إيفا، لا يخفاك الآن أن ادوارد هو صديق مقرب لي، رجل غاية في الرذالة والانحطاط مثلي يفعل مل شيء من أجل المال، أطلعني بأنه يرغب في أن يتخلص من زوجته الليدي لينور، وطلب معونتي في ذلك الأمر، وبناءا على خطة محكمة أرسلتك للقصر حتى يتمكن من القيام بجريمته التي**

ستتهمين أنت بها، فتموت لينور وتقبعين أنت في في مستشفى الأمراض العقلية، بينما يرث إدوارد كل شيء وبالطبع أحصل أنا على عمولتي مقابل خدمة العمر تلك لكن الحقير أفسد الخطة في آخر لحظة عندما قال إنه ينوي أن يتزوج دايزي بعد موت لينور... هل تعلمين ماذا فعل؟

فقالت وهي تبكي بينما سال خيط من المخاط من أنفها:

- **قتل دايزي ؟**
- **مخطئة، فهو لم يفعلها، أنا من قتلت دايزي، حاولت أن أبعده عنها لكن لم أفلح ولم يترك لي أي خيار آخر غير أن أقتلها وأجعله يدفع ثمن كل شيء...**

ثم تنهد متحسرا وواصل الحديث:

- **أنا من عرفه بدايزي ديفاين، لكن المغفل وقع في حبها، كان عازما على الزواج بها... لقد كنت أحبها، بصدق، كنت سأتزوجها لو قبلت ذلك، لكن في نهاية الأمر اختارت ادوارد.**
- **أنت قتلت دايزي وقتلت عائلتي، ادوارد لم يكذب عندما قال أنه لم يقتل دايزي... أنت وحش... أنت وحش حقيقي...**
- **لم أجعله ينعم بالسعادة التي حلم بها، ادوارد لديه كل شيء المال والثروة ودايزي، لكن ماذا عني؟ ثيودور كراولي لم يحصل على شيء، لم اتمنى أي شيء في هذه الحياة غير دايزي، وقد نالها ادوارد في النهاية، ففي هذه الحياة يا عزيزتي إيفا نحن لا نستطيع الزفر بالشيئين معا، إما الحب أو المال، وأظن أن ادوارد قد اختار الطريق الخطأ، لذا كان يجب علي أن ألجأ للخطة البديلة.**
- **أنت حقير... وضيع.**
- **تأكدت يا عزيزتي أن اضطراب الكرب التالي للصدمة لا يتلاشى عندما يكون المري محاطا بأحداث من الماضي كنت تسمعين صوتي في كل لقاء لنا ثم تراودك الكوابيس ثم تجيئين لمكتبي في الصباح لتقولي أنك تحلمين بالرجل ذو الملابس السوداء، تسمعين صوته في كل مكان، كنت تقولين إنه يراقبك**

هل تذكرين... لم تتمكني من النسيان لأني كنت في حياتك كامل الوقت، كيف لك أن تتجاوزي كل ذلك وتبدئي من جديد... سحقا كم أنت ساذجة.

- **لن تفلت بجرائمك أيها الوغد...**

ثم بدأت تصرخ بطريقة هستيرية.

- **لن يسمعك أحد عزيزتي إيفا، هذا مصيرك فتقبليه، الحياة ليست للضعاف، ليست للمنتحرين، ليست للمدمنين أمثالك، بل أمثالي وأمثال الدكتور هاوورد نقرر من هو جدير بالحياة، فالحياة ليست للجميع يا إيفا، بعد أن عدتي من قصر اللورد فيليب غاردنر ، كنت قد أطلعت الدكتور هاوورد عن أمرك وقد رحب بفكرة قدومك لفيريفيل فهو دائما متعطش لتجارب طبية جديدة، أما الآن بعد أن أخبرتك بكل شيء، أتمنى أن تقضي وقتا ممتعا مع الدكتور هاوورد، وداعا الى الأبد آنسة إيفا غراي.**

قال كلماته الأخيرة ثم هم بالخروج.

- **أرجوك... لا ، دكتور كراولي... لا تتكرني هنا مع الدكتور هاوورد، أرجوك ... دكتور كراولي... دكتور كراولي...**

التفت إليها آخر مرة وكانت عيناه الخبيثتان تقولان كل شيء:

- **لا تقلقي آنسة غراي سيكون الأمر سريعا ولن تتألمي كثيرا.**

تقدم نحوها الدكتور هاوورد بملابسه الطبية وعويناته اللامعة وكمامته الطبية التي غطت كل ملامح وجهه، رأت المشرط يرتفع...

يرتفع ليستقر في مكان ما من جسمها.

ثم تصاعد الصراخ.

وقف الدكتور كراولي عند الباب للحظات ليسمع آخر صرخات المريضة التي باشر حالتها لسنوات "الآنسة إيفا غراي"

ثم أغلق الباب.

النـهاية

كان هنا منذ البداية